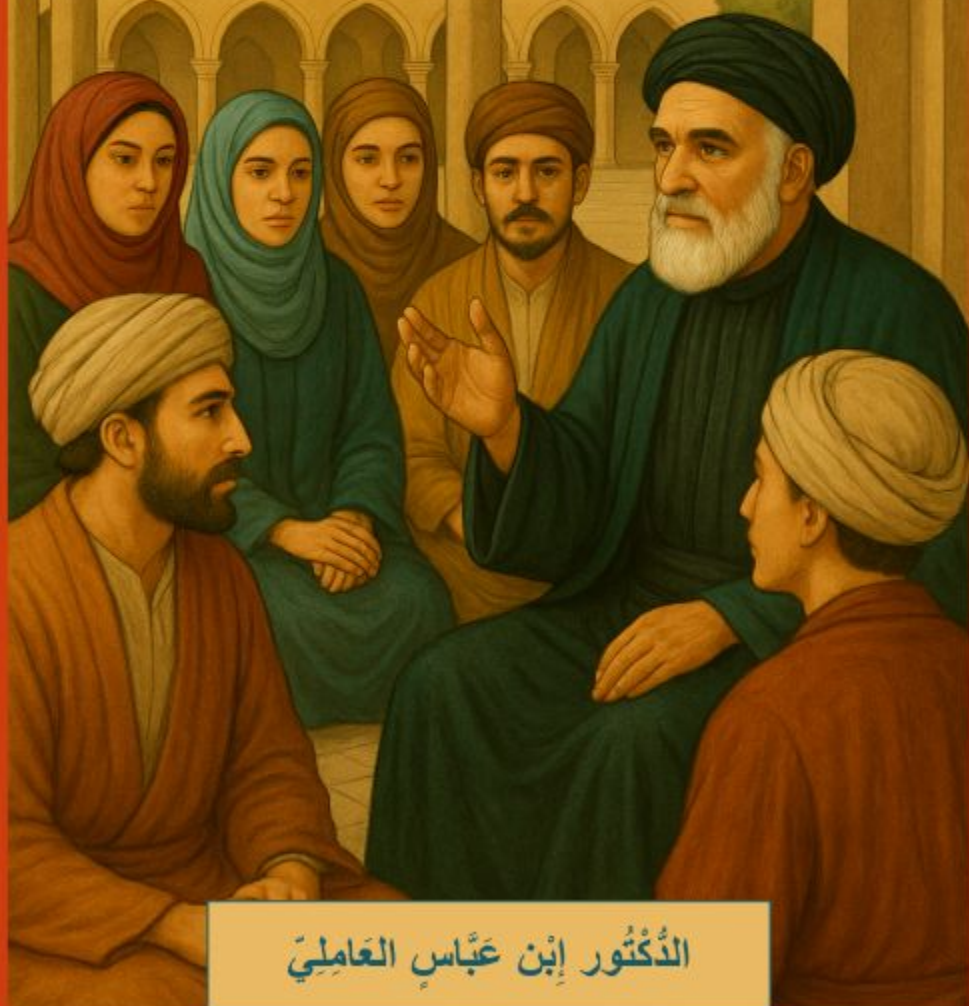


جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَّعَقُّلِ



الدُّكْتُورُ ابْنُ عَبَّاسٍ الْغَامِلِيُّ

مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالتَّعَقُّلِ

رِوَايَةٌ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَنْطِقِ الْبَيَانِ: مُحَاوَرَةٌ
بَيْنَ الْإِمَامِ وَالطَّلَبَةِ

الدُّكْتُورُ ابْنُ عَبَّاسٍ الْعَامِلِيُّ

جَدِیَّةُ الْعَقْلِ وَالتَّعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

جَدِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ



رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي

(طه: 25-27)

حُقُوقُ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَحْفُوظَةٌ ©

المؤلف: ابن عباسٍ العامليُّ - ٢٠٢٥م

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَحْفُوظَةٌ. لَا يَجُوزُ إِعَادَةُ طَبْعِ هَذَا الْكِتَابِ، أَوْ أَيِّ جُزْءٍ مِنْهُ، أَوْ نَقْلُهُ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ، سَوَاءً أَكَانَتْ إلكترونيَّةً أَمْ ميكَانيكيَّةً أَمْ صَوْتِيَّةً أَمْ صَوْتِيَّةً، أَوْ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ أُخْرَى، دُونَ إِذْنِ خَطِّيٍّ مُسَبِّقٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ أَوْ النَّاشِرِ. يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ الْأَقْتِبَاسُ الْقَصِيرُ لِعَرَضِ الْبَحْثِ أَوْ النِّقْدِ، وَذَلِكَ فِي حُدُودِ مَا تَسْمَحُ بِهِ قَوَائِنُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ الْمَعْمُولُ بِهَا.

تَرْخِيصُ أَكَادِيمِيٌّ مُحَدَّدٌ

تَمَّ تَخْصِيصُ نُسْخٍ مَحْدُودَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ لِلتَّوْزِيعِ الْأَكَادِيمِيِّ وَالْبَحْثِيِّ، وَذَلِكَ لِفَائِدَةِ الطُّلَّابِ وَالْمَرَاكِزِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْبَحْثِيَّةِ. وَيَخْضَعُ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ النُّسخِ لِلشُّرُوطِ التَّالِيَةِ:

- لَا يُسْتَعْمَلُ الْمُصَنَّفُ فِي أَيِّ اسْتِغْلَالٍ تِجَارِيٍّ.
- أَنْ يُذَكَّرَ الْمُصَدِّرُ وَالْمُؤَلِّفُ ذِكْرًا وَافِيًّا فِي أَيِّ اسْتِشْهَادٍ أَوْ نَقْلِ.
- لَا تُجْرَى عَلَيْهِ تَغْيِيرَاتٌ تَمَسُّ مَضَامِينَهُ الْعِلْمِيَّةَ أَوْ تَحْرِيفَاتٌ تَضُرُّ بِالسِّيَاقِ الْمَقْصُودِ.

للتواصل مع المؤلف: IbnAbbasAlamili@gmail.com

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ^ج

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ^ج

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

(هود: 88)

نُسخةٌ مَحْدُودَةٌ قَبْلَ النِّشْرِ

«جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَّعَقُّلِ: رِوَايَةٌ فِي الْبَحْثِ عَنِ مَنْطِقِ الْبَيَانِ»

هِيَ عَمَلٌ أَدَبِيٌّ-فِكْرِيٌّ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ بِوَصْفِهِ جَوَارًا تَخْيِيلِيًّا بَيْنَ
الْإِمَامِ وَطُلَابِهِ، تَتَقَاطَعُ فِيهِ الْأَسْئَلَةُ الْقَدِيمَةُ مَعَ هُمُومِ الْإِنْسَانِ الْحَدِيثِ،
وَلَيْسَتْ الرِّوَايَةُ قِصَّةَ سَرْدِيَّةٍ تَقْلِيدِيَّةٍ تَقُومُ عَلَى الْحَدِيثِ وَالشَّخْصِيَّاتِ
وَحَدَهَا، بَلْ هِيَ رِحْلَةٌ فِكْرِيَّةٌ رِوَائِيَّةٌ، تَتَجَسَّدُ فِيهَا الشَّخْصِيَّاتُ أَصْوَاتًا
لِلْبَحْثِ عَنِ مَعْنَى الْعَقْلِ، وَحَقِيقَةِ الْتَّعَقُّلِ، وَحُدُودِ الْمَنْطِقِ، وَمَكَانَةِ الْبَيَانِ
الْقُرْآنِيِّ بِوَصْفِهِ بَدِيلًا أَصِيلًا عَنِ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَمَنْطِقِهَا الْأَرِسْطِيّ.

غَايَةُ الرِّوَايَةِ

- الْكَشْفُ عَنِ أَنَّ الْعَقْلَ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ جَوْهَرًا ثَابِتًا، وَلَا آلَةً
مُجَرَّدَةً، بَلْ هُوَ فِعْلُ الْتَّعَقُّلِ، أَيُّ مَسَارٍ إِدْرَاكِيٍّ مُتَكَامِلٍ يَجْمَعُ بَيْنَ
الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَالْحَوَاسِّ وَالْمَشَاعِرِ.
- تَقْدِيمُ عِلْمِ الْكَلَامِ الْبَيَانِيِّ كَطَوْرٍ جَدِيدٍ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ، لَا يَقُومُ عَلَى
الْجَدَلِ الْمَذْهَبِيِّ وَلَا عَلَى أَدَوَاتِ الْفَلَسَفَةِ الْوَافِدَةِ، بَلْ عَلَى الْمِيزَانِ
الْقُرْآنِيِّ وَمَنْطِقِ الْبَيَانِ.
- بَيَانُ أَنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ جَمْعُ الْمَعْلُومَاتِ، بَلْ هِيَ نَمَرَةُ الْتَّعَقُّلِ
حِينَ يَتَجَسَّدُ مِيزَانُ الْأَشْيَاءِ وَالْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَالطَّرِيقَةِ وَالْمَنْهَجِ.

الْبِنْيَةُ الْفَنِّيَّةُ

تُكْتَبُ الرِّوَايَةُ بِلُغَةٍ أَدَبِيَّةٍ مُشْبَعَةٍ بِالتَّصْوِيرِ، وَتُبْنَى عَلَى جَوَارَاتٍ
حَيَّةٍ بَيْنَ الْإِمَامِ وَطَلَابِهِ، وَتَخْلُلُهَا مَقَاطِعُ تَأْمِلِيَّةٍ بِصُوبِ الْإِمَامِ، حَيْثُ
يَتَحَوَّلُ الْمَجْلِسُ إِلَى مَشْهَدٍ دِرَامِيٍّ يُوَازِنُ بَيْنَ السَّرْدِ الْقَصَصِيِّ وَالْبَيَانِ
الْفَرَائِي-الْفِكْرِيِّ.

تَنْوِيهِ: حُدُودُ الْفَهْمِ وَإِمْكَانَاتُ التَّأْوِيلِ

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ، وَمَا يُقَدِّمُهُ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَأْمُلٍ فِي الْإِسْلَامِ وَالْحَدَاثَةِ، لَيْسَ سِوَى مُحَاوَلَةٍ بَشَرِيَّةٍ لِاسْتِكْشَافِ الْوَاقِعِ وَاسْتِجْلَاءِ مَعَانِي التَّصَوُّصِ فِي سِيَاقِ التَّجَرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ. إِنَّ أَيَّ فَهْمٍ يُطْرَحُ هُنَا، سَوَاءً تَعَلَّقَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ بِالْإِسْلَامِ عَامَّةً، إِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ إِدْرَاكِ الْقَارِئِ وَسَعْيِهِ الْمُخْلِصِ لِلِافْتِرَاقِ مِنَ الْحَقِيقَةِ، بِقَدْرِ مَا تَسْمَحُ بِهِ أَدَوَاتُهُ الْعَقْلِيَّةُ وَمَوْعِظَاتُهُ الْمَعْرِفِيَّةُ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَدَّعِي، بِأَيِّ حَالٍ، أَنَّهُ الْفَهْمُ النَّهَائِيُّ أَوْ الْمُطْلَقُ لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ (ص)، فَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِالْمَرَادِ الْحَقِّ مِنْ كَلَامِهِ وَسُنَّتِهِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ تَقْتَضِي الْبَحْثَ وَالسُّؤَالَ وَإِعَادَةَ النَّظَرِ، وَمَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِ تَطُلُّ مَحْدُودَةً بِحُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْمَقْدِرَةِ الْعَقْلِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ أَيَّ تَأْوِيلٍ أَوْ تَحْلِيلٍ يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ فِي إِطَارِهِ كَبَشَرٍ يَسْعَى لِلتَّقَرُّبِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، لَا كَمَوْقِفٍ قِطْعِيٍّ يُلْزَمُ الْآخَرِينَ أَوْ يَدَّعِي الْعِصْمَةَ مِنَ الْخَطَا.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:
{وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإِسْرَاءُ: ٨٥)،
وَنَزِدُّ فِي دُعَائِنَا:
{رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} (ظه: ١١٤).

قَائِمَةُ الْمُحْتَوَيَاتِ

9	قَائِمَةُ الْمُحْتَوَيَاتِ
12	الإِهْدَاءُ الْأَوَّلُ
13	الإِهْدَاءُ الثَّانِي
14	الإِهْدَاءُ الثَّالِثُ
15	كَلِمَةُ الْمُؤَلِّفِ
17	التَّمْهِيدُ
19	أَفْتِتَاجِيَّةٌ وَجَدَائِيَّةٌ
20	الْمُقَدِّمَةُ الْإِفْتِتَاجِيَّةُ
22	الْمُقَدِّمَةُ الْوَجْدَائِيَّةُ
24	الْمُقَدِّمَةُ - كَلِمَةُ الْإِمَامِ
26	الْمُقَدِّمَةُ - مُنَاجَاةُ الْإِمَامِ
28	مَا هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ الْبَيَانِي؟
32	الْمَخَوَرُ الْأَوَّلُ: التَّأْسِيسُ وَالتَّفْكِيكُ
33	الْفَصْلُ 1: يَدٌ أَمْ نَصْلٌ؟
42	الْفَصْلُ 2: قَاضِي الْقِيَاسِ وَقَاضِي الْمِيزَانِ
50	الْفَصْلُ 3: غَيُومٌ أَمْ أَدَوَاتٌ؟

- 57 الْفَصْلُ 4: بَوَائِتَا الْمَعْرِفَةِ
65 الْفَصْلُ 5: مَطْبَخُ الْمَعْنَى
71 الْفَصْلُ 6: قَصْرُ الْمَلِكِ
78 الْفَصْلُ 7: بَيْنَ الضِّيقِ وَالسَّعَةِ

- 85** الْمَخَوَزُ الثَّانِي: الْبُنْيَانُ الْإِذْرَاكِي
86 الْفَصْلُ 8: مُتَرْجِمُ الْقَلْبِ
93 الْفَصْلُ 9: وَعَاءُ الزَّمَنِ
99 الْفَصْلُ الْعَاشِرُ: مَبْدَأُ التَّجْرِيدِ
106 الْفَصْلُ 11: مَلَحَمَةُ الْكَيَانِ
113 الْفَصْلُ 12: الْسَّلْمُ الصَّاعِدُ
119 الْفَصْلُ 13: لِأَجْلِ مَاذَا؟
125 الْفَصْلُ 14: الْمَسَالِكُ الْأَرْبَعَةُ
134 الْفَصْلُ 15: جُغْرَافِيَا الْوَعْيِ

- 140** الْمَخَوَزُ الثَّلَاثُ: الصَّرَاغُ وَالْمَخَاطِرُ
141 الْفَصْلُ 16: الْقِطَافُ الْمُبَارَكُ
148 الْفَصْلُ 17: قُطَاعُ الطَّرِيقِ
154 الْفَصْلُ 18: دَرَجَاتُ الْوَعْيِ
160 الْفَصْلُ 19: الْقَوَائِينُ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ
166 الْفَصْلُ 20: عُدَّةُ السَّالِكِ
172 الْفَصْلُ 21: صَفْلُ الْمَرْأَةِ
178 الْفَصْلُ 22: الْبُنْيَانُ الْمَرْصُوصُ
184 الْفَصْلُ 23: أَمَانَةُ الْإِخْتِيَارِ

190

الْمَحْزُورُ الرَّابِعُ: النَّضْجُ وَالْإِكْتِمَالُ

191

الْفَصْلُ 24: الرِّحْلَةُ إِلَى الطُّمَأْنِينَةِ

197

الْفَصْلُ 25: مَرَاتِبُ الْعِلْمِ

203

الْفَصْلُ 26: عَاصِمَةُ الْمَمْلَكَةِ

208

الْفَصْلُ 27: زَادُ الرِّحْلَةِ

214

الْفَصْلُ 28: شِرَاعُ السَّفِينَةِ

219

الْفَصْلُ 29: السَّلَامُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْقِيَمَةِ

224

الْفَصْلُ 30 (الْخِتَامِيُّ): التَّعَقُّلُ الْعَمُودُ الْفَقَرِيُّ لِمَنْطِقِ الْبَيَانِ

230

الْخَاتِمَةُ: الْعِبْرَةُ

الإِهْدَاءُ الأوَّلُ

إِلَى رُوحِي وَإِلَى الطَّاهِرَتَيْنِ،

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الْعَمَلَ، وَيَجْعَلَهُ صَدَقَةً جَارِيَةً فِي مِيزَانِ
حَسَنَاتِكُمَا، وَأَنْ يَرْفَعَ دَرَجَتُكُمَا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إِبْرَاهِيمُ:
٤١)

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا
رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٢٤)

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ، وَارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا، وَاجْزِهِمَا
بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسَّيِّئَاتِ عَفْوًا وَعُفْرَانًا.

رَحِمَكُمَا اللَّهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ، وَأَسْكَنَكُمَا الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى.

المؤلَّف

الإهداء الثاني

إِلَى زَوْجَتِي الْحَبِيبَةِ، وَرَفِيقَةِ دَرْبِي مُنْذُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ عَامًا، أُمَّ
أَوْلَادِي السَّبْعَةِ، وَعَشِيقِي الْخَالِدِ، وَصَدِيقَتِي وَمُلْهِمَتِي.

إِلَيْكَ أُهْدِي هَذَا الْعَمَلَ، أَنْتِ الَّتِي كُنْتَ قَبْلَ أَنْ تَصِيرِي أَسْتَاذَةً
جَامِعِيَّةً، الْمُرَبِّيَّةَ الْأُولَى فِي بَيْتِنَا؛ فَرَبَّيْتَ أَوْلَادَنَا السَّبْعَةَ وَعَلَّمْتَهُمْ فِي
الْمَدْرَسَةِ الْبَيْتِيَّةِ، فَتَفَوَّقُوا بِفَضْلِ اللَّهِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّربِيَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْدِّينِ.

ثُمَّ انْطَلَقْتَ بَعْدَ ذَلِكَ تُعَلِّمِينَ فِي الْجَامِعَةِ بِرِسَالَةٍ نَبِيلَةٍ، تَفْتَحِينَ
لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ أَبْوَابَ الْحَيَاةِ، وَتُرْشِدِينَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ.

فَكُنْتَ فَكُنْتَ نِعَمَ الزَّوْجَةِ، وَنِعَمَ الْأُمِّ، وَنِعَمَ الْمُعَلِّمَةِ، وَنِعَمَ
الْحَبِيبَةِ، جَعَلَكَ اللَّهُ لِي وَلِأَوْلَادِنَا ذُخْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الإِهْدَاءُ الثَّالِثُ

إِلَى ابْنَتِي الْعَزِيزَةِ سُكَيْنَةَ، رَاوِيَةَ مُلْهَمَةً، وَأَدِيبَةً بَلِغَةً، كُنْتُ نُورًا
فِي طَرِيقِ الْكَلِمَةِ، وَإِلْهَامًا فِي صَيَاغَةِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ. أَهْدِيكَ هَذَا الْعَمَلَ كَمَا
يُهْدِي الْوَالِدُ لِابْنَتِهِ قَلْبًا مَمْلُوءًا حُبًّا وَفَخْرًا. جَعَلَكَ اللَّهُ يَا سُكَيْنَةُ مِفْتَاحًا
لِلْخَيْرِ، وَمَصْدَرًا لِلْإِلْهَامِ، وَحَامِلَةً لِرَايَةِ الْقَلَمِ الصَّادِقِ، تُنِيرِينَ بِهِ الْعُقُولَ،
وَتُحَرِّكِينَ بِهِ الْقُلُوبَ، فَتَكُونِينَ جِسْرًا بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالْوَحْيِ، وَبَيْنَ الْإِبْدَاعِ
وَالْإِيمَانِ.

كَلِمَةُ الْمُؤَلِّفِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيَانَ نُورًا، وَالْعَقْلَ أَمَانَةً، وَالْتَّعَقُّلَ سُلْمًا إِلَى الْحِكْمَةِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ وَأَصْحَابِهِ الْمُخْلِصِينَ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَةً مَتْنٍ أَدَبِيٍّ لِلتَّسْلِيَةِ، وَلَا سَرْدًا تَحْبِيلِيًّا لِلتَّرْوِيحِ، بَلْ هِيَ مَجْلِسُ بَيَانِيٍّ جَعَلْتُ فِيهِ الْقَارِئَ شَرِيكًا فِي الْجَوَارِ، وَشَاهِدًا عَلَى جَدَلِيَّةِ الْعَقْلِ وَالْتَّعَقُّلِ، كَيْفَ يَنْفَتِحُ فِيهِ الْوَحْيُ عَلَى الْعَقْلِ، وَيَنْسُجُ مَعَهُ نِظَامًا جَدِيدًا لِلْمَعْرِفَةِ وَالْحَضَارَةِ.

قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْرَبَ مَنْطِقَ الْبَيَانِ إِلَى الْأَذْهَانِ، لَا بِصِيغٍ مُجَرَّدَةٍ وَمُعَادَلَاتٍ مَنْطِقِيَّةٍ صَمَاءَ، بَلْ مِنْ خِلَالِ الْجَوَارِ الْمُشْتَرَكِ وَالتَّسْأُولِ الْمُتَدَاوِعِ، كَمَا كَانَ الْأَكْثَمُ وَالْحُكَمَاءُ يَفْعَلُونَ مَعَ تُلَايِهِمْ فِي الْمَجَالِسِ الْعِلْمِيَّةِ وَالرُّوْحِيَّةِ. فَالْكَلِمَةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَتْ بَيَانًا فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ مَغْبَرٌ إِلَى التَّعَقُّلِ وَمِفْتَاحٌ لِتَفْعِيلِ الْوَعْيِ.

أَقَدِّمُ هَذَا الْعَمَلَ مُتَوَاضِعًا بَيْنَ يَدَيِ الْقُرَّاءِ، وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْبَشَرِيَّةَ مَهْمَا بَلَغَتْ مَسَاحَتُهَا تَظَلُّ قَاصِرَةٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِكَلَامِ اللَّهِ الْمُعْجَزِ، غَيْرَ أَنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَصِيصٌ نُورٍ يَدُلُّ عَلَى الطَّرِيقِ، وَمَفَاتِيحُ تَأْمُلٍ تَفْتَحُ أَبْوَابَ الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ.

جَدِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَوَفِّيِّ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ، وَإِلَيْهِ الْمَآبُ.

الْمُؤَلِّفُ

التَّمْهِيدُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيَانَ سُلَمًا لِلْعِلْمِ، وَالْعَقْلَ رُغْمَةً لِلتَّفَكُّرِ،
وَالْتَّعَقُّلَ مِفْتَاحًا لِدُخُولِ بَحْرِ الْحِكْمَةِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَالْمَبْعُوثِ بِنُورِ الْقُرْآنِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْمُتَتَجِبِينَ.

إِنَّ الْمَنْهَجِيَّةَ الَّتِي يَتَّبِعُهَا هَذَا الْعَمَلُ لَيْسَتْ فَلَسَفِيَّةً تُدَاوِرُ
الْمُجَرَّدَاتِ فِي فَلَكٍ مُغْلَقٍ، بَلْ هِيَ مَنْهَجِيَّةٌ كَلَامِيَّةٌ بَيَانِيَّةٌ، تَسْعَى لِأَنْ
تَكُونَ نَمُودَجًا حَيًّا لِمَنْهَجِيَّةِ عِلْمِ الْكَلَامِ الْبَيَانِيِّ، تَوَائِمُ بَيْنَ بَصِيرَةِ الْوَحْيِ
وَتَبْصُرِ الْعَقْلِ وَمُعْطَيَاتِ التَّجَرُّبَةِ.

وَلَقَدْ جَاءَتْ الرِّوَايَةُ لِتُفَكِّكَ الصُّورَةَ النَّمَاطِيَّةَ الْمُتَرَكَمَةَ عَنِ الْعَقْلِ
كَأَدَاةٍ بَارِدَةٍ لِلْقِيَاسِ وَالْبُرْهَانِ، وَلِتُقَدِّمَ الصُّورَةَ الْقُرْآنِيَّةَ عَنِ التَّعَقُّلِ كَفِعْلِ
يَشْتَبِكُ فِيهِ الْقَلْبُ وَالصَّدْرُ وَالرُّوحُ وَالْحَوَاسُّ، حَتَّى يَصِيرَ الْإِنْسَانُ كُلُّهُ
شَرِيكًا فِي الْمَعْرِفَةِ، لَا ذِهْنُهُ فَقَطْ.

كَمَا تَتَغَايَا الرِّوَايَةُ إِلَى شَرْحِ التَّعَقُّلِ كَنْظَامٍ إِدْرَاكِيٍّ شَامِلٍ مُتَّصِلٍ بِ
سُنَنِ الْخَلْقِ فِي الْكَوْنِ، وَمُرْتَبِطٍ بِقَوَائِنِ الْمِيزَانِ فِي الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ،
وَمُتَشَرِّبٍ بِقِيَمِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ. فَالتَّعَقُّلُ هُنَا لَيْسَ مَسِيرَةً ذَهْنِيَّةً
فَحَسْبُ، بَلْ رَحْلَةً وَجُودِيَّةً يُسَاهِمُ فِيهَا الْكِتَابُ الْإِنْسَانِيُّ كُلُّهُ.

وَإِنَّ مَا تُقَدِّمُهُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ يُعْتَبَرُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ مَنْطِقِ الْبَيَانِ، ذَلِكَ

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَّعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتُ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

الْمَنْطِقُ الْقُرْآنِيُّ الَّذِي يَسْتَجْمَعُ أَجْزَاءَ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ وَالْقِيَمِ فِي مِيزَانٍ
وَاحِدٍ، لِيُقِيمَ بِنِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، وَيُسَاهِمَ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ الْحَضَارَةِ عَلَى
قَاعِدَةِ الْبَيَانِ وَالْتَّعَقُّلِ.

أُفْتِتَاحِيَّةٌ وَجَدَانِيَّةٌ

كَانَتْ الْقُلُوبُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ تَخْفُقُ كَمَا يَخْفُقُ جَنَاحُ طَائِرٍ
قَبْلَ الْإِقْلَاعِ. صَوُّ الْمَصَابِيحِ الرَّيِّيَّةِ يَتَرَاقُصُ عَلَى الْجُدْرَانِ، وَعَبْقُ الْكُتُبِ
الْقَدِيمَةِ يَسْكُنُ الْمَكَانَ. وَهُنَاكَ، فِي صَدْرِ الْحَلَقَةِ، جَلَسَ الْإِمَامُ كَأَنَّهُ
مِيزَانٌ يُعِيدُ الْأَشْيَاءَ إِلَى نِسْبَتِهَا الصَّحِيحَةِ.

لَمْ يَكُنِ الْمَجْلِسُ مَخْصُ نِقَاشٍ، بَلْ كَانَ مِرَاةً تُعَكِّسُ صَوْتَ
الْوَحْيِ فِي جَوَارِ جَدَلِيٍّ مَعَ الْعَقْلِ، وَمَطْبَعَةً يَنْسِكِبُ فِيهَا جَبْرُ التَّبَيَّنِ
لِيَصُوغَ مَعْنَى جَدِيدًا لِلتَّفَكِيرِ وَالْتَعَقُّلِ.

وَهَكَذَا يَدْعُو الْقَارِئُ كُلُّ فَصْلٍ إِلَى الْمُشَارَكَةِ، لَا كَمَتَلَقٍّ سَاكِنٍ، بَلْ
كَجُزْءٍ مِنَ الْحَلَقَةِ، كَأَنَّهُ يَجْلِسُ بَيْنَ خَالِدِ الْمُتَسَائِلِ وَزَيْنَبِ الْفَقِيهَةِ
وَسَلْمَانَ الرُّوَائِيِّ، يَتَأَمَّلُ، يَسْأَلُ، وَيَبْحَثُ عَنْ نُورِ الْحَقِيقَةِ.

الْمُقَدِّمَةُ الْاِفْتِتَاحِيَّةُ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيَانَ مِيزَانًا، وَالْتَعَقُّلَ سُلَّمًا، وَالْعِلْمَ نُورًا،
وَالْحِكْمَةَ مَقَامًا. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ، وَصَحْبِهِ
الْمُنْتَجِبِينَ.

لَيْسَتْ هَذِهِ الرَّوَايَةُ مَجَرَّدَ قِصَّةٍ اَدَبِيَّةٍ تُرْوَى لِلتَّسْلِيَةِ، بَلْ هِيَ
مَجْلِسُ بَيَانٍ يُدْعَى فِيهِ الْفَارِيُّ إِلَى الْمُشَارَكَةِ فِي الْحَوَارِ، وَالْاِنْخِرَاطِ فِي
جَدَلِيَّةٍ جَدِيدَةٍ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ. وَغَايَتُهَا أَنْ تَكْشِفَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ
يَسْتَعْمِلِ "الْعَقْلَ" كَأَسْمٍ جَامِدٍ، بَلْ جَعَلَهُ فِعْلًا مُسْتَمِرًّا: اَلْتَّعَقُّلُ.

فَالْتَّعَقُّلُ هُنَا لَيْسَ مَجَرَّدَ قُدْرَةٍ ذَهَبِيَّةٍ، بَلْ هُوَ عَمَلٌ اِذْرَاكِي شَامِلٌ،
تَتَدَاخَلُ فِيهِ الْحَوَاسُّ وَالْصُّدُورُ وَالنَّفْسُ وَالْقَلْبُ مَعَ الذَّهْنِ، فَيُصْبِحُ
الْإِنْسَانُ بِكُلِّ كَيْفَانِهِ شَرِيكًا فِي الْمَعْرِفَةِ. وَهُوَ مَسِيرَةٌ مُتَدَرِّجَةٌ تَصْعَدُ
بِالْإِنْسَانِ عَلَى سُلَّمِ الْاِذْرَاكِ، مِنْ الشُّهُودِ وَالْتَفَكُّرِ إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْبَصِيرَةِ.

وَفِي الْإِطَارِ الْأَعْمَمِ، تُقَدِّمُ هَذِهِ الرَّوَايَةُ مَعَالِمَ عِلْمِ كَلَامِ بَيَانِيٍّ جَدِيدٍ.
فَإِنْ كَانَ عِلْمُ الْكَلَامِ التُّرَاثِيِّ قَدْ أَنْصَبَ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْعَقِيدَةِ وَالْمَذْهَبِ،
فَإِنَّ عِلْمَ الْكَلَامِ الْبَيَانِيَّ يَخْتَلِفُ أَوَّلًا فِي مَنْهَجِيَّتِهِ، إِذْ يَتَعَمَدُ بِصِرَاطِهِ عَلَى
مَنْطِقِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ. وَيَخْتَلِفُ ثَانِيًا فِي مَوْضُوعَاتِهِ، إِذْ يَنْحَصِرُ فِي
الْأَنْظِمَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ الثَّلَاثَةِ الْمُعْتَبَرَةِ لِلتَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ:

١. النَّصُّ الْمَعْصُومُ.

٢. عِلْمُ التَّجَرُّبَةِ.

٣. عِلْمُ الرِّيَاضِيَّاتِ.

وَقَدْ كَانَ الْمَنَالُ الْأَوَّلُ لِهَذَا الْمَشْرُوعِ هُوَ الْكَلَامُ الْبَيَانِيُّ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ، مَنْطِقُ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ، حِينَ عَلَّمَ الْإِمَامُ الْخَوَارِزْمِيُّ كَيْفَ يُنْشِئُ عُلُومَ الْحِسَابِ وَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ. وَفِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ، نَعُودُ إِلَى الْمَوْضُوعِ الصِّمِيمِ لِكُلِّ الْعُلُومِ: فِعْلُ التَّعَقُّلِ نَفْسِهِ.

إِنَّهُ نَصٌّ يَسْعَى لِأَنْ يُحَوَّلَ الْقِرَاءَةُ إِلَى حَوَارٍ، وَيَجْعَلَ الْقَارِئَ شَرِيكًا فِي الْبَحْثِ وَالتَّفَكِيرِ، وَيَكْشِفُ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ أَنْ يُعِيدَ تَشْكِيلَ مَعَارِفِنَا وَحَيَاتِنَا، فَيُصْبِحَ التَّعَقُّلُ عَمُودًا فَقْرِيًّا لِمَنْطِقِ الْبَيَانِ وَقَاعِدَةً لِبِنَاءِ الْحَضَارَةِ.

الْمُقَدِّمَةُ الْوَجْدَانِيَّةُ

لَيْلَةٌ يَتَدَقَّقُ فِيهَا النُّورُ كَأَنَّهُ سَيْلٌ سَمَاقِيٌّ، وَتَتَرَاوَعُ فِيهَا الظُّلَالُ خَجَلَةً عِنْدَ أَغْتَابِ التَّبَيَّنِ. فِي تِلْكَ الْمَجَالِسِ الْقَدِيمَةِ، حَيْثُ الْقُلُوبُ مُنْصَتَّةٌ، وَالْعُقُولُ مُتَأَهِّبَةٌ، كَانَ الْإِمَامُ يَجْلِسُ كَمِيزَانٍ يُسَوِّي الْأَشْيَاءَ، وَيُعِيدُ لِكُلِّ مَعْنَى وَزْنَهِ الصَّحِيحَ.

لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُحَدِّثَ الطَّلَبَةَ عَنِ "عَقْلِ" كَاسِمٍ جَامِدٍ، بَلْ أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ سِرًّا قُرْآنِيًّا: أَنَّ الْكِتَابَ لَا يَذْكُرُ "الْعَقْلَ" كَمَوْجُودٍ مُغْلَقٍ، بَلْ يَدْعُو دَائِمًا إِلَى التَّعَقُّلِ، إِلَى فِعْلِ يَتَجَدَّدُ، وَرِحْلَةٍ تَصْعَدُ بِالْإِنْسَانِ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ فِي سُلْمِ الْأَذْرَاكِ.

هُنَاكَ تَكْشِفُ الرِّوَايَةُ أَنَّ التَّعَقُّلَ لَيْسَ مَعْمَلًا ضَيِّقًا فِي الدِّمَاغِ، بَلْ مَسِيرَةً يَشْتَبِكُ فِيهَا الذَّهْنُ وَالْقَلْبُ وَالصَّدْرُ وَالنَّفْسُ وَالْحَوَاشِ. إِنَّهُ مِثْلُ جَوْقَةٍ كَبِيرَةٍ، كُلُّ غُضُوٍّ فِيهَا يَغْرِفُ لَحْنًا، فَيَتَكَوَّنُ مِنَ الْكُلِّ مَلْحَمَةٌ الْوَعْيِ.

وَفِي الْعُمُقِ، تَسْعَى هَذِهِ الرِّوَايَةُ إِلَى بِنَاءِ مَعَالِمِ عِلْمٍ كَلَامٍ تَبَائِيٍّ جَدِيدٍ، عِلْمٍ لَا يَدُورُ حَوْلَ جَدَلِ الْمَذَاهِبِ وَالْفِرَقِ، بَلْ يَجْعَلُ النُّظْمَ الْمَعْرِفِيَّةَ الثَّلَاثَةَ - النَّصَّ الْمَعْصُومَ، وَالتَّجَرِبَةَ، وَالرِّيَاضِيَّاتِ - أَعِمَّةً لِلتَّحْقِيقِ وَالْبِنَاءِ.

قَدَّمْنَا فِي الرَّوَايَةِ الْأُولَى، «الْخَوَارِزْمِيُّ وَلَيْدُ الْقُرْآنِ: الْبَيَانُ-النَّشْأَةُ الْقُرْآنِيَّةُ لِمَنْطِقِ عِلْمِ التَّجَرِبَةِ»، أَنْمُودَجًا لِهَذَا الْمَسْلَكِ، حِينَ جَلَسَ الْإِمَامُ إِلَى الْخَوَارِزْمِيِّ يُعَلِّمُهُ فَنَّ الْحِسَابِ وَأُصُولَ الْجَبْرِ، وَيُرِيهِ كَيْفَ يَنْبُتُ الْعِلْمُ مِنْ بَيْنِ أَضْلَعِ الْبَيَانِ، كَغُصْنٍ أَخْضَرَ يَنْبُثُ مِنْ جَذَرٍ عَتِيقٍ.

أَمَّا الْيَوْمَ، فَنَحْنُ نُقِيلُ عَلَى الْمَوْضُوعِ الصِّمِيمِ، عَلَى الْمِفْتَاحِ الَّذِي تُفْتَحُ بِهِ كُلُّ الْأَبْوَابِ وَتُنْكَشِفُ عَنْهُ سَائِرُ الْعُلُومِ: فِعْلُ التَّعَقُّلِ نَفْسِهِ. فَهُوَ الْمَنْهَجُ وَهُوَ الْمِيزَانُ، وَبِهِ يَتَمَيَّزُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَتَتَبَيَّنُ الطَّرِيقُ فِي الْعِلْمِ كَمَا يَتَبَيَّنُ الْفَجْرُ بَعْدَ الظُّلْمَةِ.

هَذِهِ الرَّوَايَةُ دَعْوَةٌ لِلْقَارِئِ أَنْ يَجْلِسَ فِي الْحَلَقَةِ بَيْنَ الطُّلَبَةِ، يُصْغِي، يَسْأَلُ، وَيَسَافِرُ فِي طَرِيقِ جَدِيدٍ، حَيْثُ يَلْتَقِي الْبَيَانُ بِالْعَقْلِ، وَيَتَحَوَّلُ الْعَقْلُ إِلَى تَعَقُّلٍ، وَتَنْبُثُ مِنَ الْكَلِمَةِ مَعَانٍ تُشْرِقُ عَلَى الْحَيَاةِ كُلِّهَا.

الْمُقَدِّمَةُ - كَلِمَةُ الْإِمَامِ

«يَا أَبْنَائِي وَبَنَاتِي، يَا طَلَبَةَ الْعِلْمِ وَالْبَيَانِ...

لَا تَطْنُوا أَنَّنَا اجْتَمَعْنَا الْيَوْمَ لِنُرَدِّدَ مَا قَالَه السَّابِقُونَ، أَوْ لِنُسْطِرَ بَيِّنَاتٍ جَامِدَةً فِي دِفَاقِرِ الْمَنْطِقِ. إِنَّمَا جِئْنَا لِنَفْتَحَ بَابًا جَدِيدًا، بَابًا لَا يَدْخُلُ إِلَّا بِمِفْتَاحٍ يُسَمِّيهِ الْقُرْآنُ: **الْتَّعَقُّلُ**.

أَلَمْ تَسْمَعُوا أَنَّ الْكِتَابَ لَا يَذْكُرُ "الْعَقْلَ" كَأَسْمٍ وَلَا يَجْعَلُهُ شَيْئًا تَمْلِكُونَهُ كَالْأَدَاةِ؟ إِنَّهُ دَائِمًا يُنَادِيكُمْ بِفِعْلٍ: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟»، «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ؟»، «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». كَأَنَّهُ يَقُولُ لَكُمْ: **الْتَّعَقُّلُ** لَيْسَ شَيْئًا تُوَضِّعُهُ فِي صُدُورِكُمْ مَرَّةً وَيَنْتَهِي، بَلْ هُوَ رَحْلَةٌ تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَسَلِّمْ تَصْعَدُونَ مَرَاتِبَهُ حَتَّى تَبْلُغُوا الْبَصِيرَةَ وَالْحِكْمَةَ.

الْتَّعَقُّلُ عِنْدَ الْبَيَانِ لَيْسَ ذِهْنًا بَارِدًا يُقَلِّبُ الْمُعَادَلَاتِ، بَلْ هُوَ مَجْمُوعَةُ الْكَيَانَ كُلِّهِ: الْحَوَاسُّ الَّتِي تُبْصِرُ وَتَشْهَدُ، وَالصَّدْرُ الَّذِي يَضِيقُ وَيَتَّسِعُ، وَالنَّفْسُ الَّتِي تَشْتَهِي وَتَخَافُ، وَالْقَلْبُ الَّذِي يُقَلِّبُ الْمَعَانِي كَمِفْتَاحٍ فِي بَابٍ. هَكَذَا يُصِيحُ الْإِنْسَانُ كُلُّهُ شَرِيكًا فِي الْمَعْرِفَةِ، لَا ذِهْنُهُ فَقَطْ.

وَإِنَّا فِي هَذَا الْمَجْلِسِ نَضَعُ أُسُسَ مَا أُسَمِّيهِ عِلْمَ الْكَلَامِ الْبَيَانِيِّ؛

عِلْمًا يَخْتَلِفُ عَنِ كَلَامِ التُّرَاثِ، لِأَنَّهُ يَبْنِي مَنَهَجَهُ عَلَى مَنْطِقِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ
وَحَدَهُ، وَيَجْعَلُ مَوَاضِيْعَهُ الثَّلَاثَةَ الَّتِي لَا غِنَى لِلْعِلْمِ عَنْهَا: النَّصَّ الْمَعْصُومَ،
وَعِلْمَ التَّجَرُّبَةِ، وَعِلْمَ الرِّيَاضِيَّاتِ.

قَدْ بَدَأْنَا فِي رَوَايَتِنَا الْأُولَى بِنَمُودَجٍ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ مَعَ الْخَوَارِزْمِيِّ،
أَمَّا الْيَوْمَ فَنَحْنُ أَمَامَ الْبَابِ الَّذِي يُفْتَحُ بِهِ كُلُّ بَابٍ: بَابِ التَّعَقُّلِ نَفْسِهِ.

فَادْخُلُوا مَعِيَ هَذِهِ الرِّحْلَةَ، وَلَا تَكُونُوا مُتَفَرِّجِينَ، بَلْ كُونُوا سُؤَالَ
وَجَوَابًا، وَصَوْتًا وَصَدَى، حَتَّى نَسِيرَ سَوْفًا فِي طَرِيقٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْوَحْيِ
وَالْعَقْلِ، وَيَجْعَلُ الْكَلِمَةَ جِسْرًا بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ.»

الْمُقَدِّمَةُ - مُنَاجَاةُ الْإِمَامِ

«أَجْتَمَعْنَا الْيَوْمَ يَا أَبْنَائِي وَبَنَاتِي، لَا لِنُرَدِّدَ مَا قَالَهُ السَّابِقُونَ، وَلَا لِنُعِيدَ مَا حَفِظْنَاهُ مِنْ كُتُبِ الْمَنْطِقِ وَالْكَلامِ. جِئْنَا لِنَسْأَلَ أَنْفُسَنَا سُؤَالَ جَدِيدًا: مَا الْعَقْلُ؟ وَمَا التَّعَقُّلُ؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟

لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ أَنَّ كُتُبَ الْفَلَسَفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ قَدْ جَعَلَتِ "الْعَقْلَ" أَدَاةً بَارِدَةً، نَصْلًا حَادًّا، أَوْ مِيزَانًا صَارِمًا لِلْقِيَاسِ وَالِاسْتِنْبَاطِ. وَقَدْ بَنَوْا عَلَيْهِ مَدَارِسَ وَمَذَاهِبَ، وَخَاصُّوا فِيهِ جِدَالًا وَمُنَاطَرَاتٍ لَا تَنْقَطِعُ. لَكِنْ أَسْأَلُوا الْقُرْآنَ، هَلْ يَقُولُ لَكُمْ "اعْرِفُوا عَقْلَكُمْ"؟ هَلْ يَذْكُرُ "الْعَقْلَ" كَأَسْمٍ جَامِدٍ؟ لَا، بَلْ يَدْعُوكُمْ دَائِمًا إِلَى فِعْلٍ مُسْتَمِرٍّ: **التَّعَقُّلُ**. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَالْتَّعَقُّلُ - يَا أَجَبَّتِي - لَيْسَ حَجَرًا تُحْمَلُونَهُ، وَلَا أَدَاةً تُعَلَّقُ عَلَى الْجِدَارِ. إِنَّهُ مَسِيرَةٌ حَيَّةٌ، وَرِحْلَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ. وَسَلِّمْ تَصْعُدُونَ دَرَجَاتِهِ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ. بَيْدًا مِنَ الْإِحْسَاسِ وَالشُّهُودِ، ثُمَّ يَعْبُرُ إِلَى التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ، ثُمَّ يَسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ بِصَبْرَةٍ وَحِكْمَةٍ.

وَلَا تَظُنُّوا أَنَّهُ مَجَرَّدُ دِمَاجٍ يُعَالِجُ الْمَعْلُومَاتِ. بَلْ هُوَ مَوْكِبٌ يُشَارِكُ فِيهِ الْجَسَدُ وَالنَّفْسُ وَالرُّوحُ. فِيهِ الْخَوَاشِ تُبْصِرُ وَتَسْمَعُ لَا كَأَدَوَاتٍ صَمَاءَ، بَلْ كَنَوَافِذَ عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَفِيهِ الصَّدْرُ يَضِيقُ وَيَتَّسِعُ بِحَسَبِ مَا يَدْخُلُهُ

مِنْ مَعَانٍ. وَفِيهِ النَّفْسُ تُسَاهِمُ بِتَجَارِبِهَا وَأَشْوَاقِهَا وَمَخَاوِفِهَا. وَفِيهِ الْقَلْبُ يَبْقَى الْمَرْكَزَ، يَقْلِبُ الْمَعَانِي وَيَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ. هَكَذَا يُصِيحُ التَّعَقُّلُ مَلْحَمَةً يُشَارِكُ فِيهَا الْكُلُّ، لَا عَارِزَ وَاحِدٍ.

وَإِنِّي أَدْعُوكُمْ الْيَوْمَ لِتَكُونُوا شُرَكَاءَ فِي بِنَاءِ مَا أَسَمَّيْهِ: عِلْمُ الْكَلَامِ الْبَيَانِيِّ. لَا عِلْمَ كَلَامٍ يُجَادِلُ لِإثباتِ مَذْهَبٍ عَلَى مَذْهَبٍ، وَلَا لِدَفْعِ الشُّبُهَاتِ فَحَسْبُ، بَلْ عِلْمًا يَسْتَنِدُ إِلَى مَنْطِقِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ، وَيُرَكِّزُ عَلَى أَسَاسِ التَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ الْبَيَانِيِّ الثَّلَاثَةِ: النَّصِّ الْمَعْصُومِ، وَالتَّجَرُّبَةِ، وَالرِّيَاضِيَّاتِ.

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْمَجْلِسِ السَّابِقِ نَمُودَجًا لِهَذَا الْمَسْلَكِ عِنْدَمَا عَلَّمْنَا الْخَوَازِمِيَّ أَصُولَ الْحِسَابِ وَفُنُونَ الْجَنْبِرِ. وَهَآنَذَا الْيَوْمَ أَدْعُوكُمْ لِنَفَكِّرَ مَعًا فِي الْمَفْتاحِ الْأَصْلِيِّ لِكُلِّ بَابٍ: التَّعَقُّلِ. فَإِذَا عَرَفْنَا حَقِيقَتَهُ، وَفَهَمْنَا دَرَجاتِهِ، وَعَاشَ كُلُّ مِنَّا رِحْلَتَهُ فِيهِ، صَارَ التَّعَقُّلُ عُمُودًا فَقْرِيًّا لِكُلِّ عِلْمٍ، وَبِنَاءً لِكُلِّ حِكْمَةٍ، وَجِسْرًا بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ.

فَتَاهَّيُّوا يَا طَلَبَتِي، فَإِنَّا مُقْبِلُونَ عَلَى رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ، فِيهَا الْجَوَارُ وَالسُّؤَالُ وَالنَّائِلُ. لَا تَكُونُوا مُتْلَقِينَ سَاكِنِينَ، بَلْ كُونُوا سُؤَالًا وَجَوَابًا، وَشَهُودًا وَشُرَكَاءَ. هَكَذَا نَبْنِي مَعًا مَعَالِمَ الْبَيَانِ، وَنَسِيرُ فِي طَرِيقِ جَدِيدٍ، طَرِيقٍ يُعِيدُ لِلْكَلِمَةِ مَقَامَهَا، وَلِلْقَلْبِ نُورَهُ، وَلِلْعَقْلِ فِعْلَهُ: التَّعَقُّلُ.»

مَا هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ الْبَيَانِيِّ؟

«تَسْأَلُونَنِي: مَا هُوَ عِلْمُ الْكَلَامِ الْبَيَانِيِّ؟

أَعْلَمُوا يَا طَلَبَتِي أَنَّ عِلْمَ الْكَلَامِ فِي تَارِيخِنَا هُوَ أَصْلٌ جَلِيلٌ، قَامَ عَلَى عَقْلِيَّةِ النَّصِّ الْمَعْصُومِ، وَحِمَايَةِ الْعَقِيدَةِ، وَرَدَّ الشُّبُهَاتِ عَنِ الْمَذَاهِبِ وَالْأُصُولِ. فَإِذَا تَصَفَّحْتُمْ كُتُبَهُمْ، وَجَدْتُمُوهُ يَسْتَعْمِلُ مَقَايِيسَ الْفَلَسَفَةِ وَمَنْطِقِ أَرِسْطُوطَالِيَسِ، ثُمَّ يُمَزِّجُ ذَلِكَ بِالنُّصُوصِ وَالْإِيمَانِ. فَكَانَ الْعَقْلُ فِيهِ أَدَاةً مُسْتَعَارَةً، لَا جَذْرًا مُوَصَّلًا.

أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى نَقْلَةٍ أُخْرَى: إِلَى عِلْمِ كَلَامِ بَيَانِيٍّ. وَمَا مَعْنَاهُ؟ أَنْ يَكُونَ مِنْهَجُنَا هُوَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ لَا غَيْرُهُ، وَأَنْ يَكُونَ مِيزَانُنَا هُوَ مَنْطِقُ الْبَيَانِ، فَلَا نَسْتَعِيرُ مَقْيَاسًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا نَسْتَعْمِلُ أَدَاةَ دَخِيلَةٍ. فَلِالْبَيَانِ هُوَ الْأَصْلُ، وَمَا سِوَاهُ فَرْعٌ يَنْفَرَعُ عَنْهُ.

وَيَخْتَلِفُ هَذَا الْكَلَامُ الْبَيَانِيُّ فِي مَوَاضِيْعِهِ أَيْضًا، فَلَا يَدُورُ حَوْلَ الْمُنَاطَرَاتِ وَالنِّزَاعِ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ، وَلَا يَنْحَصِرُ فِي الدِّفَاعِ وَالرَّدِّ، بَلْ يَتَّخِذُ مَجَالَهُ فِي ثَلَاثَةِ أَنْظِمَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ مَرَاجِعَ لِلتَّحْقِيقِ، وَلَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْهَا:

١. الْكِتَابُ الْمَسْطُورُ: وَهُوَ الْوَحْيُ الْمَعْصُومُ، الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ

الصَّحِيحَةُ، فِيهِمَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ الْقَاعِدَةَ وَالْمِيزَانَ، وَهُمَا أَصْلُ كُلِّ بَيَانٍ.

٢. الْكِتَابُ الْمَنْظُورُ: وَهُوَ هَذَا الْكَوْنُ الْمَبْسُوطُ أَمَامَكُمْ، تَرَوْنَ فِيهِ الطَّوَاهِرَ وَتَخْتَبِرُونَ فِيهِ الْأَسْبَابَ وَالْمُسَبَّبَاتِ. وَإِنَّمَا سَمَّيَ "مَنْظُورًا" لِأَنَّكُمْ تَشَاهِدُونَهُ بِخَوَاسِكُمْ وَتُدْرِكُونَهُ بِتَجَارِيكُم.

٣. الْكِتَابُ الْمَقْدُورُ: وَهُوَ الْعَدَدُ وَالنِّسْبَةُ وَالْمَقْدَارُ، أَيِ الرِّيَاضِيَّاتِ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي يُسَوِّي الْأَشْيَاءَ وَيُظْهِرُ التَّنَاسُقَ وَالْإِنْضِبَاطَ فِي الْكَوْنِ وَفِي الْفِكْرِ.

فَهَذِهِ الْكُتُبُ الثَّلَاثَةُ - الْمَسْطُورُ وَالْمَنْظُورُ وَالْمَقْدُورُ - لَا يَسْتَعِينِي بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ. فَإِذَا أَرَدْتُمْ مَعْرِفَةَ صَحِيحَةٍ، فَلْيَشْهَدْ لَهَا نَصٌّ مُعْصُومٌ أَوْ تَجَرِبَةٌ مُحَقَّقَةٌ أَوْ رِيَاضَةٌ مَقْدُورَةٌ. وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا لَهَا شَاهِدًا فِي وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ، فَالْمَعْرِفَةُ نَاقِصَةٌ أَوْ مُزَيَّفَةٌ أَوْ مَوْهُومَةٌ.

هَذَا هُوَ الْكَلَامُ الْبَيَانِيُّ: أَنْ يَكُونَ الْبَيَانُ مِيزَانًا، وَأَنْ تَكُونَ الْمَعَارِفُ مَشْهُودَةً بِهِذِهِ الثَّلَاثَةُ كُتُبٌ، فَيَتَحَقَّقَ الْعِلْمُ، وَيَنْتَفِي الْعِظَمُ، وَيُبْنَى الْأَظْمِنَانُ.»

سَادَتِ الْقَاعَةُ هُنَيْهَةً مِنَ الصَّمْتِ بَعْدَ كَلَامِ الْإِمَامِ، كَأَنَّ الْكَلِمَاتِ تَعَانِقُ الْجُذُرَانَ وَتَتَرَدَّدُ فِي الصُّدُورِ. وَإِذْ بِأَبِي بَاسِرٍ التَّسَاوُلِيَّ يَمِيلُ إِلَى الْأَمَامِ وَيَرْفَعُ يَدَهُ، ثُمَّ يَقُومُ بِنَشَاطٍ وَفِي غَيْبِنِهِ لَمْعَةٌ بَاحِثٍ عَنِ الْجَوَابِ:

«يَا إِمَامُ، هَلْ تَكْفِي هَذِهِ الْكُتُبُ الثَّلَاثَةُ لِكُلِّ مَعْرِفَةٍ؟ أَلَا يَكُونُ الْإِلَهَامُ أَوْ الْحَدْسُ أَيْضًا مَصَادِرَ لِلْمَعْرِفَةِ؟ وَكَيْفَ نَصْعُ تَجَارِبَ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ فِي هَذَا الْمِيزَانِ؟»

تَحَرَّكَ الطَّلَّابُ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَتَمَالَكُوا أَنْفُسَهُمْ، وَإِذْ بِأَمِينَةِ
الْبَيَانِيَّةِ تُسْرِعُ فِي الْكَلَامِ قَبْلَ أَنْ يَرُدَّ الْإِمَامُ، كَانَهَا تَلَاحِقُ فِكْرَةً خَشِيَّتْ أَنْ
تَفُوتَهَا:

«وَأَنَا أَسْأَلُكَ يَا إِمَامُ: إِنْ كَانَ عِلْمُ الْكَلَامِ الْقَدِيمِ يَسْتَعْمَلُ مَنْطِقَ
أَرِسْطُوطَالِيْسٍ وَالْقِيَاسِ الْيُونَانِيَّ، فَمَا الْفَرْقُ فِي الثَّمَرَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ؟ أَلَيْسَ كِلَاهُمَا يُفَكِّرُ وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ؟»

أَشْتَعَلَتْ الْقَاعَةُ هَمَسًا، وَالْأَنْظَارُ الْآنَ تَتَّحِبُ إِلَى شَابٍّ جَلِيلٍ
السَّيَمَا، هُوَ زَيْدُ الْمَسْطُورِيِّ، كَانَ يُمَسِّكُ بِنُسخَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْمُصْحَفِ
وَيُدِيرُهَا بِيَدِهِ وَكَأَنَّهُ يَسْتَمِدُّ مِنْهَا الْقُوَّةَ. فَنَطَقَ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ لَكِنَّهُ نَافِذٌ:

«وَإِنْ قُلْنَا يَا إِمَامُ: إِنَّ النَّصَّ الْمَسْطُورَ قَدْ يَكْفِي بِنَفْسِهِ، فَلِمَ
نَحْتَاجُ إِلَى الْمَنْظُورِ وَالْمَقْدُورِ؟ أَلَيْسَ الْوَحْيُ كَافِيًا لِكُلِّ شَيْءٍ؟»

فِي الْقَاعَةِ الْمُتَمَصِّصَةِ بِهَيْبَةِ الْعِلْمِ، كَانَ الْإِمَامُ يُنْصِتُ لِأَصْوَابِ
الطَّلَّابِ وَهُمْ يَتَدَفَّعُونَ فِي الْكَلَامِ كَأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ فُوتَ الْفُرْصَةِ. بَعْدَ أَنْ
فَرَعَ كُلُّ مِنْهُمْ، أَشَارَ الْإِمَامُ بِيَدِهِ إِشَارَةً رَفِيقَةً فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ:

«يَا أَبَا يَاسِرَ، أَحْسَنْتَ سُؤَالَ، فَإِنَّ الْإِلَهَامَ وَالْحَدِيثَ وَمَا يَجُولُ فِي
الرُّوحِ وَالْقَلْبِ لَيْسَتْ خَارِجَةً عَنِ الْمِيزَانِ، بَلْ هِيَ أَثْمَارٌ تُقْبَلُ إِذَا شَهِدَ لَهَا
الْمَسْطُورُ أَوْ الْمَنْظُورُ أَوْ الْمَقْدُورُ. فَإِذَا أَتَاكَ الْإِلَهَامُ وَلَمْ تَجِدْ لَهُ دَلِيلًا فِي
كِتَابِ اللَّهِ أَوْ فِي الْكَوْنِ أَوْ فِي الْمِقْدَارِ، فَاحْذَرُ أَنْ يَكُونَ وَهْمًا مُتَزَيِّنًا. وَإِذَا
وَجَدْتَ الشَّهَادَةَ، فَذَاكَ نُورٌ عَلَى نُورٍ.»

«وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَمِينَةَ، فَسْأَلُكَ يَدُلُّ عَلَى فِطْنَةٍ. إِنَّ مَنْطِقَ
أَرِسْطُوطَالِيْسٍ وَالْمَدَارِسِ الْقَدِيمَةِ كَانَتْ تَكْتَفِي بِصِحَّةِ الصُّورَةِ الْقِيَاسِيَّةِ،

فَإِذَا اُنْتَزَعَتْ الشَّكْلُ قَالُوا: اَلْحُكْمُ صَحِيحٌ، وَلَوْ كَانَ مَبْنَاهُ بَاطِلًا. اَمَّا مَنْطِقُ اَلْبَيَّانِ فَيَشْتَرِطُ اَنْ يَجْتَمَعَ اَلْمَسْطُورُ وَاَلْمَنْظُورُ وَاَلْمَقْدُورُ عَلَى شَهَادَةِ وَاحِدَةٍ. فَهُوَ يَطْلُبُ اَلصَّدَقَ فِي اَلْمَضْمُونِ، كَمَا يَطْلُبُ اَلصَّحَّةَ فِي الصُّورَةِ. وَبَيَّنَ هَذَا وَذَاكَ بَوْنٌ شَاسِعٌ.»

«وَأَنْتَ يَا زَيْدُ، حُبُّكَ لِلنَّصِّ مَحْمُودٌ، وَلَكِنْ فَهَمْ اَنْ اَلنَّصِّ اَلْمَسْطُورَ جَاءَ لِيَكُونَ هُوَ اَلْقَاعِدَةُ وَاَلْمِيزَانُ، ثُمَّ جَعَلَ اَللَّهُ اَلْكِتَابَ اَلْمَنْظُورَ شَاهِدًا عَلَيْهِ، وَاَلْمَقْدُورَ دَلِيلًا عَلَى اِحْكَامِ خَلْقِهِ. اَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُ اَلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. فَالْمَسْطُورُ وَاَلْمَنْظُورُ وَاَلْمَقْدُورُ شُهُودٌ ثَلَاثَةٌ عَلَى حَقِيقَةِ وَاحِدَةٍ.»

وَلَمَّا فَرَغَ اَلْإِمَامُ مِنْ جَوَابَاتِهِ، سَادَ صَمْتُ عَمِيقٍ فِي اَلْمَجْلِسِ، كَأَنَّ اَلْكَلِمَاتِ تَسْكُنُ فِي الصُّدُورِ وَتَتَرَدَّدُ فِي الْأَذْهَانِ. نَظَرَ اَلطُّلَّابُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَتَلَحَّظَتْ أَنْفَاسُهُمْ بَيْنَ دَهْشَةٍ وَتَفَكُّرٍ. ثُمَّ قَالَ اَلْإِمَامُ وَبَصْرُهُ يَسْرُخُ فِي الْأُفُقِ:

«حَسْبُنَا اَلْيَوْمَ مَا ذَكَرْنَا، فَقَدْ فُتِحَ اَلْبَابُ، وَاَلطَّرِيقُ أَمَامَنَا طَوِيلٌ. غَدًا نَسِيرُ خُطُوبَاتٍ أُخْرَى، وَمَعَ كُلِّ سَوْأٍ تَتَضَحَّى اَلْمَعَالِمُ، وَيَتَبَيَّنُ اَلْمِيزَانُ.»

ثُمَّ قَامَ، فَقَامُوا مَعَهُ، وَأَنْفَضَ اَلْمَجْلِسُ وَفِي اَلْقُلُوبِ نُورٌ يَتَّقِدُ، وَوَعْدٌ بِجَوَارٍ أَعَمَقَ فِي اَللِّقَاءِ اَلْقَادِمِ.

الْمَحْوَرُ الْأَوَّلُ: التَّاسِيْسُ وَالتَّفْكِيْكُ

المُقَدِّمَةُ

إِذَا كَانَ الْعَقْلُ فِي التُّرَاثِ يُقَدَّمُ عَلَى أَنَّهُ أَدَاةٌ لِلْقِيَاسِ وَالْاِسْتِنْبَاطِ، فَإِنَّ هَذَا الْمَحْوَرَ يَبْدَأُ بِتَفْكِيكِ هَذِهِ الصُّورَةِ النَّمَاطِيَّةِ، وَيُقِيمُ الْبِنَاءَ الْجَدِيدَ لِلْفَهْمِ الْقُرْآنِيِّ لِلْعَقْلِ وَالتَّعَقُّلِ. فَهَنَّا تَظْهَرُ الْأَسْئَلَةُ الْكُبْرَى: هَلِ الْعَقْلُ يَدَّ تَمْتَدُّ لِيَتَلَمَّسَ الْحَقَائِقَ، أَمْ نَصْلُ يَفْطَعُ الْأَشْيَاءَ عَنْ بَعْضِهَا؟ وَهَلْ هُوَ قَاضٍ يَحْكُمُ بِالْمِيزَانِ الْقُرْآنِيِّ أَمْ بِقَوَاعِدِ الْقِيَاسِ الْمَحْدُودِ؟

يَسْعَى هَذَا الْمَحْوَرُ إِلَى تَحْدِيدِ بَوَابَاتِ الْمَعْرِفَةِ، وَكَيْفَ يُصَاغُ مَطْبَخُ الْمَعْنَى فِي الدَّخْلِ، وَيَكْشَفُ عَنْ قَصْرِ الْمَلِكِ كَرَمَزٍ لِلنِّسْطَامِ الْمَعْرِفِيِّ الْمُتَفَاعِلِ، ثُمَّ يُوَضِّحُ كَيْفَ يَنْتَقِلُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ الضِّيقِ وَالسَّعَةِ فِي فِعْلِ التَّعَقُّلِ.

وَبِذَلِكَ يَكُونُ هَذَا الْمَحْوَرُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ بَقِيَّةُ الرِّوَايَةِ، حَيْثُ يَتِمُّ الْإِنْتِقَالُ مِنْ نَقْضِ الْعَقْلِ الْأَدَاتِيِّ إِلَى تَأْسِيْسِ التَّعَقُّلِ كَفِعْلِ بَيَانِيٍّ شَامِلٍ.

الفصل 1: يَدٌ أَمْ نَضَلُّ؟

كَانَ فِي هُبُوطِ شَمْسٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ شَيْءٌ مِنَ الْجَلَالِ. دَخَلَ صَوُّهَا الْأَصْفَرُ الْمَائِلُ إِلَى الْحُمْرَةِ مِنْ نَافِذَةِ الْمَجْلِسِ الْوَاسِعَةِ، فَأَمْتَدَّ عَلَى السَّجَادِ الْعَجَمِيِّ الْبَسِيطِ، وَتَسَلَّقَ بَظْءَ رُفُوفِ الْمَكْتَبَةِ الَّتِي تَبْنُ بِأَمَّهَاتِ الْكُتُبِ. اخْتَلَطَتْ فِي الْهَوَاءِ رَائِحَةُ أَثِيرَتِهِ، مَزِجٌ مِنْ عِنَقِ الْوَرَقِ الْقَدِيمِ وَجَبْرِ الطَّبَاعَةِ وَالْخَشَبِ الْمُعْتَقِ، تَزِيدُهَا نَكْهَةُ الشَّيْءِ الْمَعْدِنِيِّ الَّذِي تَصَاعَدَ بُخَارُهُ الْخَفِيفُ مِنْ أَكْوَابٍ صَغِيرَةٍ وَضَعَتْ أَمَامَ الْجَالِسِينَ فِي خَلْقَةٍ شَبِهُ مُكْتَمَلَةٍ.

فِي صَدْرِ الْخَلْقَةِ، جَلَسَ الْإِمَامُ. لَمْ يَكُنْ فِي جِلْسَتِهِ تَكَلُّفٌ، بَلْ سَكِينَةٌ عَمِيقَةٌ كَانَتْ تَنْتَشِرُ مِنْهُ كَدَوَائِرِ الْمَاءِ الْهَادِي فَتَمَلَأُ الْفَرَاغَ. كَانَ مُطَرِّقًا، مُقَلِّبًا صَفَحَاتِ كِتَابٍ صَغِيرٍ بِيَدَيْهِ، لَكِنَّ حُصُورَهُ الْكَامِلَ كَانَ يُشْعِرُ الْجَمِيعَ بِأَنَّهُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

عَلَى يَمِينِهِ، كَانَ "خَالِدُ الْمُتَسَائِلِ" يَفْرُكُ يَدَيْهِ بِتَوَثُّرٍ خَفِيفٍ، وَهُوَ شَعُورُهُ الدَّائِمُ قَبْلَ كُلِّ مَجْلِسٍ، مَزِجٌ مِنَ الْهَيْبَةِ وَالشَّوْقِ لِمَا سَيُكْشَفُ لَهُ مِنْ مَعَانٍ. بِجَانِبِهِ، جَلَسَ "سَلْمَانُ الرَّوَائِي" وَقَدْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْجِدَارِ، وَعَيْنَاهُ تَجُولَانِ فِي الْعُرْفَةِ لَا كَمْتَعَلِمٍ، بَلْ كَفَتَّانٍ يَرُصُدُ الظَّلَالَ وَالنُّوَرَ وَتَعَايِيرَ أُلُوجِهِ، يَبْحَثُ عَنِ الْقِصَّةِ الْخَفِيَّةِ وَرَاءَ الْمَشْهَدِ.

أَمَّا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَكَانَتْ الْجَبْهَةُ الْفِكْرِيَّةُ الْأَكْثَرُ جِدَّةً. "أَرِسْطُو الصَّغِيرُ"، الشَّابُّ النَّجِيفُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ هَوَاءُ الْجِدِّيَّةِ، وَقَدْ وَضَعَ أَمَامَهُ دَفْتَرًا صَغِيرًا وَقَلَمًا، مُسْتَعِدًّا لِتَقْيِيدِ الْحُجَجِ وَتَقْيِيدِهَا. وَبِقُرْبِهِ، "مُعَاذُ الْعَقْلَانِي" يَجْلِسُ فِي الْمُسْتَقِيمَةِ وَنَظَرَاتِهِ الْفَاحِصَةِ، كَانَ يُحَدِّقُ فِي الْإِمَامِ لَا بِنَظَرَةٍ تَلْمِيزٍ، بَلْ بِنَظَرَةٍ نِدِّ فِكْرِيٍّ، لِسَانُ خَالِهِ يَقُولُ: "أَفْنِغِبِي إِنْ أَسْتَطَعْتَ".

وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ، جَلَسَتْ "زَيْنَبُ الْفَقِيهَةِ" يَوْقَارُهَا الْمَعْهُودُ، كَانَتْ جُزْءًا مِنَ الْمَشْهَدِ وَمُرَاقِبَةً لَهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، يَدُورُ فِي عَقْلِهَا السُّؤَالُ الدَّائِمُ: كَيْفَ سَيَتَجَلَّى كُلُّ هَذَا فِي مِيزَانِ الْفَقْهِ وَالْأَصُولِ؟ وَفِي مُؤَخَّرَةِ الْخَلْقَةِ قَلِيلًا، كَانَتْ "لَيْلَى الْمُؤَمِّنَةُ الْمَعَاصِرَةُ"، الَّتِي لَمْ تَأْتِ لِتُجَادِلْ أَوْ تُنَازِرَ، بَلْ أَنَّتِ تَحْمِلُ أَثْقَالَ حَيَاتِهَا الْيَوْمِيَّةِ، تَأْمُلُ أَنْ تَجِدَ فِي كَلِمَاتِ الْإِمَامِ ضَوْءًا يُعِينُهَا عَلَى السَّيْرِ.

أَغْلَقَ الْإِمَامُ كِتَابَهُ بِهَدْوٍ، فَكَانَ صَوْتُ الْغِلَافِ الْجَلْدِيِّ وَهُوَ يَنْطَبِقُ إِيْدَانًا بِأَنْتِهَاءِ الصَّمْتِ. رَفَعَ بَصَرَهُ وَجَالَ بِهِ فِي الْوُجُوهِ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ لَيْسَ بِالْعَالِي وَلَا بِالْخَافِتِ، لَكِنَّهُ تَحَلَّلَ مَسَامِعَ الْجَمِيعِ:

«قَبْلَ أَنْ نَخُوضَ فِي بَحْرِ الْيَوْمِ، لَا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَ أَسْمَهُ. نَحْنُ هُنَا لِنَبْنَحَ فِي شَيْءٍ أَسْمَيْنَاهُ "مَنْطِقَ التَّبَيَانِ". وَهَذَا الْأَسْمُ لَيْسَ تَرَفًّا أَوْ أُصْطِلَاحًا فَارِعًا. إِنَّهُ الْإِطَارُ الَّذِي نَسْعَى لِبِنَائِهِ، الْمُنْهَجُ الَّذِي نَرْجُو أَنْ نَسْتَطِيقَ بِهِ لِسَانَ الْقُرْآنِ، لَا لِنَفْهَمِهِ فَحَسْبُ، بَلْ لِنَبْنِي عَلَيْهِ نَظْرًا فِي الْمَعْرِفَةِ، وَمِيزَانًا لِلْحُكْمِ، وَمَنْهَجًا لِلْفِكْرِ وَالتَّعَارُفِ وَالْعُمُرَانِ.»

صَمَتَ لَحْظَةً لِيَرَى وَقَعَ كَلِمَاتِهِ، ثُمَّ طَرَحَ سُؤَالَ الَّذِي بَدَأَ غَرِيبًا:

«أَخْبِرُونِي، مَا الْفَرْقُ بَيْنَ التَّصْلِ الْحَادِّ وَالْيَدِ الَّتِي تُمَسِكُهُ

وَتَوَجَّهْ؟»

كَانَتْ عَيْنَا "أَرِسْطُو" قَدْ لَمَعَتَا بِالْفُورِ. قَالَ بِثِقَةٍ:

«الْفَرْقُ وَاضِحٌ يَا شَيْخَنَا. النَّصْلُ هُوَ الْأَدَاةُ (The Tool)، وَالْيَدُ هِيَ الْفَاعِلُ (The Agent). الْأَدَاةُ مُحَايِدَةٌ، صَارِمَةٌ، تَفْعَلُ مَا صُنِعَتْ لِجَلِّهِ بِدِقَّةٍ. أَمَّا الْفَاعِلُ فَتَدْخُلُهُ الْإِرَادَةُ وَالْقَصْدُ وَالْخَطَأُ.»

أَوْمَأَ الْإِمَامُ بِرَأْسِهِ إِقْرَارًا.

«جَمِيلٌ. وَلَقَدْ عَلَّمَوْكُم، وَرَبَّمَا كَانَ "أَرِسْطُو" الْكَبِيرُ أَوْلَهُمْ، أَنَّ "الْعَقْلَ" هُوَ ذَلِكَ النَّصْلُ الْبَارِعُ. أَدَاةٌ مُجَرَّدَةٌ، مَجْمُوعَةٌ مِنْ قَوَائِنِ الْقِيَاسِ وَالْإِسْتِنَاجِ، إِذَا اتَّبَعْتَهَا وَصَلَتْ إِلَى نَتِيجَةٍ صَحِيحَةٍ يَغْضُ النَّظَرُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ. هَذَا هُوَ "الْعَقْلُ" كَكَيَانٍ مُغْلَقٍ عَلَى ذَاتِهِ، مَوْجُودٍ لِعَايَةِ وَاحِدَةٍ: صِنَاعَةُ الْبُرْهَانِ وَالْفُورُ فِي الْجَدَلِ.»

تَدَخَّلَ خَالِدٌ بِصَوْتِهِ الْمُمْتَرِدِّ قَلِيلًا:

«عَفْوًا شَيْخَنَا... أَلَيْسَ هَذَا شَيْئًا جَيِّدًا؟ أَنْ تَكُونَ لَدَيْنَا أَدَاةٌ تَضْمَنُ لَنَا الْوُصُولَ لِلصَّوَابِ؟»

«بَلَى يَا خَالِدُ،» قَالَ الْإِمَامُ بِلُطْفٍ، «لَكِنَّ السُّؤَالَ هُوَ: أَيُّ صَوَابٍ؟ وَمَاذَا لَوْ كَانَتْ الْحَيَاةُ وَالْحَقِيقَةُ أَوْسَعَ مِنْ أَنْ يَخْصُرَهَا نَصْلٌ وَاحِدٌ مَهْمَا كَانَ حَادًّا؟ هُنَا بَأْيِ الْقُرْآنِ فَيُحَدِّثُ ثَوْرَةً هَادِتَةً. إِنَّكَ تَكَادُ لَا تَجِدُ فِي الْقُرْآنِ كَلِمَةَ "الْعَقْلِ" كـ "اسْمٍ" جَامِدٍ، إِنَّهُ لَا يَتَحَدَّثُ عَنْ أَدَاةٍ تَمْتَلِكُهَا، بَلْ عَنْ "فِعْلٍ" تَقُومُ بِهِ أَنْتَ بِكُلِّ كَيَانِكَ. فِعْلُ "الْتَّعَقُّلِ". «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»، «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»... دَعْوَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لِتَفْعِيلِ مَسِيرَةٍ، لِلدُّخُولِ

فِي رِحْلَةٍ، لَا لِاسْتِخْدَامِ أَدَاةٍ.»

انْتَفَضَ مُعَاذٌ فِي جِلْسَتِهِ، وَقَالَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّحَدِّيِ الْمُهَذَّبِ:

«شَيْخَنَا الْجَلِيلَ، أَسْمَحْ لِنَفْسِي بِالْإِعْتِرَاضِ. هَذَا التَّفْرِيقُ يَبْدُو لِي تَفْرِيقًا لُغَوِيًّا أَكْثَرَ مِنْهُ جَوْهَرِيًّا. فِي النِّهَايَةِ، سَوَاءٌ أَسَمَيْنَاهُ "عَقْلًا" أَمْ "تَعَقُّلًا"، فَهُوَ يَعْنِي قُدْرَةَ الدِّمَاغِ الْبَشَرِيِّ عَلَى مُعَالَجَةِ الْبَيِّنَاتِ وَالْوُصُولِ إِلَى نَتَائِجٍ مَنْطِقِيَّةٍ. وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ، الَّتِي صَقَلَهَا الْمَنْهَجُ الْعِلْمِيُّ الْحَدِيثُ، هِيَ الْأَدَاةُ الْوَحِيدَةُ الْمَوْثُوقَةُ لَدَيْنَا لِفَهْمِ الْعَالَمِ. كُلُّ مَا عَدَاهَا هُوَ صَبَابٌ مِنَ الْمَشَاعِيرِ وَالذَّائِبَةِ.»

«أَخْتَرْتُ طَرَحَكَ يَا مُعَاذُ.» قَالَ الْإِمَامُ يَهُدُوٌّ لَمْ يَهْتَزَّ، «وَلَكِنْ دَعِنَا نَتَعَمَّقَ فِي هَذَا "الْصَّبَابِ" قَلِيلًا. عِنْدَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ الْحَقِّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلُ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. هَلْ تَرَى هُنَا حَدِيثًا عَنِ أَدَاةٍ دِمَاعِيَّةٍ فَحَسَبُ؟ أَمْ تَجِدُ أَنَّ "فِقْدَانَ الْفِهْمِ" مُرْتَبِطٌ بِعَطَبٍ فِي الْقَلْبِ، وَأَنَّ "فِقْدَانَ الْبَصَرِ" لَيْسَ عَمَى الْعَيْنِ، وَأَنَّ "فِقْدَانَ السَّمْعِ" لَيْسَ صَمَمَ الْأُذُنِ؟»

وَاصَلَ الْإِمَامُ وَكَأَنَّهُ يَكْشِفُ عَن خَرِيطَةٍ مَجْهُولَةٍ:

«الْتَّعَقُّلُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ التَّبَيَّنُ الْقُرْآنِيُّ لَيْسَ فِعْلًا ذَهَبِيًّا مَحْضًا. إِنَّهُ "بَيِّنَانٌ شَامِلٌ"، أَوْ قُلْ "الْفِرْقَةُ الْمُنْسَجِمَةُ" كَامِلَةٌ. الدِّهْنُ فِيهَا أَحَدُ الْعَارِفِينَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ. فِيهَا تُشَارِكُ الْحَوَاشِ، لَيْسَ فَقَطْ لَجَمْعِ الْبَيِّنَاتِ، بَلْ لِلشُّهُودِ وَالْإِعْتِبَارِ. وَيُشَارِكُ "الصَّدْرُ" كَوَعَاءٍ لِهَذَا الْوَعْيِ، يَتَسَبَّعُ وَيَضِيقُ. وَتُشَارِكُ "النَّفْسُ" بِتَجَارِبِهَا وَأَشْوَاقِهَا وَمَخَاوِفِهَا. وَيُشَارِكُ "الْقَلْبُ" كَمَرْكَزٍ لِلْبَصِيرَةِ وَالتَّقْلِيلِ بَيْنَ الْمَعَانِي. وَتُشَارِكُ "الرُّوحُ" كَنَفْحَةٍ

عُلُوبِيَّةٌ تَرِبُّطُ هَذَا الْكَيَانَ الْأَرْضِيَّ بِمُضَدِّهِ الْأَعْلَى. بَلْ إِنَّ "التَّبَيَّنَ" نَفْسَهُ،
أَيَّ قَدَرَتِكَ عَلَى التَّعْبِيرِ، هُوَ جُزْءٌ مِنْ عَمَلِيَّةِ التَّعَقُّلِ، لِأَنَّكَ لَا تَفْهَمُ الْفِكْرَةَ
حَقًّا حَتَّى تَسْتَطِيعَ صَيَاغَتَهَا. كُلُّ هَؤُلَاءِ يَعْمَلُونَ مَعًا فِي تَنَاعُمٍ وَاحِدٍ. فَهَلْ
تَظُنُّ يَا مُعَاذُ أَنْ هَذَا "الضَّبَابُ" لَيْسَ جَوْهَرِيًّا؟»

كَانَ مُعَاذٌ صَامِتًا، لَا عَن قَنَاعَةٍ، بَلْ لِأَنَّهُ يُجَهِّزُ هُجُومَهُ الْمَضَادَّ.
لَكِنَّ "أَرِسْطُو الصَّغِيرَ" سَبَقَهُ قَائِلًا بِحِدَّةٍ:

«شَيْخَنَا، هَذَا الْكَلَامُ شِعْرِيٌّ جَمِيلٌ، وَلَكِنَّهُ خَطِيرٌ. لِأَنَّهُ يَفْتَحُ الْبَابَ
لِكُلِّ شَيْءٍ وَتَقْبِيضِهِ. إِذَا أَدْخَلْنَا الْقَلْبَ وَالرُّوحَ فِي الْمُعَادَلَةِ، فَكَيْفَ نَصِلُ
إِلَى حَقِيقَةٍ مُشْتَرَكَةٍ؟ قَدْ يَقُولُ لِي قَلْبِي شَيْئًا، وَيَقُولُ لَكَ قَلْبُكَ شَيْئًا آخَرَ.
الْمَنْطِقِيُّ الْيُونَانِيُّ جَاءَ لِيُخَلِّصَنَا مِنْ هَذِهِ الْفَوَاضِلِ. وَصَعَ لَنَا مِغْيَارًا خَارِجِيًّا،
هُوَ "الْقِيَاسُ الصَّحِيحُ" (Valid Syllogism). مُقَدِّمَةٌ كُبْرَى، مُقَدِّمَةٌ
صُغْرَى، نَتِيجَةٌ. هَذَا هُوَ سُلْمُ الْأَظْمِثَانِ. أَمَّا مَا تَتَفَضَّلُ بِهِ فَقَدْ يُؤَدِّي إِلَى
الدَّوْقِيَّةِ وَالنَّسَبِيَّةِ.»

هُنَا تَدَخَّلَتْ "زَيْنَبُ الْفَقِيهَةُ" لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَكَانَهَا وَجَدَتْ مَدْخَلَ
يُنَاسِبُ مِنْهَجَهَا. قَالَتْ بِصَوْتٍ وَاضِحٍ وَمُرْتَبٍ:

«أَسْتَأْذِنُ شَيْخَنَا فِي التَّعْقِيبِ. إِنَّ مَا ذَكَرَهُ زَمِيلُنَا "أَرِسْطُو" مُهِمٌّ،
وَيَتَقَاطَعُ مَعَ مَا نَفَعَلَهُ فِي عِلْمِ الْأُصُولِ. نَحْنُ لَا نَتْرُكُ الْأُمُورَ لِلْأَذْوَاقِ. لَدَيْنَا
أَدَوَاتٌ مِغْيَارِيَّةٌ دَقِيقَةٌ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ أَيْضًا. نَحْنُ
نَسْتَخْدِمُ "الْعَقْلَ" لِلْاِسْتِنْبَاطِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ. فَهَلْ يُعِينُنَا هَذَا الْمَنْهَجُ
الْأُصُولِيُّ الْمُنْضَبِطُ عَنِ هَذَا التَّعَقُّلِ السُّمُولِيِّ الَّذِي تَصِفُهُ؟ أَمْ أَنَّهُ هُوَ
نَفْسُهُ؟»

كَانَ سُؤَالَ زَيْنَبَ عَمَلِيًّا وَدَقِيقًا. أَعْطَى الْإِمَامَ فُرْصَةً لِيُوضِّحَ فِكْرَتَهُ

عَلَى أَرْضِ صُلْبَةٍ.

«سُؤَالُكَ يَصْعُقُ النَّقَاطَ عَلَى الْحُرُوفِ يَا زَيْنَبُ، وَالْجَوَابُ هُوَ: إِنَّ عِلْمَ الْأُصُولِ بِكُلِّ عَيْقَرِيَّتِهِ هُوَ أَحَدُ أَرْقَى "مُنْتَجَبَاتِ" التَّعَقُّلِ الْإِسْلَامِيِّ، وَلَيْسَ هُوَ "كُلُّ" التَّعَقُّلِ. إِنَّهُ مِثْلُ خَرَائِطِ الْمَلَاخَةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا قُبْطَانُ السَّفِينَةِ. هَلْ تَغْيِيهِ الْخَرَائِطُ عَنْ رُؤْيَا الْبَحْرِ بِعَيْنَيْهِ؟ وَعَنْ الْإِحْسَاسِ بِالرِّيَّاحِ؟ وَعَنْ مَعْرِفَتِهِ بِقُدْرَاتِ سَفِينَتِهِ وَحَالِ بَحَارَتِهِ؟ وَعَنْ حُكْمَتِهِ فِي تَحْدِيدِ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِلِإِبْحَارِ؟»

وَاصِلَ الْإِمَامِ ضَارِبًا الْمَثَلَ:

«إِنَّ الْأُصُولِيَّ الَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَ أَدَوَاتِهِ كَنُصُولٍ حَادَّةٍ مُنْفَصِلَةٍ عَنْ بَصِيرَةِ الْقَلْبِ وَفِيهِ الْوَاقِعُ، قَدْ يَصِلُ إِلَى "قِيَاسٍ صَحِيحٍ" مِنْ حَيْثُ الشَّكْلِ، لَكِنَّهُ "حُكْمٌ خَاطِئٌ" مِنْ حَيْثُ الْمَالِ وَالْمَقْصِدِ. التَّعَقُّلُ هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ كُلَّ هَذَا. هُوَ الَّذِي يُشْغَلُ أَدَاةُ الْقِيَاسِ، ثُمَّ يَنْظُرُ بِعَيْنِ الشَّفَقَةِ إِلَى النَّاسِ، ثُمَّ يَسْتَشْعِرُ بِقَلْبِهِ مَقَاصِدَ الشَّرِيعَةِ الْعُلْيَا، ثُمَّ يُصْدِرُ حُكْمًا فِيهِ عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ. فَالْفَقْهُ وَالرَّوَايَةُ هِيَ مَوَادُّ أُسَاسِيَّةٌ لِلتَّعَقُّلِ، وَلَيْسَتْ بَدِيلًا عَنْهُ. إِنَّهَا "الْآيَاتُ" الْوَحْيِيَّةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُمَرَّجَ بِ"الْآيَاتِ" الْكُونِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ فِي مَرْجَلِ التَّعَقُّلِ الْوَاسِعِ.»

كَانَ الْجَوَارُ قَدْ بَلَغَ ذُرْوَةً مِنَ التَّجْرِيدِ. لَمَعَتْ عَيْنَا "سَلْمَانَ الرَّوَائِيَّ" الَّذِي وَجَدَ فِي كَلِمَاتِ الْإِمَامِ صَدَى لِعَالَمِهِ. قَالَ بِشَغَفٍ:

«سُبْحَانَ اللَّهِ! كَأَنَّكَ تَصِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ "الْكَاتِبِ الْمَاهِرِ" وَ"الْأَدِيبِ الْحَكِيمِ". الْكَاتِبُ الْمَاهِرُ يَعْرِفُ كُلَّ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحِكْمَةِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ لَكَ نَصًّا مُتِمَّاسِكًا مَنْطِقِيًّا، لَا خَطَأَ فِيهِ. لَكِنَّهُ قَدْ يَكُونُ بَارِدًا، بَلَا رُوحٍ. أَمَّا الْأَدِيبُ الْحَكِيمُ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَخْدِمُ كُلَّ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ، وَلَكِنَّهُ

يُضَيِّفُ إِلَيْهَا بَصِيرَتَهُ بِالنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَتَجَارِبَهُ الْخَاصَّةَ، وَشَفَقَتَهُ عَلَى شَخْصِيَّاتِهِ، وَرُؤْيِيَّتَهُ لِلْوُجُودِ. فَيَخْرُجُ لَكَ بِعَمَلٍ لَا يُقْنِعُ عَقْلَكَ فَحَسْبُ، بَلْ يَهْزُ كَيْتَانِكَ كُلَّهُ. هَذَا يُنْتِجُ "جَدَلًا" حَوْلَ قَضِيَّةٍ، وَذَاكَ يُنْتِجُ "حِكْمَةً" تُضِيءُ الْحَيَاةَ.»

تَهَلَّلْ وَجْهَ الْإِمَامِ.

«اللَّهُ! هُوَ ذَاكَ يَا سَلَمَانُ! لَقَدْ أَعْظَيْتَنَا الْآنَ خُلَاصَةَ الْخُلَاصَةِ. فَمَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ بِعَقْلِ نَضِلِّي مُجَرَّدٍ، سَيَخْرُجُ مِنْهُ بِأَحْكَامٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقَضَايَا جَدَلِيَّةٍ. قَدْ يُصْبِحُ عَالِمًا، لَكِنْ رُبَّمَا لَا يُصْبِحُ حَكِيمًا. وَمَنْ يَقْرَأُهُ بَيْنَيَانٍ، أَلْتَّعَقَّلَ الْكَامِلِ، هُوَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ بِمِيزَانٍ لِلْقِيَمِ، وَبَصِيرَةٍ لِلْأَعْمَالِ، وَحِكْمَةٍ لِلتَّعَارُفِ وَالْعُمُرَانِ.»

أَطْرَقَ الْإِمَامُ لَحْظَةً، وَكَانَتْ يَجْمَعُ كُلَّ خُيُوطِ الْحَوَارِ الْتِي تَنَاطَرَتْ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ قَلِيلًا لِيُعْطِيَ كَلَامَهُ وَزْنَ الْقَاعِدَةِ الْخَتَامِيَّةِ، فَقَالَ:

«فَأَسْمَعُوهَا قَاعِدَةً أُولَى فِي بِنَاءِ "مَنْطِقِ الْبَيَانِ": **الْتَّعَقُّلُ هُوَ الرُّكْنُ الْأَسَاسِيُّ**. لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ الْفِعْلُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَحْرِّكُ كُلَّ الْبَيْنَانِ الْأَذْرَاكِيِّ لَدَى الْإِنْسَانِ. فِيهِ، يَتَحَوَّلُ الْحُسُّ الْخَامُ، وَتَبْصُ الْقَلْبِ، وَصُورُ الَذَّاكِرَةِ، وَاسْتِشْرَافُ الرُّوحِ، إِلَى "وَعْيٍ" مُتَمَاسِكٍ وَ"مِيزَانٍ" قَادِرٍ عَلَى التَّرْجِيحِ. **وَبِهِ**، يَنْفَتِحُ "الْبَيَانُ" - أَيُّ كَلَامٍ الْوَحْيِ فِي الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ - عَلَى "الْكَوْنِ" الْمَنْظُورِ، فَيَتَجَدَّدَانِ فِي مَعْنَى أَشْمَلٍ يُبْنِي الْحُكْمَ الصَّحِيحَ وَيُؤَسِّسُ لِلْحَضَارَةِ الرَّاشِدَةِ. وَبِغَيْرِ هَذَا الْتَّعَقُّلِ الشَّامِلِ، يَبْقَى الْمَنْطِقُ مُجَرَّدَ "جَدَلٍ مَجْرُودٍ" فِي صَوَامِعِ الْفَلَسَفَةِ، أَوْ "رَوَايَةٍ بِلَا مِيزَانٍ" فِي مُحَيَّلَةِ الْأَدْبَاءِ.»

سَادَ الْمَجْلِسَ صَمْتُ ثَقِيلٍ وَعَمِيقٍ. صَمْتُ لَيْسَ فَارِعًا، بَلْ

مَلِيءٌ بِصَدَى الْكَلِمَاتِ الْأَخْيَرَةِ. كَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ غَابَتْ تَقْرِيْبًا، وَبَدَأَتْ
الظُّلَالُ تَطْوُلُ وَتَتَمَارَجُ، فَأَضْفَتْ عَلَى الْوُجُوهِ جِدِّيَّةً أَكْبَرَ. حَتَّى مُعَادُ
وَأَرْسَطُو كَانَا مُطْرِقَيْنِ، يُقَلِّبَانِ الْفِكْرَةَ فِي عَقْلَيْهِمَا.

وَفِي وَسْطِ هَذَا السُّكُونِ الْمَهِيْبِ، جَاءَ صَوْتُ "لَيْلَى". كَانَ صَوْتًا
خَافِتًا، مَهْزُورًا قَلِيْلًا، لِكِنَّةٍ كَانَتْ أَشَدَّ وَضُوحًا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ قِيلَ قَبْلَهُ، لِأَنَّهُ
كَانَ يَحْمِلُ وَرْنَ الْوَاقِعِ كُلِّهِ.

قَالَتْ وَهِيَ تَرْفَعُ نَظْرَهَا إِلَى الْإِمَامِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ:

«شَيْخَنَا... كُلُّ مَا قُلْتَهُ عَظِيمٌ وَيَهْزُ الْكِتَانَ. فَهَمْتُ... فَهَمْتُ أَنَّهُ
يَجِبُ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ عَقْلٍ يُفَكِّرُ. وَلَكِنْ... لَمْ أَفْهَمْ كَيْفَ. كَيْفَ
أَفْعَلُ هَذَا؟ أَنَا لَسْتُ فَقِيهَةً مِثْلَ زَيْنَبَ لِأَيِّنِ الْأَحْكَامِ، وَلَا أَدِيْبَةً مِثْلَ
سَلْمَانَ لِأَنْسَجِ الْحِكْمَةَ. أَنَا أَعِيشُ حَيَاةً عَادِيَّةً. أَذْهَبُ إِلَى عَمَلِي، أَتَعَامَلُ
مَعَ مُدِيرِ صَعْبٍ، أَخْتَارُ فِي تَرْبِيَةِ ابْنِي الْمُرَاهِقِ، أَتَصَارَعُ مَعَ شُكُوكِي فِي
لَيَالٍ طَوِيلَةٍ. أَيْنِ "الْتَّعَقُّلُ" فِي هَذَا كُلِّهِ؟ كَيْفَ أَسْتَدْعِي قَلْبِي وَرُوحِي
وَحَوَاسِّي وَأَنَا أَجِيبُ عَلَى رِسَالَةِ بَرِيدِ الْكُتُبِ مُسْتَفْزَةً؟ كَيْفَ أَجِدُ
"الْمِيزَانَ" وَ"التَّعَارُفَ" وَ"الْعُمْرَانَ" وَأَنَا أَحَاوِلُ فَقَطْ أَنْ أَجَاوِرَ يَوْمِي بِسَلَامٍ؟
كَلَامُكَ فَتَحَ لِي بَابًا عَظِيمًا، لَكِنَّهُ بَابٌ فِي السَّمَاءِ، وَأَنَا لَا أَرَأِي أَقْفَ عَلَى
الْأَرْضِ. فَكَيْفَ السَّبِيلُ؟»

كَانَ سُؤَالُهَا هُوَ سُؤَالُ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا، الْجِسْرُ الْمَفْقُودَ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ
الشَّاهِقَةِ وَالْتَّطْبِيقِ الْمَتَوَاضِعِ. نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَيْهَا نَظْرَةً طَوِيلَةً مَلِيَّةَةً بِالشَّفَقَةِ
وَالْتَّفَهُّمِ، وَارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَتَيْهِ ابْتِسَامَةٌ خَفِيفَةٌ.

«سُؤَالُكَ هَذَا يَا لَيْلَى،» قَالَ بِصَوْتٍ عَادٍ إِلَيْهِ دِفْؤُهُ، «لَيْسَ خُرُوجًا
عَنِ الدَّرْسِ. بَلْ هُوَ قَلْبُ الدَّرْسِ الْحَقِيقِيِّ. لِأَنَّهُ السُّؤَالُ الَّذِي يُحَوِّلُ

جَدِيلُهُ الْعَقْلُ وَالْتَعَقُّلُ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

الْمَعْرِفَةِ مِنْ حَلِيَّةٍ نَتَزَّيْنُ بِهَا، إِلَى سِلَاحٍ نَتَدَرَّجُ بِهِ وَنُورٍ نَسْتَضِيءُ بِهِ. أَمَّا
جَوَابُهُ... فَهُوَ مَوْضُوعُ مَجَالِسِنَا الْقَادِمَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ.»

سَادَ الصُّمْتُ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنَّهُ كَانَ صَمْتًا مُخْتَلِفًا. صَمْتًا مَشْحُونًا
بِالْتَّرَقُّبِ، صَمْتٌ مَنْ وَقَفَ عَلَى شَاطِئِ بَحْرِ وَاسِعٍ، وَأَدْرَكَ لِتَوَّهُ أَنَّ الرِّحْلَةَ
قَدْ بَدَأَتْ.

الفصل 2: قَاضِي الْقِيَاسِ وَقَاضِي الْمِيزَانِ

عَادَتِ الْخَلْقَةُ لِلْإِنْعِقَادِ فِي لَيْلَةٍ بَدَا فِيهَا الْهَوَاءُ أَكْثَرَ نَقَاءً، وَالسُّكُونُ أَشَدَّ عُمُقًا بَعْدَ أَنْ غَسَلَ الْمَطَرُ الْمَدِينَةَ وَتَرَكَهَا تَلْمَعُ تَحْتَ أَضْوَاءِ الشُّوَارِعِ. كَانَ صَوْتُ الْمَصَابِيحِ الدَّافِئِ دَاخِلَ الْمَجْلِسِ يَرْسُمُ ظِلَالًا طَوِيلَةً لِلْكَتُبِ الرَّاسِخَةِ عَلَى الرُّفُوفِ، وَكَانَهَا حُرَّاسٌ صَامِتُونَ لِإِزْثٍ مِنْ أَسْئَلَةٍ وَأَجْوِبَةٍ تَمْتَدُّ لِقُرُونٍ. كَانَ سُؤَالُ "لَيْلَى" الْخَيَوِيِّ مِنْ نَهَايَةِ الْمَجْلِسِ السَّابِقِ لَا يَزَالُ يَتَرَدَّدُ فِي الْفَرَاغِ، سُؤَالُ أَلْ "كَيْفَ" الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ تَطْيِيقِ عَمَلِيٍّ لِفَعْلٍ "الْتَّعَقُّلِ".

جَلَسَ الْإِمَامُ فِي مَكَانِهِ، وَبَعْدَ أَنْ حَيَّا طُلَّابَهُ بِنَظَرَةٍ شَامِلَةٍ وَجَدَ فِيهَا التَّرَقُّبَ قَدْ بَلَغَ ذُرْوَتَهُ، لَمْ يَبْدَأْ بِتَعْرِيفٍ أَوْ تَقْرِيرٍ، بَلْ بَدَأَ بِقِصَّةٍ.

قَالَ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ يَشُدُّ الْإِنْتِبَاهَ:

«تَحَيَّلُوا مَعِيَ مَدِينَةً فِيهَا قَاضِيَانِ، وَكِلَاهُمَا يَحْكُمُ بِكِتَابِ الْقَانُونِ نَفْسِهِ. أَمَّا الْقَاضِي الْأَوَّلُ، فَهُوَ رَجُلٌ يُجِلُّ الْمَنْطِقَ وَالصَّرَامَةَ. قَاعَةٌ مُحَكَّمَتُهُ بَارِدَةٌ، دَقِيقَةٌ، لَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَاطِفَةِ. أُعْطِيَ هَذَا الْقَاضِي مَعَ الْكِتَابِ أَدَاةً وَاحِدَةً، وَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا ضَمَانُهُ الدَّقَّةَ الْمُطْلَقَةَ: مَجْمُوعَةٌ مِنْ

الْقَوَالِبِ (forms) الْخَدِيدِيَّةِ الصَّمَاءِ، لِكُلِّ مَادَّةٍ فِي الْقَانُونِ قَالِبُهَا الْخَاصُّ. وَمَنْهَجُهُ هُوَ "الْقِيَاسُ" بِمَعْنَى الْمِطَابَقَةِ. عِنْدَمَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ قَضِيَّةُ سَارِقٍ الرَّغِيفِ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِ"قَالِبِ السَّرِقَةِ" وَيُحَاوِلُ أَنْ يَصُبَّ فِيهِ فِعْلُ الرَّجُلِ. فَإِنْ طَابَقَ الْفِعْلُ الْقَالِبَ تَمَامًا، فَهُوَ مُذْنِبٌ. وَإِنْ بَقِيََتْ زَوَائِدُ أَوْ نَوَاقِصُ، فَهُوَ بَرِيءٌ. أَحْكَامُهُ دَائِمًا سَرِيعَةٌ وَوَاضِحَةٌ وَصَحِيحَةٌ شَكْلِيًّا.»

«وَأَمَّا الْقَاضِي الثَّانِي، فَقَاعَةُ مَحْكَمَتِهِ مُخْتَلِفَةٌ، فِيهَا نَافِذَةٌ كَبِيرَةٌ تُطَّلُ عَلَى السُّوقِ وَحَيَاةِ النَّاسِ. هَذَا الْقَاضِي لَمْ يُعْطَ مِيزَانًا مِنْ حَدِيدٍ، بَلْ قِيلَ لَهُ: "الْكِتَابُ مَعَكَ، وَلَكِنَّ الْمِيزَانَ فِي دَاخِلِكَ، عَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَهُ أَنْتَ". عِنْدَمَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ قَضِيَّةُ سَارِقٍ الرَّغِيفِ نَفْسِهَا، فَإِنْ عَمَلَهُ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا. إِنَّهُ يَبْدَأُ بِوَضْعِ نَصِّ الْقَانُونِ وَفِعْلِ السَّرِقَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَوَقَّفُ هُنَا. بَلْ يُضِيفُ إِلَى مِيزَانِهِ الدَّاحِلِيَّ أَثْقَالًا أُخْرَى: يَزِنُ خَالَ الرَّجُلِ، فَيَجِدُهُ فَقِيرًا مُعْدِمًا. وَيَزِنُ نِيَّتَهُ، فَيَعْلَمُ أَنَّه سَرَقَ لِيُطْعِمَ أَوْلَادَهُ الْجِيَاعَ لَا لِيَكْتَنِزَ. وَيَزِنُ خَالَ الْمَسْرُوقِ مِنْهُ، فَيَجِدُهُ حَبَّارًا غَنِيًّا لَنْ يَضُرَّهُ فَقْدَانُ رَغِيفٍ. وَيَزِنُ عَوَاقِبَ الْحُكْمِ، فَيَرَى أَنَّ سَجْنَهُ سَيُتِمُّ أَوْلَادَهُ وَيُدْمِرُ أُسْرَهُ كَامِلَةً. وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ، يَزِنُ كُلَّ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ بِمَا يُوَافِقُ رُوحَ الْعَدَالَةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْقَانُونِ الْأَسَاسِيَّةِ. قَدْ يَحْكُمُ فِي النِّهَايَةِ بِأَنْ يُعِيدَ الرَّجُلُ قِيَمَةَ الرَّغِيفِ وَبَعْمَلٍ عِنْدَ الْحَبَّارِ يَوْمًا لِتَعْوِضِهِ. حُكْمُهُ بَطِيءٌ، مُرَكَّبٌ، وَيَتَطَلَّبُ جُهْدًا وَحِكْمَةً. فَأَكْرَزُ سُؤَالِي: أَيُّ الْقَاضِيَيْنِ أَقْرَبُ إِلَى تَحْقِيقِ الْعَدْلِ الْحَقِيقِيِّ؟»

أَصْبَحَتِ الْقَاعَةُ غَاصَّةً بِالتَّرْقُبِ. كَانَ الطُّلَّابُ يَنْتَظِرُونَ الْإِمَامَ، وَفِي عُيُونِهِمْ بَرِيقُ الشَّغَفِ. تَحَرَّكَ أَبُو يَاسِرٍ التَّنَسُّوْلِيُّ فِي مَجْلِسِهِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْتُمَ مَا يَجُولُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ جَادًا:

«يَا إِمَامُ، لَا أَزَالُ لَا أَدْرِكُ بَوْضُوحَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْقِيَاسِ وَالْمِيزَانِ.

فَكَأَنَّكَ تَقُولُ إِنَّ الْقِيَاسَ الْأَرِسْطِيَّ لَهُ بُعْدٌ وَاجِدٌ، أَمَّا الْمِيزَانُ فَهُوَ مُتَعَدِّدٌ الْأُبْعَادَ. أَهْوَ كَذَلِكَ؟ هَلِ الْقِيَاسُ مَبْنَاهُ الْعَقْلُ الْمُجَرَّدُ وَحْدَهُ، بَيْنَمَا الْمِيزَانُ يَسْتَخْضِرُ الرُّوحَ وَالنَّفْسَ وَالْقَلْبَ وَالْفُؤَادَ وَالْبَصَرَ وَالسَّمْعَ وَاللِّسَانَ وَالذَّاكِرَةَ وَالتَّجَرِبَةَ جَمِيعًا؟»

اُنْتَشَرَ الْهَمْسُ بَيْنَ الْمَجْلِسِ، وَالْعُيُونُ تَنَاقَلَتْ بَيْنَ الْإِمَامِ وَأَبِي يَاسِرٍ، كَأَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ كَلِمَةً تُفَكِّكُ الْغُمُوضَ.

اُلْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ، وَفِي عَيْنَيْهِ بَرِيقُ الرِّضَا، ثُمَّ قَالَ:

«أَصَبْتَ يَا أَبَا يَاسِرٍ، فَالْقِيَاسُ الْأَرِسْطِيُّ مِثْلُ قَاعِدَةٍ خَدِيدِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ، لَهُ بُعْدٌ وَاجِدٌ، يَطْلُبُ مُطَابَقَةَ الشَّكْلِ بِالشَّكْلِ، وَيَرَى الْعَدْلَ فِي التَّطَابُقِ الصُّورِيِّ. فَإِذَا اُنْتَضَمَ الْقَالِبُ، قَالُوا: الْحُكْمُ صَحِيحٌ، وَلَوْ غَابَ عَنْهُ رُوحُ الْعَدْلِ.

أَمَّا الْمِيزَانُ الْبَيِّنَانِيُّ فَهُوَ كَقَتْنَيْنِ مُتَعَدِّدَتَا الْأَوْرَانِ، يَجْمَعُ الرُّوحَ وَالنَّفْسَ وَالصَّدْرَ وَالْقَلْبَ وَالْفُؤَادَ وَالْبَصَرَ وَالسَّمْعَ وَاللِّسَانَ وَالذَّاكِرَةَ وَالتَّجَرِبَةَ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا شَاهِدٌ يُشَارِكُ فِي إِقَامَةِ الْعَدْلِ.

أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؟ فَهَذَا يَظْهَرُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلِ الْعَقْلَ الْمُجَرَّدَ وَحْدَهُ مِيزَانًا، بَلْ جَعَلَ مَعَهُ الْبَصَرَ وَالسَّمْعَ وَالْفُؤَادَ. وَكُلُّهَا مَسْئُولَةٌ، كُلُّهَا تَدْخُلُ فِي الْمِيزَانِ.»

سَكَتَ الْإِمَامُ، فَانْخَفَصَ الْهَمْسُ وَانْبَسِطَ الصَّمْتُ، ثُمَّ أَخَذَتْ أَمِيَّةُ الْبَيِّنَانِيَّةُ تَنْظُرًا إِلَى أَبِي يَاسِرٍ مُتَبَسِّمَةً، كَأَنَّهُا تَقُولُ: «هَا قَدْ وَجَدْتَ الْجَوَابَ.»

كَانَتْ الْقِصَّةُ قَدْ رَسَمَتْ سَاحَةَ الْمَعْرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ لِلَيْلَةِ بِأَكْمَلِهَا.

قَالَ أَرِسْطُو الصَّغِيرُ عَلَى الْفَوْرِ بِثِقَةٍ لَمْ تَهْتَزَّ:

«يَلَا شَكَّ، الْقَاضِي الْأَوَّلُ هُوَ الْأَعْدَلُ! لِأَنَّهُ مَوْضُوعِيٌّ. إِنَّ أَدَاتِهِ، "الْقِيَاسَ"، تَحْمِيهِ مِنَ الْهَوَى وَالْتَحَيُّزِ وَالْمَشَاعِرِ. إِنَّهُ يُطَبَّقُ الْقَانُونُ بِعَدَالَةٍ مُطْلَقَةٍ عَلَى الْجَمِيعِ. أَمَّا الْقَاضِي الثَّانِي، فَإِنَّ "مِيزَانَهُ" الدَّاخِلِيَّ هَذَا يَفْتَحُ أَلْبَابَ لِلتَّأْوِيلِ الشَّخْصِيِّ، وَقَدْ يَحْكُمُ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ وَعَدًا بِنَقِيضِهِ تَحْتَ مُسَمًّى "الظُّرُوفِ" وَ"الرُّوحِ". إِنَّهُ يُؤَسِّسُ لِلْفَوْضَى وَيُبْطِلُ سُلْطَةَ الْقَانُونِ.»

أَيَّدَهُ مُعَاذَ فَائِلًا:

«أَتَّفِقُ تَمَامًا. إِنَّ الْعِلْمَ وَالْحَضَارَةَ الْحَدِيثَةَ قَامَا عَلَى مَبْدَأِ الْقَاضِي الْأَوَّلِ: قَوَانِينٍ عَامَّةٍ وَمَجْرَدَةٍ تُطَبَّقُ بِصِرَاطَةٍ. "الْقِيَاسُ" هُوَ أَسَاسُ الْمَنْطِقِ وَالرِّبَاضِيَّاتِ وَالْبَرْمَجَةِ. إِنَّهُ يُعْطِينَا نَتَائِجَ اِطْمِئْنَانِيَّةٍ. أَمَّا "الْمِيزَانُ" الَّذِي وَصَفْتَهُ فَهُوَ مَفْهُومٌ ضَبَائِيٌّ لَا يُمَكِّنُ قِيَاسَهُ، وَبِالتَّالِي لَا يُمَكِّنُ الْوُثُوقَ بِهِ كَأَسَاسٍ لِلْمَعْرِفَةِ.»

شَكَرَ الْإِمَامُ لَهُمَا طَرَحَهُمَا الْقَوِيَّ، ثُمَّ قَالَ:

«لَقَدْ أَصَبْتُمَا فِي تَشْخِصِ طَبِيعَةِ الْقَاضِي الْأَوَّلِ وَأَدَاتِهِ. إِنَّ طَرِيقَهُ هُوَ طَرِيقُ "الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ"، وَأَدَاتُهُ الْعُضْمَى هِيَ "الْقِيَاسُ". وَهُوَ طَرِيقُ بِنْتِجٍ "جَدَلًا" مُتَسِقًا وَ"بُرْهَانًا" صَحِيحًا مِنْ حَيْثُ الشَّكْلُ. وَلَكِنَّ طَرِيقَ الْقَاضِي الثَّانِي هُوَ طَرِيقُ "التَّبَيَّنِ الْفَرَايِي"، وَمَنْهَجُهُ هُوَ "الْمِيزَانُ".»

«وَهَذَا يَكْمُنُ الْفَرْقُ الْجَوْهَرِيُّ: إِنَّ "الْقِيَاسَ" أَدَاةٌ يَصْنَعُهَا الْعَقْلُ

الْبَشَرِيُّ لِيُسَيِّطَرَ بِهَا عَلَى الْوَاقِعِ وَيَجَرِّدَهُ. أَمَّا "الْمِيزَانُ" فَلَيْسَ أَدَاةً نَصْنَعُهَا، بَلْ هُوَ مَبْدَأٌ كَوْنِيٌّ نَكْتَشِفُهُ. إِنَّهُ الْمِيزَانُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الرَّحْمَنُ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَاقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. فَهُوَ مَبْدَأٌ قَائِمٌ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، مَبْدَأُ التَّوَارُنِ وَالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ، وَالتَّبَيُّانُ الْقُرْآنِيُّ لَا يَخْتَرَعُ أَدَاةً جَدِيدَةً، بَلْ يَدْعُو "تَعَقُّلَنَا" لِيَتَشَرَّبَ هَذَا الْمِيزَانَ الْكَوْنِيَّ وَيُصْبِحَ هُوَ نَفْسُهُ مِيزَانًا.»

«وَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ التَّعَقُّلُ لِيُصْبِحَ مِيزَانًا؟» سَأَلَ خَالِدٌ.

«يَتَعَلَّمُ مِنْ خِلَالِ أَدَوَاتِ التَّبَيَّنِ،» أَجَابَ الْإِمَامُ، «وَهَذِهِ الْأَدَوَاتُ لَيْسَتْ أَدَوَاتِ قِيَاسٍ جَامِدٍ، بَلْ أَدَوَاتُ وَزْنٍ وَتَرْجِيحٍ.

فَمِنْهَا "الْآيَاتُ": وَهِيَ عَلَامَاتٌ فِي الْكَوْنِ وَفِي النَّفْسِ، لَا تُعْطِيكَ نَتِيجَةً جَاهِزَةً، بَلْ تَدْعُوكَ لِتَزِنَ عَظَمَةَ الْخَلْقِ أَمَامَ قُدْرَةِ الْخَالِقِ، وَلِتَقَارِنَ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَبَيْنَ الْجَسِّ وَالْغَيْبِ.

وَمِنْهَا "الْأُمَثَالُ": وَهِيَ أَعْظَمُ أَدَوَاتِ الْمِيزَانِ. فَالْمَثَلُ لَا يَعْمَلُ بِطَرِيقَةِ الْقِيَاسِ (أ=ب، ب=ج، إِذَا أ=ج)، بَلْ يَغْرِضُ عَلَيْكَ صُورَتَيْنِ، أَوْ حَيَاتَيْنِ، أَوْ مَصِيرَيْنِ، وَيَدْعُوكَ لِتَزِنَهُمَا بِعَقْلِكَ وَقَلْبِكَ لِتَرَى أَيُّهُمَا أَرْجَحُ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأُمَثَالُ نُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وَمِنْهَا "الْحُرُوفُ وَالْأَدَوَاتُ" فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ: كـ"إِنْ" وَ"لَوْ" وَ"قَدْ" وَ"لَعَلَّ" وَ"بَلْ" وَ"ثُمَّ"، كُلُّهَا أَدَوَاتٌ بَيَانِيَّةٌ تَتَحَوَّلُ إِلَى مَوَازِينٍ مَنْطِقِيَّةٍ، تُوجِّهُ الْحُكْمَ وَتُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَظْمِنَانِ وَالظَّنِّ، وَبَيْنَ الْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ، وَبَيْنَ الشَّرْطِ وَالْحَالِ. فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى قَوَالِبِ الْيُونَانِ مَا دَامَتْ أَدَوَاتُ الْعَرَبِيَّةِ تَكْفِي وَتَعْفُو.

وَمِنْهَا "الْقِصَصُ وَالْأَحْكَامُ الْقُرْآنِيَّةُ": فَأَلْقُرْآنُ لَا يُقَدِّمُ الْحُكْمَ جَافًا، بَلْ يَضَعُهُ فِي سِيَاقٍ حَيَوِيٍّ يَجْمَعُ الْقَلْبَ وَالْعَقْلَ وَالْخَبْرَةَ، كَمَا فِي قِصَّةِ دَاوُدَ وَخُصُومِهِ، أَوْ فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ. هُنَا يَتَحَوَّلُ الْقِصَصُ إِلَى "مِيزَانٍ" يَعْلَمُكُمْ كَيْفَ تَرْتَوِنَ الْوَاقِعَ.

وَلَا تَنْسُوا يَا أَحِبَّتِي أَنَّنَا قَدْ قَدَّمْنَا فِي رِوَايَتِنَا الْأُولَى أَنْمُودَجًا لِهَذَا الْمَسْلَكِ، حِينَ عَلَّمْتُ الْخَوَارِزْمِيَّ فَنَّ الْحِسَابِ وَعُلُومَ الْجَبْرِ. فَإِنَّ الْجَبَرَ لَيْسَ مَجْمُوعَةً صُورٍ جَامِدَةٍ، بَلْ هُوَ وَزْنُ الْمَجَاهِيلِ وَالْمَعْلُومَاتِ، وَتَرْجِيحُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ حَتَّى يَظْهَرَ الْحَلُّ. وَهَذَا هُوَ الْمِيزَانُ نَفْسُهُ، مُتَجَسِّدًا فِي الرِّيَاضِيَّاتِ.»

هُنَا تَدْخَلَتْ زَيْنَبُ الْفَقِيهَةُ:

«شَيْخَنَا، إِذَنْ حَسَبَ هَذَا الطَّرْحِ، فَإِنَّ "الْقِيَاسَ" الَّذِي نَسْتَحْدِمُهُ فِي الْفِقْهِ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ "قِيَاسِ" الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ؟»

«سُؤَالٌ دَقِيقٌ يَا زَيْنَبُ. "الْقِيَاسُ" فِي أَصُولِ الْفِقْهِ، وَإِنْ تَشَابَهَ اسْمُهُ مَعَ قِيَاسِ الْمَنْطِقِ، إِلَّا أَنَّ رُوحَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ "الْمِيزَانِ". لِأَنَّ الْفَقِيهَةَ الْحَقَّ لَا يَقِيسُ قِيَاسًا أَلِيًّا، بَلْ يَبْحَثُ عَنِ "الْعِلَّةِ الْجَامِعَةِ"، وَيَنْظُرُ فِي "مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ"، وَيَحَاوِلُ أَنْ يُحَقِّقَ "مَصْلَحَةً" أَوْ يَدْرَأَ "مَفْسَدَةً". كُلُّ هَذِهِ عَمَلِيَّاتٌ "وَزْنٍ" مَعْقَدَةٌ، وَلَيْسَتْ عَمَلِيَّةَ قِيَاسٍ بَسِيطَةً. وَالْخَطَرُ يَقَعُ عِنْدَمَا يَنْسَى الْفَقِيهَ رُوحَ الْمِيزَانِ وَيَتَعَامَلُ مَعَ أَدَاتِهِ كَأَنَّهَا قِيَاسٌ مَنْطِقِيٌّ صَرَفٌ.»

ثُمَّ التَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى الْجَمِيعِ وَقَالَ:

«وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى الْعَاقِبَةِ وَالنَّتِيجَةِ. إِنَّ الْإِغْرَاقَ فِي مَنْهَجِ

"الْقِيَاسُ" الْمَجَرَّدُ يُؤَدِّي حَتْمًا إِلَى الْإِغْرَاقِ فِي "الْتَنَازُلِ" وَالْجَدَلِ الَّذِي لَا يَنْتَهِي، كَمَا حَدَّثَ مَعَ إِخْوَانِنَا الْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ كَانُوا فُرْسَانَ الْقِيَاسِ، فَأَنْتَجُوا عِلْمَ كَلَامٍ عَظِيمًا، لَكِنَّهُ ظَلَّ نُحْبَوِيًّا وَجَدَلِيًّا. أَمَّا الْإِنْخِرَاطُ فِي مَنْهَجِ "الْمِيزَانِ"، فَهُوَ طَرِيقٌ يُفْضِي إِلَى بِنَاءِ الْحُكْمِ الرَّشِيدِ، وَإِقَامَةِ الْتَعَارُفِ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ بِالْعُمَرَانِ النَّافِعِ. فَعَايَتُهُ لَيْسَتْ الْعَلَبَةُ فِي مَنَاطِرَةٍ، وَلَا الْتَفَوُّقُ فِي جَدَلٍ، بَلْ هِيَ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ فِي الْحَيَاةِ، وَأَنْ تُقَامَ الْحَقِيقَةُ عَلَى أَسَاسِ يُشْرِكُ الرُّوحَ وَالْعَقْلَ وَالْقَلْبَ وَالتَّجَرِبَةَ وَالْمُقَدَّارَ. فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الشَّهَادَاتُ فِي كِفَتَيْنِ، تَبَيَّنَ الْحَقُّ وَاسْتَقَامَ الْعَدْلُ. وَبِهَذَا يُصْبِحُ الْمِيزَانُ نِظَامًا لَا يَخْدُمُ الْجَدَلَ وَلَا يَرَادُ بِهِ غَلَبَةٌ فِي مَنَاطِرَةٍ، بَلْ هُوَ خَادِمُ الْحَيَاةِ وَالْعَدَالَةِ وَالتَّعَارُفِ وَالْعُمَرَانِ.»

أَضَافَ الْإِمَامُ مُوَضَّحًا النُّقْطَةَ الَّتِي لَمْ تُسْتَوْفَ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ:

«وَلَكِنِّي تَرَوُا كَيْفَ أَنَّ الْمِيزَانَ هُوَ الْأَفْقُ الْأَوْسَعُ، دَعَوْنَا نَنْظُرَ كَيْفَ يُعَبِّرُ كُلُّ مَنْهَجٍ نَظَرَتَنَا لِثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ: الْعَقْلُ وَالْمَعْرِفَةُ وَالْعَايَةُ. أَمَّا "الْعَقْلُ"، فَمَنْهَجُ الْقِيَاسِ يَرَاهُ أَدَاءً مُجَرَّدَةً مُنْفَصِلَةً يَحِبُّ عَزْلَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ. وَأَمَّا مَنْهَجُ الْمِيزَانِ فَيَرَاهُ وَظِيفَةً عَلِيًّا لِكِتَابَانِ مُنْدَمِجٍ لَا يَنْفَصِلُ فِيهِ الْتَفَكِيرُ عَنِ النَّفْسِ وَالشَّعُورِ وَالبَصِيرَةِ. وَأَمَّا "الْمَعْرِفَةُ"، فَالْقِيَاسُ يَرَاهَا نِظَامًا مُغْلَقًا مِنَ الْقَوَاعِدِ، بَيْنَمَا الْمِيزَانُ يَرَاهَا رَحْلَةً مَفْتُوحَةً مِنَ الْتَفَاعُلِ مَعَ آيَاتِ اللَّهِ. وَأَمَّا "الْعَايَةُ"، فَعَايَةُ الْقِيَاسِ هِيَ "صِحَّةُ الشَّكْلِ"، وَعَايَةُ الْمِيزَانِ هِيَ "صِحَّةُ الْحَيَاةِ".»

أَخَذَ الْإِمَامُ نَفْسًا عَمِيقًا ثُمَّ قَدَّمَ خُلَاصَتَهُ الْقَاعِدِيَّةَ الْجَدِيدَةَ:

«فَالْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ إِذَنْ: الْمَنْطِقُ يُؤَسِّسُ لـ "قِيَاسٍ" يُنْتِجُ جَدَلًا، وَالتَّبَيُّنُ يُؤَسِّسُ لـ "مِيزَانٍ" يُنْتِجُ حُكْمًا. الْقِيَاسُ يُجَرِّدُ الْعَقْلَ وَيُحَوِّلُهُ إِلَى

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

أَدَاةُ حِسَابٍ، وَالْمِيزَانُ يُجَسَّدُ الَّتَعَقُّلَ فِي كُلِّ أَنْعَادِ الْإِنْسَانِ وَيُحَوِّلُهُ إِلَى فِعْلٍ حَكَمَةٍ. وَمَنْطِقُ التَّبَيَّنِ غَايَتُهُ أَنْ يُصْبِحَ الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ مِيزَانًا عَادِلًا، يَبْنِي حُكْمًا وَيُقِيمُ عُمْرَانًا.»

سَادَ الصَّمْتُ الْعَمِيقُ. كَانَتْ فِكْرُهُ "الْإِنْسَانِ الْمِيزَانَ" قَدْ هَزَّتْ وَجَدَانَ الْحَاضِرِينَ.

ثُمَّ جَاءَ صَوْتُ خَالِدٍ الْهَادِي، يَنْقُلُ الْحَوَارَ إِلَى مَرَحَلَتِهِ التَّالِيَةِ بِشَكْلِ مَنْطِقِيٍّ وَطَبِيعِيٍّ:

«شَيْخَنَا، لَقَدْ فَهَمْتُ الْآنَ أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنِّي لَيْسَ أَنْ أَكُونَ حَاسِبًا، بَلْ أَنْ أَكُونَ "قَاضِي الْمِيزَانِ" فِي حَيَاتِي. وَلَقَدْ قُلْتُ إِنَّ هَذَا الْقَاضِيَّ يَزِنُ أُمُورًا كَثِيرَةً: النَّصَّ وَالْوَاقِعَ وَالنَّبِيَّةَ وَالْعَوَاقِبَ... وَأَشْرَتْ فِي كَلَامِكَ إِلَى أَنَّهُ يَسْتَعِينُ بِنُورِ "الرُّوحِ" وَيُوجِّهُ حَرَكَةَ "النَّفْسِ" وَيَحْكُمُ بِبَصِيرَةِ "الْقَلْبِ". وَهُنَا مَشْكَلَتِي. كَيْفَ أَرِنُ بِأَدَوَاتٍ لَا أَعْرِفُ طَبِيعَتَهَا؟ مَا هِيَ هَذِهِ الْقُوَى الْبَاطِنِيَّةُ - الرُّوحُ وَالنَّفْسُ وَالْقَلْبُ - الَّتِي يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَدْخِلَهَا فِي مِيزَانِي؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ. لَقَدْ وَصَلَتْ الرِّحْلَةُ إِلَى مَحَطَّتِهَا التَّالِيَةِ بِسَلَاسَةٍ.

«لَا يُمَكِّنُ لِقَاضٍ أَنْ يَحْكُمَ مَا لَمْ يَعْرِفْ شُهُودَهُ. وَهَؤُلَاءِ هُمْ شُهُودُكَ مِنْ بَاطِنِكَ يَا خَالِدُ. وَمَعْرِفَتُهُمْ هِيَ مَوْضُوعُ مَجْلِسِنَا الْقَادِمِ.»

الفصل 3: غُيُومٌ أَمْ أَدَوَاتٌ؟

كَانَتْ لَيْلَةً مِنْ لَيَالِي الشِّتَاءِ الْهَادِئَةِ. هَطَلَ الْمَطَرُ قَبْلَ الْعِشَاءِ بِخِفَّةٍ، فَغَسَلَ الْغُبَارَ عَنْ زُجَاجِ النَّافِذَةِ الْكَبِيرَةِ، وَتَرَكَ الْهَوَاءَ نَقِيًّا وَمُنْعِشًا، تَحْمِلُهُ النَّسَمَاتُ الْبَارِدَةُ إِلَى دَاخِلِ الْمَجْلِسِ كُلَّمَا فُتِحَ الْبَابُ. دَاخِلَ الْغُرْفَةِ، كَانَتْ أَجْوَاءُ الدَّفءِ تُحِيطُ بِالْجَمِيعِ، لَيْسَ فَقَطْ يَفْعَلُ الْمُدْفَأَةُ الَّتِي وُضِعَتْ فِي إِحْدَى الزَّوَايَا وَأُرْسِلَتْ لِهَيْبَتِهَا الْبُرْتُقَالِيَّ يَرْقُصُ فِي صَمْتٍ، بَلْ يَفْعَلُ التَّرْقِيبُ الْفِكْرِيُّ الَّذِي أَصْبَحَ سِمَةً لِقَاءِائِهِمْ.

إِنْعَقَدَتِ الْحَلَقَةُ، وَكَانَ سُؤَالُ "خَالِدٍ" مِنَ الْجَلْسَةِ الْمَاضِيَةِ لَا يَزَالُ خَاضِرًا بِقُوَّةٍ، لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ سُؤَالٍ، بَلْ كَانَ صَرْخَةً الْوَاقِعِيِّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَلْمَسَ الْأَفْكَارَ بِيَدَيْهِ. كَيْفَ نَتَعَامَلُ مَعَ هَذِهِ "الْأَدَوَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ" - الرُّوحُ، النَّفْسُ، الْقَلْبُ - إِذَا كُنَّا لَا نَكَادُ نُدْرِكُ حُدُودَهَا؟

كَانَ الْإِمَامُ يَنْظُرُ إِلَى خَالِدٍ بِنَظَرَةٍ تَشْجِيعِيَّةٍ، وَقَالَ بِهَدْوٍ:

«سُؤَالُكَ يَا خَالِدُ لَيْسَ سُؤَالَكَ وَحْدَكَ، بَلْ هُوَ سُؤَالُ كُلِّ إِنْسَانٍ أَرَادَ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنَ "الْإِسْلَامِ" كَفِكْرَةٍ، إِلَى "الْإِيمَانِ" كَتَجَرِبَةٍ حَيَّةٍ. لَقَدْ وَصَفْتَ هَذِهِ الْمَفَاهِيمَ بِأَنَّهَا كَالْغُيُومِ، وَهَذَا وَصْفٌ ذَقِيقٌ لِحَالِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ بَعِيدٍ. وَمُهْمَّتُنَا اللَّيْلَةَ هِيَ أَنْ نَدْخُلَ وَسَطَ هَذِهِ الْغُيُومِ، لَعَلَّنَا نَكْتَشِفُ أَنَّهَا لَيْسَتْ صَبَابًا مُشْتَّتًا، بَلْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَدَوَاتٌ دَقِيقَةٌ لَهَا

وَوَظَائِفُهَا وَمَوَازِينُهَا.»

لَمْ يَكِدْ الْإِمَامُ يُنْهِي كَلَامَهُ حَتَّى جَاءَ صَوْتُ مُعَاذِ الْعَقْلَانِيَّ، حَادًّا وَوَاضِحًا كَعَادَتِهِ:

«شَيْخَنَا الْجَلِيلَ، أَرْجُو أَنْ تَسْمَحَ لِي بِالتَّسَاوُلِ: أَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَكُونَ هَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتُ - الرُّوحُ، النَّفْسُ، الْقَلْبُ - مُجَرَّدَ تَسْمِيَّاتٍ مَجَازِيَّةٍ قَدِيمَةٍ لَوْظَائِفَ عَصَبِيَّةٍ نَفْهَمُهَا الْيَوْمَ بِشَكْلِ أَفْضَلْ؟ عِلْمُ النَّفْسِ يَتَحَدَّثُ عَنْ "الْأَنَا" وَ"الْهُوَ" وَ"الْأَنَا الْأَعْلَى"، وَعِلْمُ الْأَعْصَابِ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْلَوَزَةِ الدَّمَاعِيَّةِ وَالْقَشْرَةِ الْأَمَامِيَّةِ. فَلِمَاذَا نَعُودُ إِلَى مَا وَصَفَهُ خَالِدٌ بِ"الْعُيُومِ" بَيْنَمَا لَدَيْنَا خَرَائِطُ وَاضِحَةٌ؟»

أَيَّدَهُ أَرِسْطُو الصَّغِيرُ قَائِلًا:

«إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْفَلَسَفَةَ الْيُونَانِيَّةَ قَدْ بَحَثَتْ فِي هَذَا وَفَصَّلَتْ. تَحَدَّثُ أَفْلَاطُونُ عَنِ النَّفْسِ (Psyche) وَأَفْسَامُهَا الثَّلَاثَةُ: الْعَاقِلَةُ وَالْعَصَبِيَّةُ وَالشَّهْوَانِيَّةُ. هَذَا تَقْسِيمٌ مَنْطِقِيٌّ وَوَاضِحٌ. فَهَلْ نَحْنُ بِصَدَدِ الْحَدِيثِ عَنْ شَيْءٍ مُخْتَلِفٍ جَذْرِيًّا؟»

شَكَرَ الْإِمَامُ الْمُتَدَخِّلِينَ بِابْتِسَامَةٍ هَادِئَةٍ، وَقَالَ:

«ظَرَحُكُمَا هُوَ الْمَذْخَلُ الْمِثَالِيُّ لِلدَّرْسِ. فَهُوَ يُظْهِرُ لَنَا الْفَرْقَ الْجَوْهَرِيَّ بَيْنَ الْمَسَارَيْنِ. مَسَارٌ يَسْعَى لِتَشْرِيحِ الْإِنْسَانِ وَفَهْمِ أَجْزَائِهِ - وَهَذَا مَسَارٌ نَافِعٌ وَمُهُمٌّ وَلَا نُنْكِرُهُ، سِوَاءَ كَانِ عِلْمِيًّا أَمْ فِلَسْفِيًّا. وَمَسَارٌ آخَرُ، هُوَ مَسَارُ التَّبَيَّنِ الْقَرَّائِي، الَّذِي لَا يَهْتَمُّ بِتَشْرِيحِ الْأَجْزَاءِ بِقَدْرِ مَا يَهْتَمُّ بِكَيْفِيَّةِ "عَمَلِ" هَذِهِ الْأَجْزَاءِ مَعًا فِي "مَسِيرَةِ مُرَكَّبَةٍ" وَاحِدَةٍ. الْقُرْآنُ لَا يُقَدِّمُ لَنَا نَظْرِيَّةً فِي عِلْمِ النَّفْسِ، بَلْ يُقَدِّمُ لَنَا "مَنْهَجَ حَيَاةٍ" لِهَذَا الْكَيَانَ

الْمُرَكَّبِ.»

«وَلْيَبْدَأْ بِأَكْثَرِ هَذِهِ "الْغُيُومِ" غُمُوضًا وَأَبْعَدَهَا عَنِ الْفَهْمِ الْمَادِّيِّ:
الرُّوحُ. إِنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ يَضَعُ لَنَا حَدًّا فَاصِلًا أَمَامَ مَحَاوَلَةِ سَبْرِ أَغْوَارِ كُنْهَهَا.
يَقُولُ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِلَّا قَلِيلًا﴾. هَذَا الْجَوَابُ لَيْسَ صَدًّا لِلْبَحْثِ، بَلْ هُوَ تَوْجِيهٌ لَهُ. يَقُولُ لَنَا: لَا
تَضَيِّعُوا أَعْمَارَكُمْ فِي الْبَحْثِ عَنِ "مَا هِيَ" الرُّوحُ، فَهِيَ مِنْ "أَمْرِ رَبِّي"، أَيْ
مِنْ عَالَمٍ آخَرَ غَيْرِ عَالَمِ الْخَلْقِ الَّذِي تُحِيطُونَ بِهِ. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، اُبْحَثُوا فِي
"أَثَرِ" الرُّوحِ فِي حَيَاتِكُمْ وَ"وُظِيفَتِهَا" فِي تَعَقُّلِكُمْ.»

«وَمَا هِيَ وَظِيفَتُهَا إِذَنْ؟» سَأَلَ خَالِدٌ بِأَهْتِمَامٍ.

«وُظِيفَتُهَا هِيَ "الْمَدَدُ". الرُّوحُ هِيَ مَصْدَرُ الْحَيَاةِ الَّذِي يُمِدُّ كَيَانَكَ
كُلَّهُ بِالطَّاقَةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ. وَفِي سِيَاقِ التَّعَقُّلِ، هِيَ مَصْدَرُ "الْإِلْهَامِ"
وَالْبَصِيرَةِ". هِيَ التَّفَحُّةُ الْعُلُويَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْ عَقْلِكَ قَادِرًا لَا عَلَى
التَّحْلِيلِ فَحَسْبُ، بَلْ عَلَى الْإِبْدَاعِ وَالْقَفْزَاتِ الْفِكْرِيَّةِ غَيْرِ الْمَتَوَقَّعَةِ. إِذَا كَانَ
التَّعَقُّلُ مُصْبَحًا، فَإِنَّ الرُّوحَ هِيَ الْكَهْرَاءُ الَّتِي تُضِيئُهُ. بَلَا رُوحٍ، يَبْقَى
الْمُصْبَحُ قِطْعَةً مَعْدِنٍ وَرُجَاجٍ بَارِدَةٍ. وَكَذَلِكَ التَّعَقُّلُ بَلَا رُوحٍ يُصْبِحُ جَدَلًا
مَيِّتًا، مُجَرَّدَ حِسَابَاتٍ مَنْطِقِيَّةٍ فَارِغَةٍ مِنْ أَيِّ مَعْنَى حَيٍّ.»

قَالَ سَلْمَانُ الرَّوَّائِيُّ:

«أَرَى هَذَا فِي الْفَنِّ. هُنَاكَ لَوَحَاتٌ مَرْسُومَةٌ بِتَقْنِيَّةٍ مُذْهِلَةٍ لَكِنَّهَا لَا
تَقُولُ شَيْئًا. وَهُنَاكَ لَوَحَاتٌ بَسِيطَةٌ تَشْعُرُ أَنَّ "رُوحَ" الْفَنَّانِ تَسْكُنُهَا
فَتَخَاطِبُكَ مُبَاشَرَةً. هَلْ هَذَا مَا تَقْصِدُهُ؟»

«تَمَامًا»، قَالَ الْإِمَامُ، «هِيَ تِلْكَ اللَّمْسَةُ غَيْرُ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي تُحَوِّلُ

الْصَّنْعَةَ إِلَى فَنٍّ، وَالْجَدَلَ إِلَى حِكْمَةٍ.»

ثُمَّ انْتَقَلَ الْإِمَامُ قَائِلًا: «فَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ هِيَ الْمَدَدُ الْعُلَوِيِّ، فَأَيْنَ هُوَ الْمَجَالُ الْأَرْضِيُّ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ هَذَا الْمَدَدُ وَيُخْتَبَرُ؟ هَذَا هُوَ عَالَمُ "النَّفْسِ". النَّفْسُ هِيَ "أَنْتَ" فِي تَجَلِيكَ الْفَرْدِيِّ. هِيَ مَرْكَزُ شُعُورِكَ بِذَاتِكَ، وَوَعَاءُ رَغَبَاتِكَ وَشَهَوَاتِكَ وَغَضَبِكَ وَأَمَالِكَ. إِنَّهَا مَجَالُ الْاِخْتِبَارِ الْأَعْظَمِ، وَمَيْدَانُ الصَّرَاعِ بَيْنَ دَوَاعِي الطَّيْنِ وَأَشْوَاقِ الرُّوحِ.»

«وَالْقُرْآنُ لَا يُقَدِّمُ النَّفْسَ كَكُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ كَطَيْفٍ مُتَحَرِّكِ لَهُ أَحْوَالٌ. فَتَارَةً تَكُونُ "نَفْسًا أَمَارَةً بِالسُّوءِ"، تَدْفَعُ صَاحِبَهَا نَحْوَ الْهَوَى. وَتَارَةً تَرْتَقِي فَتُصْبِحُ "نَفْسًا لَوَامَةً"، تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى الْخَطَا فَتَفْتَحُ لَهُ بَابَ التَّوْبَةِ. وَغَايَةُ الْغَايَاتِ أَنْ تَصِلَ إِلَى حَالَةِ "النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ". وَالطَّرِيقُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ هُوَ مَا أَسَمَاهُ الْقُرْآنُ بِ"التَّرَكُّبَةِ". يَقُولُ الْحَقُّ فِي أَقْوَى أَقْسَامِهِ: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.»

سَأَلْتُ زَيْنَبَ بِأَهْتِمَامٍ:

«وَمَا عِلَاقَةُ هَذِهِ التَّرَكُّبَةِ بِالتَّعَقُّلِ يَا شَيْخَنَا؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«عِلَاقَةُ حَيَوِيَّةٍ. لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا لَمْ تُهَذَّبْ، فَإِنَّهَا تَسْرِقُ آدَاءَ التَّعَقُّلِ وَتَسْتَخْدِمُهَا لِخِدْمَةِ أَهْوَائِهَا. هُنَا يَظْهَرُ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَسْتَغْمِلُ ذَكَاءَهُ الْخَارِقَ لِتَبْرِيرِ ظُلْمِهِ، أَوْ يَسْتَخْدِمُ قُدْرَتَهُ الْمَنْطِيقِيَّةَ الْفَدَّةَ لِتَضْلِيلِ النَّاسِ وَجِدَائِعِهِمْ. عَقْلُهُ يَعْمَلُ بِكِفَاءَةٍ، لَكِنَّهُ يَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ نَفْسٍ مُنْحَرِفَةٍ. لِذَلِكَ، فَالتَّعَقُّلُ بِلَا تَهْذِيبٍ وَتَرْكُيبٍ لِلنَّفْسِ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَسَادٍ وَإِفْسَادٍ.

تُصْبِحُ الْمَعَارِفُ أَدَوَاتِ هَوَى وَطُغْيَانٍ، لَا أَدَوَاتِ هُدًى وَبَيَانٍ.»

«وَالآنَ،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «لَدَيْنَا مَدَدٌ عُلوِيٌّ مِنَ الرُّوحِ، وَمَبْدَأُ صِرَاعٍ وَاخْتِبَارٍ فِي النَّفْسِ. فَمَا هُوَ الْمَرْكَزُ الَّذِي يَقَعُ بَيْنَهُمَا؟ مَنْ هُوَ الْفَائِذُ الَّذِي يُفْتَرَضُ بِهِ أَنْ يَسْتَفِيلَ نُورُ الرُّوحِ لِيُوجِّهَ حَرَكَةَ النَّفْسِ؟ هَذَا هُوَ "الْقَلْبُ".»

«وَالْقَلْبُ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَصْحَحةٍ لِلدَّمِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَرْكَزٍ لِلْعَوَاطِفِ الْهَوَاجِ. إِنَّهُ مَرْكَزُ الْإِدْرَاكِ الْأَعْمَقِ، مَرْكَزُ الشُّعُورِ الْمُصْطَبِغِ بِالْقِيَمِ، وَمَوْطِنُ الْإِيمَانِ وَالْإِطْمِئْنَانِ. إِنَّهُ الْأَدَاةُ الَّتِي "تَتَدَبَّرُ" وَ"تَفْقَهُ". وَلِذَلِكَ يَجْعَلُ الْقُرْآنُ الْعَمَى الْحَقِيقِيَّ عَمَى الْقُلُوبِ، وَالْعَقْلُ الْحَقِيقِيَّ قُمْلَ الْقُلُوبِ. يَقُولُ: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». فَالْفَهْمُ الْحَقِيقِيُّ لِلْبَيَانِ لَا يَتِمُّ فِي الدِّمَاغِ، بَلْ يَنْزِلُ فَيَسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ.»

تَدَخَّلَتْ لَيْلَى بِصَوْتٍ خَافٍ:

«دَائِمًا كُنْتُ أَشْعُرُ بِهِذَا. أَحْيَانًا أَفْهَمُ فِكْرَةً بِعَقْلِي، لَكِنِّي لَا أَشْعُرُ بِهَا، فَتَبْقَى غَرِيبَةً عَنِّي. وَأَحْيَانًا أَفْرَأُ آيَةً فَتَنْزِلُ عَلَيَّ بِسَكِينَةٍ وَأَشْعُرُ أَنَّيْ فِهِمَّتُهَا بِكُلِّ كِتَابِي حَتَّى لَوْ لَمْ أَسْتَطِعْ شَرْحَهَا.»

«هَذَا هُوَ الْفَهْمُ الْقَلْبِيُّ يَا لَيْلَى،» قَالَ الْإِمَامُ. «وَهَذِهِ هِيَ وَظِيفَةُ الْقَلْبِ فِي التَّعَقُّلِ: أَنْ يُضْفِيَ عَلَى الْمَعَارِفِ الذَّهْنِيَّةِ بُعْدَهَا الْقِيَمِيَّ وَالْإِيمَانِيَّ. أَنْ يَحْوِلَ الْحَقِيقَةُ مِنْ مَعْلُومَةٍ بَارِدَةٍ إِلَى قِيَمَةٍ دَافِقَةٍ تُوَجِّهُ السُّلُوكَ. لِأَنَّ التَّعَقُّلَ بِلَا قَلْبٍ يُصْبِحُ أَدَاةَ مَادِّيَّةٍ صُرْفَةٍ، كَحَاسُوبٍ يَمْتَلِكُ كُلَّ الْبَيِّنَاتِ لَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْحُبِّ أَوْ الْكَرَاهِيَّةِ، عَنِ الْعَدْلِ أَوْ الظُّلْمِ، عَنِ الْجَمَالِ أَوْ الْقُبْحِ. إِنَّهُ يَعْرِفُ "كَيْفَ"، لَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ "لِمَاذَا".»

صَمَتَ الْإِمَامُ وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا، ثُمَّ قَالَ:

«أَرَأَيْتُمْ الْآنَ كَيْفَ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ "غُيُومًا"؟ بَلْ هِيَ مَنْظُومَةٌ مُتَكَامِلَةٌ. لِنَتَخَبَّلَهَا مَعًا: **الرُّوحُ** هِيَ ضَوْءُ الشَّمْسِ الَّذِي يُعْطِي النُّورَ وَالِدَفَّ. وَ**النَّفْسُ** هِيَ الْفَرَسُ الْجَامِحَةُ بِالْمَلِيَّةِ بِالطَّاقَةِ وَالرَّغَبَاتِ. وَ**الْقَلْبُ** هُوَ الْفَارِسُ الَّذِي يُمَسِّكُ بِاللِّجَامِ. وَ**التَّعَقُّلُ** هُوَ الْفِعْلُ الْمُرَكَّبُ لِهَذَا الْفَارِسِ (الْقَلْبِ) وَهُوَ يَسْتَعِينُ بِنُورِ الشَّمْسِ (الرُّوحِ) لِيَقُودَ فَرَسَهُ (النَّفْسَ) فِي الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ.»

«وَالآنَ أَسْأَلُكُمْ، يَا مُعَاذُ وَيَا أَرْسَطُو،» قَالَ الْإِمَامُ مُوجِّهًا كَلَامَهُ لَهُمَا، «قَارِنُوا بَيْنَ هَذَا الْمَشْهَدِ الْمُرَكَّبِ، وَبَيْنَ "التَّغْيِيرِ الصَّرْفِ" الَّذِي يَقُولُ لِلْفَارِسِ: "انْزِلْ عَن فَرَسِكَ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ، وَاجْلِسْ وَحْدَكَ فِي غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ وَحَلِّ الطَّرِيقَ بِمَنْطِقِكَ الْمَجَرَّدِ". أَيُّ الطَّرِيقَيْنِ يَبْنِي عِلْمًا أَكْثَرَ حِكْمَةً؟ وَأَيُّهُمَا يَبْنِي حَيَاةً أَكْثَرَ كَمَالًا؟»

كَانَ السُّؤَالُ قَدْ لَخَّصَ كُلَّ شَيْءٍ. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ، لَمْ يُسَارِعْ مُعَاذٌ إِلَى الْجَوَابِ.

أَخَذَ الْإِمَامُ الْكَلِمَةَ الْأَخِيرَةَ لِيَضَعَ الْقَاعِدَةَ الثَّلَاثَةَ:

«**التَّعَقُّلُ فِي الْقُرْآنِ فِعْلٌ مُرَكَّبٌ: تَشْهَدُ الرُّوحُ، وَتُخَبِّرُ بِهِ النَّفْسَ، وَيُرَكِّبُ الْقَلْبَ.** وَهَذَا هُوَ الْفَارِقُ الْجَوْهَرِيُّ الَّذِي يُمَيِّزُ مَنْطِقَ التَّبَيَّنِ عَنِ الْمَنْطِقِ الْمَجَرَّدِ؛ فَهُوَ لَا يَبْنِي بُرْهَانًا جَدَلِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ يَبْنِي "مِيزَانًا حَيًّا" يُجَمِّعُ بَيْنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي نَذَرُكُهَا، وَالْقِيمِ الَّتِي نُوْمِنُ بِهَا، وَالْحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَ أَثْقَلَ مِنْ أَيِّ مَرَّةٍ مَضَتْ. لِأَنَّ الْخَرِيطَةَ

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

الْبَاطِنِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ كَانَتْ قَدِ اتَّصَحَتْ، وَأَدْرَكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَجْمَ
الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِهِ لِيُحَقِّقَ التَّوَازُنَ بَيْنَ هَذِهِ الْقُوَى الْهَائِلَةِ الَّتِي
تَسْكُنُهُ.

وَكَانَتْ لَيْلَى هِيَ مَنْ كَسَرَ الصَّمْتَ هَذِهِ الْمَرَّةَ، لَيْسَ بِسُؤَالٍ، بَلْ
بِتَعْجُبٍ هَادِيٍّ. قَالَتْ:

«سُبْحَانَ اللَّهِ. أَشْعُرُ الْآنَ أَنَّنِي أَفْهَمُ نَفْسِي قَلِيلًا. لَكِنْ... كُلُّ هَذِهِ
الْأَدَوَاتِ الَّتِي وَصَفْتَهَا - الرُّوحُ، النَّفْسُ، الْقَلْبُ - هِيَ دَاخِلِيَّةٌ. كَيْفَ تَتَّصِلُ
بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ؟ مَا هِيَ التَّوَافُذُ الَّتِي تَطُلُّ مِنْهَا هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ الْبَاطِنِيَّةُ
عَلَى الْكَوْنِ لِيَتَعَقَّلَهُ؟ أَقْصِدُ، مَا هُوَ دَوْرُ مَا أَرَاهُ بِعَيْنِي وَمَا أَسْمَعُهُ بِأَذْنِي
فِي كُلِّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ، لِأَنَّ سُؤَالَهَا كَانَ هُوَ الْخُطْوَةُ الْمُنْطِقِيَّةَ التَّالِيَةَ فِي
الرَّحْلَةِ.

«بَوَابَتَانِ عَظِيمَتَانِ يَا لَيْلَى. وَلِكُلِّ بَوَابَةٍ مِنْهُمَا قِصَّةٌ. وَهَذِهِ هِيَ
قِصَّةُ مَجْلِسِنَا الْأَقَادِمِ.»

الْفَصْلُ 4: بَوَابَتَا الْمَعْرِفَةِ

كَانَتْ لَيْلَةٌ مُخْتَلِفَةٌ. اخْتَفَى فِيهَا صَوْتُ الْمَطَرِ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ صَفَاءٌ خَادٌّ فِي الْهَوَاءِ الشَّتَائِيِّ. مِنْ جَلَالِ النَّافِذَةِ الْكَبِيرَةِ، كَانَتْ الشُّجُومُ تَلْمَعُ بِوُضُوحٍ أَخَازٍ فِي سَمَاءٍ مُظْلِمَةٍ، وَكَانَتْهَا تُشَارِكُ فِي الْمَجْلِسِ بِضِيَائِهَا الصَّامِتِ. دَاخِلَ الْغُرْفَةِ، لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ ذَلِكَ التَّوَنُّدُ الْفِكْرِيُّ الْأَوَّلِيُّ، بَلْ حَلَّتْ مَحَلَّهُ خَالَةٌ مِنَ التَّرَقُّبِ الْعَمِيقِ، تَرَقُّبٌ مَنِ ادْرَكَ أَنَّ فِي رِحْلَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَجْلِسٍ يُزِيحُ سِتَارًا جَدِيدًا عَنْ خَرِيطَةِ الْوُجُودِ.

بَدَأَ الْإِمَامُ الْحَدِيثَ بِالْتَفَاتَةٍ مُبَاشِرَةٍ إِلَى لَيْلَى، الَّتِي كَانَتْ نَظَرَاتُهَا أَكْثَرَ هُدُوءًا وَثِقَةً هَذِهِ اللَّيْلَةَ. قَالَ:

«سَأَلْتُ يَا لَيْلَى فِي خِتَامِ لِقَائِنَا الْأَخِيرِ عَنِ النَّوَافِذِ وَالْأَبْوَابِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَتَّصِلُ مَنْظُومَتُنَا الدَّاخِلِيَّةُ - الرُّوحُ وَالنَّفْسُ وَالْقَلْبُ - بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ؟ سَأَلْتُكَ هَذَا هُوَ الْحِسْرُ الصَّرُورِيُّ، لِأَنَّهُ يُنْقِلُنَا مِنْ حَقِيقَةِ "الْكَائِنِ الْعَاقِلِ" إِلَى "عَمَلِيَّةِ التَّعَقُّلِ" نَفْسِهَا. فَلَا قِيَمَةَ لِقَاعَةٍ حَصِينَةٍ إِنْ كَانَتْ بِلَا أَبْوَابٍ تَصِلُهَا بِالْحَيَاةِ.»

لَمْ يَنْتَظِرْ مُعَاذَ طَوِيلًا، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمِنْطَقَةُ هِيَ أَرْضَهُ الْمُفَضَّلَةَ. قَالَ بِقُوَّةٍ وَوُضُوحٍ:

«شَيْخَنَا، أَخْبِرْنَا وَصَلْنَا إِلَى نُقْطَةِ الْبِدَايَةِ الْحَقِيقِيَّةِ. إِلَى الْأَرْضِ الصُّلْبَةِ. فَكُلُّ مَا نَاقَشْنَاهُ حَوْلَ "الْعَالَمِ الدَّاخِلِيِّ" يَبْقَى فِي دَائِرَةِ الظَّنِّ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ مَادِّيٌّ مَلْمُوسٌ. وَهَذَا الْأَصْلُ، كَمَا عَلَّمَنَا الْعِلْمُ الْحَدِيثُ، هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ: الْبَيِّنَاتُ الْحِسِّيَّةُ. كُلُّ مَعْرِفَةٍ بَشَرِيَّةٍ مُوْتَوِقَةٍ تَبْدَأُ وَتَنْتَهِي بِالْحَوَاسِّ. مَا نَرَاهُ، مَا نَسْمَعُهُ، مَا نَقِيسُهُ. هَذِهِ هِيَ الْبَوَابَاتُ الْوَحِيدَةُ لِلْمَعْرِفَةِ. أَمَّا مَا يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي "الْقَلْبِ" أَوْ "الرُّوحِ" فَهُوَ مُجَرَّدُ مُعَالَجَةٍ عَصَبِيَّةٍ لِهَذِهِ الْبَيِّنَاتِ الْأَوَّلِيَّةِ. فَالْأَصْلُ هُوَ الْحِسُّ.»

أَوَمَّا أَرِسْطُو بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا، لَكِنَّهُ أَضَافَ تَحْفُظًا فَلَسَفِيًّا:

«اتَّفَقُ مَعَ مُعَاذٍ فِي أَنَّ الْحَوَاسَّ هِيَ نُقْطَةُ الْبِدَايَةِ، وَهَذَا مَا قَالَ بِهِ أَرِسْطُو الْكَبِيرُ. لَكِنْ لَا يَجِبُ أَنْ نَتَّقِيَ بِهَا ثِقَةً عَمِيَاءَ، فَالْحَوَاسَّ كَثِيرًا مَا تَخْدَعُنَا. أَلْعَصَا تَظْهَرُ مَكْسُورَةً فِي الْمَاءِ، وَالشَّيْءُ الْبَعِيدُ يَبْدُو صَغِيرًا. لِذَلِكَ، تَأْتِي أَهَمِّيَّةُ "الْعَقْلِ الْمُجَرَّدِ" كَحَكَمٍ أَعْلَى، لِيُصَحِّحَ أَخْطَاءَ الْحَوَاسِّ وَيَسْتَخْلِصَ مِنْهَا الْقَوَائِينَ الْكُلِّيَّةَ. فَالْحِسُّ يُعْطِي الْمَادَّةَ الْحَامَ، وَالْعَقْلُ يَصْنَعُ مِنْهَا الْمَعْرِفَةَ الْأَطْمِئْنَانِيَّةَ.»

إِبْتَسَمَ الْإِمَامُ، فَقَدْ كَانَ الصَّرَاعُ الْقَدِيمَ بَيْنَ "التَّجْرِبِيِّينَ" وَ"الْعَقْلَانِيِّينَ" يَتَجَسَّدُ أَمَامَهُ فِي هَذَيْنِ الشَّابَّيْنِ. قَالَ:

«ظَرَحَانِ قَوِيَّانِ، وَكِلَاهُمَا يُمَسِّكُ بِظَرْفٍ مِنَ الْحَقِيقَةِ. لَكِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ لَا يَرَى الْمَسْأَلَةَ كَصَّرَاعٍ بَيْنَ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، بَلْ كَرَحْلَةٍ مُتَكَامِلَةٍ يَقُومُ بِهَا الْإِنْسَانُ بِكُلِّ كَيْانِهِ. الْقُرْآنُ لَا يَقُولُ لَكَ: "ثِقِ بِحَوَاسِّكَ فَقَطْ"، وَلَا يَقُولُ لَكَ: "إِحْذَرْ مِنْ حَوَاسِّكَ وَثِقِ بِعَقْلِكَ فَقَطْ". بَلْ يُقَدِّمُ لَنَا مَشْهَدًا مُخْتَلِفًا.»

«إِنَّهُ يَبْدَأُ مِنَ الْبِدَايَةِ الْأُولَى، مِنْ نُقْطَةِ الصَّغَرِ الْمُطْلَقِ. تَأَمَّلُوا

مَعِيَ هَذِهِ الْآيَةُ الْمُؤَسَّسَةُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ خَرِيطَةُ بَدَايَةِ الرِّحْلَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ. لِنُفَكِّهَا مَعًا.

«أَوَّلًا، ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾. هَذَا يَفْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى فِكْرَةٍ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُوَلِّدُ بِأَفْكَارٍ فِطْرِيَّةٍ كَامِلَةٍ. نَحْنُ نُخْلِقُ كَصَفْحَةٍ بَيَضَاءٍ مِنْ حَيْثُ الْمَعْلُومَاتُ. فَهَذَا يَتَّفِقُ مَعَكَ يَا مُعَاذٌ فِي أَنَّ التَّجَرِبَةَ هِيَ الْأَصْلُ.»

«ثَانِيًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾. فَعِلُ "الْجَعْلُ" هُنَا يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ نِتَاجٍ لِنَظَرٍ أَتِيٍّ أَعْمَى، بَلْ هِيَ "هَبَةٌ" مَقْصُودَةٌ، وَعَطَاءٌ كَرِيمٌ مِنْ خَالِقٍ أَرَادَ لَنَا أَنْ نَعْلَمَ. هَذَا يُضْفِي عَلَى الْحَوَاسِ بُعْدًا قُدْسِيًّا.»

«ثَالِثًا، يَذْكُرُ الْأَدَوَاتِ بِالتَّرْتِيبِ: ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾. وَهَذَا الثَّلَاوُثُ يَتَكَرَّرُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، كَمَا فِي سُورَةِ الْمُلِكِ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. هَذَا يُخْبِرُنَا أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْعِدَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ الَّتِي وَهَبَنَا اللَّهُ إِيَّاهَا لِنُبْجَرَ فِي عَالَمِ الْمَعْرِفَةِ.»

«وَرَابِعًا، وَهُوَ الْأَهَمُّ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. الْغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْهَبَاتِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ جَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ لِأَجْلِ الْبَقَاءِ، بَلْ هِيَ الْوُصُولُ إِلَى حَالَةٍ "الشُّكْرِ". وَمَا هُوَ الشُّكْرُ؟ الشُّكْرُ هُوَ مَعْرِفَةُ الْمُنْعِمِ وَاسْتِغْمَالُ النِّعْمَةِ فِيمَا خُلِقْتَ لِأَجْلِهِ. فَشُكْرُ السَّمْعِ أَنْ نَسْمَعَ بِهِ الْحَقَّ، وَشُكْرُ الْبَصَرِ أَنْ نُبْصِرَ بِهِ الْآيَاتِ، وَشُكْرُ الْفُؤَادِ أَنْ نَعْقِلَ بِهِ مَا نَسْمَعُ وَنُبْصِرُ.»

صَمَتَ الْإِمَامُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ:

«لِنَتَنَاوَلَ هَذِهِ الْبَوَابَ الْآنَ، بَوَابَةً بَوَابَةً. لِنَبْدَأْ بِـ "السَّمْعِ". لِمَاذَا يُقَدِّمُهُ الْقُرْآنُ غَالِبًا عَلَى الْبَصَرِ؟»

أَجَابَتْ زَيْنَبُ بِسُرْعَةٍ بِدِيهَةٍ:

«لِأَنَّ الْوَحْيَ كَانَ مَسْمُوعًا أَوَّلًا، شَيْخَنَا. كَانَ كَلَامًا يُنْثَى وَيُسْمَعُ قَبْلَ أَنْ يُكْتَبَ وَيُفْرَأَ. فَالسَّمْعُ هُوَ بَوَابَةٌ تَلْقَى الْخِطَابَ الْإِلَهِيَّ الْمُبَاشِرَ.»

«أَحْسَنْتِ يَا زَيْنَبُ!» قَالَ الْإِمَامُ.

«السَّمْعُ هُوَ أَوَّلُ بَابٍ لِنَلْقَى الْخِطَابَ وَالْوَحْيَ. إِنَّهُ الْحَاسَّةُ الَّتِي تَسْتَقْبِلُ "التَّبَيَّنَ" فِي صُورَتِهِ الصَّوْتِيَّةِ الْأُولَى. إِنَّهُ يُؤَسِّسُ لِلْتَعَقُّلِ اللَّغَوِيِّ. فَالْطِّفْلُ يَتَعَلَّمُ الْكَلَامَ بِالسَّمْعِ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْقِرَاءَةَ بِالْبَصَرِ. إِنَّهُ الْأَدَاةُ الَّتِي تَبْنِي فِي دَاخِلِنَا الْقُدْرَةَ عَلَى فَهْمِ اللُّغَةِ وَالْمَنْطِقِ الَّذِي تَحْمِلُهُ.»

أَصَافَ سَلْمَانُ الرُّوَائِيَّ:

«وَفِي الْكَلِمَةِ الْمَسْمُوعَةِ قُوَّةٌ لَا تُضَاهِيهَا الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَحْيَانًا. نَبْرَةُ الصَّوْتِ، وَقَفَاتُهُ، إِيقَاعُهُ... كُلُّهَا تَحْمِلُ مَعَانِيَ إِصَافِيَّةً. قَصِيدَةٌ تَسْمَعُهَا مِنْ شَاعِرِهَا تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ قِرَاءَتِهَا فِي دِيْوَانٍ. إِنَّهَا تُخَاطِبُ الْوُجْدَانَ مُبَاشَرَةً.»

«صَحِيحٌ. وَلِذَلِكَ كَانَتْ مُعْجَزَةُ الْقُرْآنِ الْأُولَى مُعْجَزَةً "مَسْمُوعَةً"، أَخَذَتْ بِالْبَابِ الْعَرَبِيِّ لَا بِمَعَانِيهَا فَقَطْ، بَلْ بِجَرَسِهَا وَإِيقَاعِهَا وَبَيَانِهَا الصَّوْتِيِّ.»

ثُمَّ وَاصَلَ الْإِمَامُ:

«أَمَّا الْبَوَابَةُ الثَّانِيَّةُ، فَهِيَ "الْبَصَرُ". إِذَا كَانَ السَّمْعُ هُوَ بَوَابَةُ الْوَحْيِ الْمَثَلُ، فَإِنَّ الْبَصَرَ هُوَ بَوَابَةُ الْوَحْيِ الْمَنْظُورِ، أَوْ مَا نُسَمِّيهِ "آيَاتِ الْكُونِ". الْبَصَرُ هُوَ أَدَاةُ الشُّهُودِ وَالْمَلَاخِظَةِ. إِنَّهُ يُمَيِّدُ التَّعَقُّلَ بِمَادَّةِ التَّفَكُّرِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَهِيَ الْكِتَابُ الْآخَرُ الَّذِي فَتَحَهُ اللَّهُ لَنَا لِنَقْرَأَهُ.»

«وَالْفُرْآنُ مَلِيءٌ بِالِدَّعَوَاتِ لِتَفْعِيلِ هَذِهِ الْبَوَابَةِ. وَلَعَلَّ أَقْوَاهَا هُوَ ذَلِكَ السُّؤَالُ الْإِسْتِنكَارِيُّ الْعَجِيبُ فِي سُورَةِ الْغَاشِيَةِ: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ.»

«دَعُونَا نَتَوَقَّفُ هُنَا. دَعُونَا نَطِيعُ الْأَمْرَ الْفُرْآنِيَّ وَ"نَنْظُرُ". مَاذَا تَرَوْنَ عِنْدَمَا "تَنْظُرُونَ" إِلَى الْإِبِلِ؟»

بَدَأَ مَعَاذٌ عَلَى الْفُورِ:

«أَرَى تَخَفَةً مِنَ التَّكْيِيفِ الطَّبِيعِيِّ. أَرَى خُفًّا مُفْلَطًا لِيَسِيرَ عَلَى الرَّمَالِ، وَرُمُوشًا طَوِيلَةً لِتَحْمِيَةِ عَيْنَيْهِ مِنَ الْعُبَارِ، وَسَنَامًا لِتَخْزِينِ الدُّهُونِ لِتَحْمَلِ الْعَطَشِ. أَرَى نِتَاجَ مَلَائِينَ السَّنِينَ مِنَ الْإِنْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي أَنْتَجَ كَائِنًا مُتَكَيِّفًا تَمَامًا مَعَ بَيْتِهِ الصَّخْرَاوِيَّةِ.»

قَالَ سَلْمَانُ:

«أَمَّا أَنَا فَأَرَى قِصَّةً. أَرَى زَفِيقَ الْبَدَوِيِّ فِي وَحْشَتِهِ، وَسَفِينَةَ الصَّخْرَاءِ الَّتِي حَمَلَتْ التَّجَارَةَ وَالْأَفْكَارَ غَيْرَ الْفِيَا فِي. أَرَى صَبْرًا مُتَجَسِّدًا فِي حَيَوَانٍ. أَرَى جَمَالًا خَشِنًا يَتَنَاعَمُ مَعَ خُسُونَةِ الْأَرْضِ.»

وَقَالَتْ لَيْلَى بِصَوْتٍ هَادِيٍّ:

«وَأَنَا أَرَى عَجَبًا. أَرَى قُدْرَةً هَائِلَةً فِي خَلْقٍ لَمْ أَصْنَعْهُ وَلَمْ أَفْهَمْ كَيْفَ يَعْمَلُ. يَجْعَلُنِي أَشْعُرُ بِصَغَرِ حَجْمِي وَبِعِظَمَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي أَوْجَدْتَهُ. يُؤَلِّدُ فِي قَلْبِي شُعُورًا بِالْخُشُوعِ.»

عَقَّبَ الْإِمَامُ:

«أَرَأَيْتُمْ؟ مُسَاهَدَةٌ بَصَرِيَّةٌ وَاجِدَةٌ، وَلَكِنَّهَا أُنْتَجَتْ ثَلَاثَ قِرَاءَاتٍ: قِرَاءَةٌ عِلْمِيَّةٌ (مُعَاذُ)، وَقِرَاءَةٌ أَدَبِيَّةٌ (سَلْمَانُ)، وَقِرَاءَةٌ إِيمَانِيَّةٌ (لَيْلَى). وَالْتَّعَقُّلُ الْقُرْآنِيُّ لَا يُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَخْتَارَ وَاجِدَةً، بَلْ يَدْعُوكَ لِتَجْمَعَهَا كُلَّهَا. أَنْ تَرَى الْإِبْدَاعَ الطَّبِيعِيَّ، وَتَسْتَشْعِرَ الْعُمُقَ الْقَصَصِيَّ، وَتَصِلَ مِنْ خِلَالِهِمَا إِلَى الْخُشُوعِ الْإِيمَانِيِّ. إِنَّهُ يَدْعُوكَ لِتَحَوَّلَ "الْبَصَرِ" - أَيِ رُؤْيَا الْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ - إِلَى "بَصِيرَةٍ"، أَيِ رُؤْيَا الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ.»

«وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ الدَّقِيقُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ الْمُخِيفَةِ: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا». هُنَا يُخْبِرُنَا أَنَّ الْمَشْكِلَةَ لَيْسَتْ فِي الْبَوَابَاتِ. فَالْأَعْيُنُ مَوْجُودَةٌ وَالْآذَانُ مَوْجُودَةٌ وَهِيَ تَعْمَلُ بِشَكْلِ سَلِيمٍ. لَكِنَّهَا تَدْخُلُ الصُّورَ وَالْأَصْوَاتَ إِلَى "قَلْبٍ" مَفْقَلٍ، فَلَا يَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ فِقْهٌ وَلَا بَصِيرَةٌ. هُنَا يَجْتَمِعُ طَرَحُكَ يَا مُعَاذُ وَطَرَحُكَ يَا أَرْسَطُو. فَالْحِسُّ وَحْدَهُ (كَمَا يَقُولُ مُعَاذُ) لَا يَكْفِي، وَالْعَقْلُ الْمُجَرَّدُ (كَمَا يَقُولُ أَرْسَطُو) لَا يَكْفِي. بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَفَاعُلِ الْحِسِّ الْخَارِجِيِّ مَعَ الْبَصِيرَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِتَتِمَّ عَمَلِيَّةُ الْإِدْرَاكِ الْحَقِيقِيِّ.»

«إِذَنْ،» قَالَ الْإِمَامُ مُلَخِّصًا، «مَا هِيَ الْعَلَاقَةُ؟ إِنَّ الْإِحْسَاسَ وَالتَّجَرِبَةَ - وَهِيَ الْمُخَصِّلَةُ الْمُشْتَرَكَةُ لِكُلِّ مَا يَدْخُلُ عَبْرَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ - هِيَ الْمَادَّةُ الْخَامَّةُ الْأَوَّلِيَّةُ لِكُلِّ وَعْيٍ. ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ "الْتَّعَقُّلِ" لِيَأْخُذَ هَذِهِ

الْمَادَّةُ الْخَامَ فَيَحَوِّلَهَا مِنْ مُجَرَّدِ تَجَرِبَةٍ شَخْصِيَّةٍ إِلَى "حُكْمٍ" وَ"قِيَمَةٍ" وَ"مِيزَانٍ" يُمَكِّنُ الْبِنَاءَ عَلَيْهِ.

وَضَعَ الْإِمَامُ كُلَّ الْأَفْكَارِ فِي قَالِبِ الْقَاعِدَةِ الرَّابِعَةِ فَقَالَ:

«الْتَّعَقُّلُ فِي الْقُرْآنِ يَبْنِي أُسَاسَهُ عَلَى السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، فَيُحَوِّلُ الْإِحْسَاسَ إِلَى تَجَرِبَةٍ، وَالتَّجَرِبَةَ إِلَى وَعْيٍ، وَالْوَعْيَ إِلَى مِيزَانٍ وَحُكْمٍ. فَهُوَ لَا يُلْغِي الْحِسَّ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الْفَلَسِيفَةِ، بَلْ يَرْفِيهِ وَيَرْفَعُهُ مِنْ مُجَرَّدِ أَنْطِبَاعٍ غَارِضٍ إِلَى سُلَمٍ نَصْعَدُ بِهِ نَحْوَ الْحَقِيقَةِ وَالْقِيَمَةِ.»

سَادَ الصَّمْتُ لَحَظَاتٍ، وَكَانَ الْجَمِيعُ يَتَأَمَّلُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْعَجَبِيَّةِ لِلْمَعْلُومَةِ، مِنْ مُجَرَّدِ صَوْتٍ أَوْ صُورَةٍ، حَتَّى تَصِيرَ حِكْمَةً فِي الْقَلْبِ.

ثُمَّ كَانَتْ زَيْنَبُ الْفَقِيهَةِ، بِدَقِّقَتِهَا الْمَعْهُودَةِ، هِيَ مَنْ فَتَحَ بَوَابَةَ الْمَجْلِسِ الْقَادِمِ. قَالَتْ:

«شَيْخَنَا، شَرَحَكَ كَانَ وَافِيًا. لَكِنْ بَقِيَتْ نُقْطَةٌ تُحَيِّرُنِي. إِنَّ الْأَيَّاتِ الْمُؤَسَّسَةَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، مِنْ سُورَةِ النُّحْلِ وَسُورَةِ الْمُلْكِ، تُقَدَّمُ دَائِمًا ثَلَاثِيًّا مُتَرَابِعًا: «السَّمْعُ وَالْأَبْصَرُ وَالْأَفْئِدَةُ». لَقَدْ تَحَدَّثْنَا بِأُسْتِفَاضَةٍ عَنِ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ كَبَوَائِبَيْنِ لِلْحِسِّ. فَمَا هِيَ هَذِهِ "الْأَفْئِدَةُ" الَّتِي تَأْتِي بَعْدَهُمَا مُبَاشَرَةً؟ أَهِيَ نَفْسُهَا "الْقُلُوبُ" الَّتِي تَحَدَّثْنَا عَنْهَا فِي الْمَجْلِسِ السَّابِقِ، أَمْ هِيَ مَلَكَةٌ أُخْرَى، وَمَرَحَلَةٌ جَدِيدَةٌ فِي رِحْلَةِ الْإِدْرَاكِ؟»

اِبْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً. فَقَدْ وَضَعَتْ زَيْنَبُ يَدَهَا عَلَى الْحَلَقَةِ التَّالِيَةِ فِي السَّلْسِلَةِ بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ.

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتُ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

«سُؤَالُكَ هُوَ الْجِسْرُ الذَّهَبِيُّ إِلَى مَحَطَّتِنَا الْقَادِمَةِ يَا زَيْنَبُ. فَبَعْدَ أَنْ تَدْخُلَ الْمَعْلُومَاتُ عِبْرَ بَوَابَتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، أَيْنَ تَذْهَبُ لِتُطْبِخَ وَتَنْصُجَ؟ إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى "الْفُؤَادِ". وَمَا قِصَّةُ الْأَفِيدَةِ... فَتِلْكَ قِصَّةُ أُخْرَى.»

الْفَصْلُ 5: مَطْبَخُ الْمَعْنَى

كَانَ الْجَوْ دَاخِلَ الْمَجْلِسِ قَدْ بَلَغَ دَرَجَةً مِنَ التَّرْكِيزِ لَمْ يَبْلُغَهَا مِنْ قَبْلُ. انْتَهَى الشَّيْءُ مِنَ الْأَكْوَابِ، وَانْقَطَعَتِ الْأَصْوَاتُ الْخَارِجِيَّةُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نُورُ الْمَصَابِيحِ الَّذِي يَغْمُرُ الْوُجُوهَ الْمُتَمَامِلَةَ، وَصَوْتُ الْإِمَامِ الَّذِي أَصْبَحَ كَأَنَّهُ الْخَيْطُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَرْبِطُهُمْ بِالْوَاقِعِ. كَانَ سُؤَالُ زَيْنَبَ الْأَخِيرُ لَا يَزَالُ مُعَلَّقًا فِي الْهَوَاءِ، خَادًا وَدَقِيقًا كَنَصْلِ جِرَاحٍ: مَا هِيَ "الْأَفِيدَةُ"؟ وَمَا عِلَاقَتُهَا بِ"الْقَلْبِ"؟

أَخَذَ الْإِمَامُ نَفْسًا عَمِيقًا، وَقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ ابْتِسَامَةٌ خَفِيفَةٌ تَنُمُّ عَنْ إِعْجَابِهِ بِدِقَّةِ السُّؤَالِ. قَالَ:

«سُؤَالُكَ يَا زَيْنَبُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ لَا تَقْنَعِينَ بِالصُّورَةِ الْعَامَّةِ، بَلْ تَبْحَثِينَ عَنِ التَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ لِلْخَرِيطَةِ. وَهَذَا صَبْرٌ وَرِيٌّ. فَقَبْلِ أَنْ نَصِلَ إِلَى "عُرْفَةِ الْقِيَادَةِ" الْعُلْيَا وَ"قَصْرِ الْمَلِكِ" وَهُوَ "الْقَلْبُ"، فَإِنَّ الْمَعْلُومَاتِ الْآتِيَةَ مِنْ بَوَاتِنِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لَا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ أَوَّلًا عَبْرَ حُجَرَاتٍ أُخْرَى، حُجَرَاتٍ حَيَوِيَّةٍ يَتِمُّ فِيهَا طَبْخُ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ الْخَامِ وَتَحْوِيلُهَا إِلَى شَيْءٍ ذِي طَعْمٍ وَلَوْنٍ وَرَائِحَةٍ. هَذِهِ الْحُجَرَاتُ، هَذَا "الْمَطْبَخُ الْعَظِيمُ" لِمَعْنَى، هُوَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ بِلَفْظِ "الْأَفِيدَةِ"، وَمُفَرَّدُهَا "الْفَوَادُ".»

قَاطَعَهُ مُعَادٌ عَلَى الْفَوْرِ، وَكَأَنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ هَذِهِ اللَّحْظَةَ. قَالَ:

«شَيْخَنَا الْجَلِيلَ، هُنَا تَكْمُنُ أَحَدُ أَكْبَرِ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي أَوَاجِهُهَا فِي هَذَا النِّقَاشِ. أَنْتَ تُصِيفُ مُكُونًا جَدِيدًا إِلَى "الصُّنْدُوقِ الْأَسْوَدِ" لِلْوَعْيِ الْبَشَرِيِّ. نَحْنُ نَعْلَمُ الْيَوْمَ، بِدَقِّةٍ غَالِيَةٍ، مَا يَحْدُثُ فِي الدِّمَاغِ. نَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ الْحِسِّيَّةِ تُعَالَجُ فِي الْقَشْرَةِ الْمُخَيَّةِ، ثُمَّ تُرْسَلُ إِشَارَاتٌ إِلَى النِّظَامِ الْخَوَفِيِّ (Limbic System)، خُصُوصًا الْلُوزَةُ الدِّمَاغِيَّةِ (Amygdala)، لِتَوْلِيدِ أُسْتِجَابَةٍ عَاطِفِيَّةٍ: خَوْفٍ، أَوْ فَرَحٍ، أَوْ غَضَبٍ. هَذِهِ عَمَلِيَّةٌ كَهَرُوكِيمِيَايَّةٌ مَرْصُودَةٌ. فَهَلِ "الْفُؤَادُ" الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ هُوَ مُجَرَّدُ اسْمٍ شِعْرِيٍّ قَدِيمٍ لِهَذَا النِّظَامِ الْعَصَبِيِّ؟»

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى مُعَاذٍ بِاهْتِمَامٍ وَقَالَ:

«وَصُفِّكَ لِلْإِلَهِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ دَقِيقٌ وَصَحِيحٌ عَلَى مُسْتَوَاهُ يَا مُعَاذُ. وَلَكِنَّكَ تَصِفُ إِلَهَةَ الْعَرْفِ، وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَعْنَى الْكَامِنِ فِي اللَّحْنِ الْمَعْرُوفِ. أَنْتَ تَصِفُ حَرَكَةَ الْأَفْلَامِ وَالْجَبْرِ، وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنِ الشَّعْرِ الْمَكْتُوبِ. إِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ لَا يَهْتَمُّ بِتَشْرِيحِ الْأَلَةِ، بَلْ يَتَوَجَّهُ مُسْتَعْمِلِ الْأَلَةِ. "الْفُؤَادُ" لَيْسَ مُجَرَّدَ اسْمٍ لِعَضْوٍ أَوْ نِظَامٍ، بَلْ هُوَ اسْمٌ لـ "وَضِيفَةٍ" وَجُودِيَّةٍ عُلْيَا، وَضِيفَةٌ هِيَ أَحْصَى خَصَائِصَ الْإِنْسَانِ: إِنَّهَا وَضِيفَةٌ تَحْوِيلِ الْإِذْرَاكِ الْحِسِّيِّ الْخَامِ إِلَى شُعُورٍ ذِي قِيَمَةٍ وَمَعْنَى.»

«لِنَأْخُذْ مِثَالَكَ يَا مُعَاذُ. الْقَشْرَةُ الْبَصَرِيَّةُ تَرَى "أَسَدًا". هَذَا إِذْرَاكٌ حِسِّيٌّ، بَيِّنَاتٌ خَامٌ (الْوَانُ، أَشْكَالٌ، حَرَكَةٌ). يَقُومُ "الْفُؤَادُ" بِأَخْذِ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ وَيَصْرُخُ فَجَاءَةً: "خَطَرٌ!". هَذِهِ الصَّرْخَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَحْلِيلٍ، بَلْ هِيَ شُعُورٌ جَارِفٌ يُسَمَّى "الْخَوْفُ". وَبَعْدَهَا بِأَجْزَاءٍ مِنَ الثَّانِيَةِ، قَدْ يَسْمَعُ سَمْعَكَ آيَةً سَكِينَةً، فَيَتَلَقَّاها الْفُؤَادُ فَيُولَدُ شُعُورًا مُضَادًّا يُسَمَّى "الرَّجَاءُ". فَالْفُؤَادُ هُوَ "مَطْبِخُ الْمَعْنَى" الَّذِي يُحَوِّلُ مُعْطَيَاتِ الْعَالَمِ الْبَارِدَةِ إِلَى تَجَارِبٍ حَيَّةٍ وَدَافِئَةٍ.»

«وَأَعْجَبَ مَا فِي الْأَمْرِ» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «هُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ يَصِفُ الْفُؤَادَ بِأَنَّهُ أَدَاةُ "رُؤْيَةٍ" أَيْضًا، وَلَكِنَّهَا رُؤْيَةٌ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ. فِي سُورَةِ النَّجْمِ، فِي وَصْفِ أَعْظَمِ تَجَرِيَةِ بَصَرِيَّةٍ مُمَكِّنَةٍ، يَقُولُ الْحَقُّ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾، هَذِهِ رُؤْيَةٌ الْعَيْنِ. ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَهَا بِآيَاتٍ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾. يَا لِلْعَجَبِ! الْفُؤَادُ "رَأَى"! وَرُؤْيَتُهُ كَانَتْ صَادِقَةً غَيْرَ كَاذِبَةٍ. هَذِهِ لَيْسَتْ رُؤْيَةٌ بَصَرِيَّةً، بَلْ هِيَ شُهُودٌ بَاطِنِيٌّ، مُعَايَنَةٌ وَجْدَانِيَّةٌ تَصِلُ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْأَظْمِئْنَانِ تَفُوقُ أَظْمِئْنَانَ الْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ.»

قَالَ أَرِسْطُو بِاهْتِمَامٍ:

«هَذَا مَا يُسَمِّيهِ بَعْضُ الْفَلَسَفَةِ "الْحَدْسَ الْعَقْلِيَّ" (Intellectual Intuition). الْفُؤَادَةُ عَلَى إِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ الْأَوَّلِيَّةِ مُبَاشَرَةً دُونَ وَسَاطَةِ الْحِسِّ أَوْ الْأَسْتِدْلَالِ.»

رَدَّ الْإِمَامُ:

«قَدْ يَتَقَاطَعُ مَعَهُ فِي الشَّكْلِ، وَلَكِنَّهُ يَخْتَلِفُ فِي الْجَوْهَرِ. فَالْحَدْسُ الْعَقْلِيُّ لَدَيْهِمْ فِعْلٌ ذَهْنِيٌّ مُجَرَّدٌ، أَمَّا "رُؤْيَةُ الْفُؤَادِ" فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ تَجَرِبَةٌ كَيَانِيَّةٌ شَامِلَةٌ، يَشْتَرِكُ فِيهَا الْوُجْدَانُ وَالْأَظْمِئْنَانُ وَالشُّهُودُ. إِنَّهَا اللَّحْظَةُ الَّتِي تَتَطَابَقُ فِيهَا الْحَقِيقَةُ الْخَارِجِيَّةُ مَعَ الْإِدْرَاكِ الدَّاخِلِيِّ فَيَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ أَظْمِئْنَانٌ لَا يَتَرَعَّرُ.»

«وَلَكِنْ،» أَسْتَطَرَدَّ الْإِمَامُ، «هَذَا الْفُؤَادُ، هَذَا الْمَرْكَزُ الْعَجِيبُ لِتَوَلِيدِ الْمَشَاعِرِ، هُوَ سِلَاحٌ ذُو حَدَّيْنِ. فَهُوَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ "مَدَدًا" لِلتَّعَقُّلِ، وَيُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ "عَايِقًا" كَادَاءً. فَالْفُؤَادُ إِذَا تَرَكَ لِأَهْوَاءِ "النَّفْسِ" الْأَمَّارَةِ، فَإِنَّهُ يُصْبِحُ مَصْنَعًا لِلْمَشَاعِرِ الْمَدْمَرَةِ: الْحَسَدِ وَالْكَبْرِ وَالْحَقْدِ وَالْيَأْسِ. وَهَذِهِ الْمَشَاعِرُ تُصْبِحُ كَالْغَبَارِ الْكَثِيفِ عَلَى مِرَاةِ التَّعَقُّلِ، فَتُغْمِيهِ عَنْ

الرُّؤْيَا الصَّحِيحَةَ. وَأَمَّا إِذَا اتَّصَلَ الْفُؤَادُ بِنُورِ "الرُّوحِ" وَتَرَكَى بِنَهْذِيبِ
النَّفْسِ، فَإِنَّهُ يُصْبِحُ مَصْدَرًا لِلْمَشَاعِرِ الْبَنَاءَةِ: الْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ وَالْخَشْيَةِ
وَالطَّمَأْنِينَةِ. وَهَذِهِ الْمَشَاعِرُ هِيَ الَّتِي تَصْفُلُ مِرَاةَ التَّعَقُّلِ وَتَجْعَلُهَا أَشَدَّ
صَفَاءً وَقُدْرَةً عَلَى الْإِبْصَارِ.»

«وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى الْوُضُوعِ الْأَعْلَى لِلْفُؤَادِ، قَالَ الْإِمَامُ، «وَهِيَ أَنَّهُ
مَصْنَعٌ "الْقِيَمِ". فَالْمَشَاعِرُ إِذَا تَكَرَّرَتْ وَاسْتَقَرَّتْ وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ غَايَةٍ
مُحَدَّدَةٍ، فَإِنَّهَا تَتَحَوَّلُ مِنْ مُجَرَّدِ أَنْفِعَالٍ عَارِضَةٍ إِلَى "مَقَامَاتٍ" رَاسِخَةٍ
فِي الْكَيَانِ. هَذِهِ الْمَقَامَاتُ هِيَ الْقِيَمُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي تَحْكُمُ حَيَاتِنَا.»

«فَمَثَلًا، الْقُرْآنُ يَدْعُو الْفُؤَادَ لِيَسْتَضِيفَ مَقَامَ "الرَّجَاءِ" فِي رَحْمَةِ
اللَّهِ، وَمَقَامَ "الْخَوْفِ" مِنْ عَذَابِهِ وَجَلَالِهِ. وَيَدْعُوهُ لِيَسْتَضِيفَ مَقَامَ
"الْمَحَبَّةِ" لَهُ وَلِخَلْقِهِ. وَيَدْعُوهُ لِيَصِلَ إِلَى مَقَامِ "الرِّضَا" بِقَدَرِهِ. هَذِهِ
الْمَشَاعِرُ الْكُبْرَى - الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ وَالْمَحَبَّةُ وَالرِّضَا - هِيَ الَّتِي تُشَكِّلُ
"الْبَنِيَّةَ الْقِيَمِيَّةَ" الَّتِي سَيَعْمَلُ التَّعَقُّلُ دَاخِلَهَا. إِنَّهَا تُحَدِّدُ لَهُ "الْإِتِّجَاهَ"
وَالْمَعْنَى.»

«وَهُنَا نَرَى الْفَرْقَ الشَّاسِعَ بَيْنَ الْمَنْهَجَيْنِ. فَالتَّعَقُّلُ يَلَا فُؤَادٍ يُصْبِحُ
بَارِدًا، مُجَرَّدَ أَدَاةٍ لِحَلِّ الْمَشْكِلاتِ التَّقْنِيَّةِ، كَمَا قُلْنَا. قَدْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْنِيَ
قُنْبَلَةً ذَرِّيَّةً بِكِفَاءَةٍ مُطْلَقَةٍ، لَكِنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ طَرْحِ سُؤَالٍ: "هَلْ يَحِبُّ عَلَيَّ أَنْ
أُبْنِيَهَا أَصْلًا؟". هَذَا السُّؤَالُ لَيْسَ سُؤَالًا ذَهْنِيًّا، بَلْ هُوَ سُؤَالٌ قِيَمِيٌّ مَكَانُهُ
الْفُؤَادُ.»

«وَبِالْمُقَابِلِ، فَالْفُؤَادُ يَلَا تَعَقُّلٍ يَصِيرُ هَوًى مُنْفِلًا. الْحُبُّ الْجَمِيلُ
يَتَحَوَّلُ إِلَى غَيْرَةٍ قَاتِلَةٍ، وَالْخَوْفُ الْمُنْجِي يَتَحَوَّلُ إِلَى جُبْنٍ مُقْعِدٍ، وَالرَّجَاءُ
الْمُحَفِّزُ يَتَحَوَّلُ إِلَى تَوَكُّلٍ سَلْبِيٍّ. يَأْتِي التَّعَقُّلُ هُنَا لِيَضْبِطَ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ

وَيَضَعَهَا فِي مِيزَانِهَا الصَّحِيحَ.»

«وَأَعْظَمُ مِثَالٍ لِهَذَا التَّرَكُّبِ الْعَجِيبِ هُوَ أَبُونَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. تَأَمَّلُوا مَشْهَدَيْنِ مِنْ حَيَاتِهِ. الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمْتُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي». هُنَا "تَعَقُّلُهُ" يَبْحَثُ عَنِ الْبَرْهَانِ الْمَادِّيِّ، وَلَكِنْ لِأَيِّ غَايَةٍ؟ لَيْسَ لِإِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، بَلْ "لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي". الْغَايَةُ هِيَ وَصُولُ "الْفُؤَادِ" إِلَى أَعْلَى مَقَامَاتِ الطَّمَأِينَةِ. الْعَقْلُ يَخْدُمُ الْفُؤَادَ. وَفِي الْمَشْهَدِ الثَّانِي، مَشْهَدُ الذَّبْحِ، فَإِنَّ "فُؤَادَهُ" الْمَلِيَّ بِالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا هُوَ الَّذِي جَعَلَ "تَعَقُّلَهُ" يَقْبَلُ أَمْرًا يَفُوقُ كُلَّ مَنْطِقٍ أَرْضِيٍّ. الْفُؤَادُ يَخْدُمُ الْعَقْلَ. إِنَّهُ تَوَازَنٌ مُذْهِلٌ.»

جَمَعَ الْإِمَامُ كُلَّ خِيُوطِ النِّقَاشِ وَقَدَّمَ الْخُلَاصَةَ الْقَاعِدِيَّةَ الْخَامِسَةَ:

«الْفُؤَادُ فِي الْقُرْآنِ هُوَ الْمَرْكَزُ الَّذِي يُحَوِّلُ الْإِذْرَاكَ إِلَى مَشَاعِرَ، وَيُحَوِّلُ الْمَشَاعِرَ إِلَى قِيَمٍ، فَيَصِيرُ التَّعَقُّلُ فِعْلًا حَيًّا يُوجِّهُ الْحَيَاةَ نَحْوَ الْحَقِّ. وَمَنْ فَقَدَ الْفُؤَادَ فَقَدَ بُوصْلَةَ التَّعَقُّلِ وَمِيزَانَهُ.»

سَادَ الصَّمْتُ. كَانَ الْجَمِيعُ يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَوْعِبَ هَذِهِ الْكَيْمِيَاءَ الْعَجِيبَةَ الَّتِي تَحْدُثُ فِي دَوَاحِلِهِمْ، كَيْفَ يَتَحَوَّلُ شِعَاعُ ضَوْءٍ إِلَى فِكْرَةٍ، ثُمَّ إِلَى شُعُورٍ، ثُمَّ إِلَى قَرَارٍ يُعَيِّرُ مَصِيرَ حَيَاةٍ.

كَانَتْ زَيْنَبُ هِيَ الَّتِي تَكَلَّمَتْ أَحْيَرًا، وَكَانَتْهَا تُكْمِلُ سُؤَالَهَا الْأَوَّلَ:

«شَيْخَنَا، شَرْحُكَ لِيُوظِيفَةَ "الْأَفْئِدَةِ" كَمَطْبَخٍ لِلْمَعْنَى وَمَصْنَعٍ لِلْقِيَمِ كَانَ مُبِيرًا. لَكِنْ هَذَا يَجْعَلُ سُؤَالِي الْأَوَّلَ أَكْثَرَ إلْحَاحًا. إِذَا كَانَتِ الْأَفْئِدَةُ بِهَذِهِ الْأَهَمِّيَّةِ الْحَيَوِيَّةِ، فَمَا هُوَ دَوْرُ "الْقَلْبِ" إِذَنْ؟ قُلْتُ فِي مَجْلِسِ سَابِقٍ

إِنَّهُ "الْفَارِسِيُّ" وَ"الْقَائِدُ". وَقُلْتُ إِنَّ الْأَقْفَالَ الْحَقِيقِيَّةَ تُوَضِّعُ "عَلَى قُلُوبٍ".
فَكَيْفَ نَوْفَقِي بَيْنَ مَرْكَزِيَّةِ الْفُؤَادِ فِي صِنَاعَةِ الشُّعُورِ وَالْقِيَمِ، وَمَرْكَزِيَّةِ
الْقَلْبِ فِي الْفِقْهِ وَالتَّدْبِيرِ؟ هَلْ هُمَا وَجْهَانِ لِعُمَلَةٍ وَاحِدَةٍ، أَمْ أَنَّ الْعَلَاقَةَ
بَيْنَهُمَا أَعْقَدُ مِنْ ذَلِكَ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

«أَعْقَدُ وَأَجْمَلُ يَا زَيْنَبُ. فَلَئِنْ مَمْلَكَةٍ وَرَشُ عَمَلٍ وَقَصْرٌ لِلْحُكْمِ.
وَقَدْ تَجَوَّلْنَا اللَّيْلَةَ فِي الْوَرَشِ... أَمَّا الْقَصْرُ، فَحَدِيثُهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَجْلِسٍ
كَامِلٍ.»

الْفَصْلُ 6: قَصْرُ الْمَلِكِ

كَانَ الصَّمْتُ الَّذِي أَغْقَبَ سُؤَالَ زَيْنَبَ مُخْتَلِفًا. لَمْ يَكُنْ صَمْتُ التَّأَمُّلِ الْهَادِي، بَلْ صَمْتُاً مُشْبِعًا بِالتَّرَقُّبِ الشَّدِيدِ، كَاللَّحْظَةِ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا الْمَرْءُ أَمَامَ بَابٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ سَمِعَ لِتَوَّهِ أَنْ خَلْفَهُ يَسْكُنُ الْمَلِكُ. لَقَدْ تَجَوَّلُوا فِي الْفُصُولِ الْمَاضِيَةِ فِي الْأَرَاضِي الْوَاسِعَةِ لِلْكِتَابِ الْبَشَرِيِّ، وَزَارُوا "مَطْبَخَ الْمَعْنَى" فِي "الْأَفْئِدَةِ". وَالْآنَ، وَصَلُوا إِلَى الْبَوَابَةِ الْأَخِيرَةِ، بَوَابَةِ "الْقَلْبِ".

أَخَذَ الْإِمَامُ نَفْسًا عَمِيقًا، وَنَظَرَ إِلَى طَلَابِهِ وَاجِدًا وَاجِدًا، وَكَأَنَّهُ يَتَأَكَّدُ مِنْ أَنَّهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِلدُّخُولِ. قَالَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ لِكِنَّةٍ نَافِذٍ:

«سُؤَالُكَ دَقِيقٌ وَصَرُورِيٌّ يَا زَيْنَبُ. لَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ "الْأَفْئِدَةِ" كَوَرِيشٍ وَمَصَانِعَ، حَيْثُ تُطَبِّخُ الْإِحْسَاسَاتِ الْخَامُ وَتُصْهَرُ لِتُصْبِحَ مَشَاعِرَ وَقِيمًا. إِنَّهَا مَقَرُّ الْحَرَارَةِ وَالتَّقَلُّبِ وَالْغَلَيَانِ. أَمَّا الْآنَ، فَنَحْنُ نَنْتَقِلُ مِنْ هَذِهِ الْوَرِيشِ الْمَلِيشَةِ بِالْحَيَاةِ وَالْحَرَكَةِ إِلَى "قَصْرِ الْمَلِكِ"، إِلَى "عُرْفَةِ الْعَرْشِ" الْهَادِيَةِ وَالْمَهِيْبَةِ، حَيْثُ تَتَّخِذُ الْقَرَارَاتِ النِّهَائِيَّةَ وَتُصَدِّرُ الْأَحْكَامَ الْفَاصِلَةَ. هَذَا الْقَصْرُ هُوَ "الْقَلْبُ".»

بِالْكَادِ كَانَ الْإِمَامُ قَدْ أَتَمَّ جُمْلَتَهُ حَتَّى جَاءَ صَوْتُ مُعَاذٍ، لَيْسَ خَادًا هَذِهِ الْمَرَّةَ، بَلْ يَحْمِلُ نَبْرَةَ الْخَيْرَةِ الْفِعْلِيَّةِ:

«شَيْخَنَا، كُلَّمَا تَقَدَّمْنَا أَشْعُرُ أَنَّ الْمَجَارَ يَزْدَادُ كَثَافَةً. أَنَا أَفْهَمُ أَنَّ كَلِمَةَ "الْقَلْبُ" فِي الْأَدَبِ تَرْمِزُ إِلَى الْعَوَاطِفِ. لَكِنَّا هُنَا فِي سِيَاقِ بَحْثٍ عَنِ "الْمَعْرِفَةِ" وَ"الْتَّعَقُّلِ". وَالْقَلْبُ، كَمَا نَعْلَمُهُ فِي الْوَاقِعِ، هُوَ عُضْلَةٌ تَضَحُّ الدَّمِ. لَيْسَ لَهُ وَظِيفَةٌ إِدْرَاكِيَّةٌ وَاحِدَةٌ. كُلُّ الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي تَنْسِبُهَا إِلَيْهِ - الَّتَدَبُّرُ، الْفَهْمُ، الْإِيمَانُ - تَحْدُثُ فِي الدِّمَاغِ. فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَوْضَحَ لَنَا، بَعِيدًا عَنِ الْمَجَارِ، مَا هُوَ الْقَلْبُ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ؟»

أَوْمًا الْإِمَامُ بِرَأْسِهِ يَبْطِءُ.

«سُؤَالُكَ فِي مَحَلِّهِ يَا مُعَاذُ، وَهُوَ يَلْمِسُ أَحَدَ أَكْبَرِ الْفُرُوقِ بَيْنَ نَظَرَةِ الْعَالَمِ الْحَدَاثِيِّ وَنَظَرَةِ الْقُرْآنِ لِلْإِنْسَانِ. أَنْتِ تَنْطَلِقُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ تَقُولُ: "الْوَعْيُ هُوَ نِتَاجٌ لِلدِّمَاغِ". وَهِيَ فَرَضِيَّةٌ لَهَا وَجَاهَتُهَا فِي الْعِلْمِ الْمَادِّيِّ. أَمَّا الْقُرْآنُ فَيَنْطَلِقُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ أُخْرَى: "الْوَعْيُ يَسْرِي فِي الْكَيَانِ الْبَشَرِيِّ كُلِّهِ، وَلِكُلِّ عَضْوٍ بَاطِنِيٍّ وَظِيفَتُهُ الْخَاصَّةُ فِي هَذَا الْوَعْيِ". فَكَمَا أَنَّ لِلْجَسَدِ أَعْضَاءً، فَإِنَّ لِلْوَعْيِ أَعْضَاءً.»

«وَالْقَلْبُ» فِي هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ اسْمٍ آخَرَ لِلْعَاطِفَةِ. بَلْ هُوَ "مَرْكَزُ الْوَعْيِ الْمَرْكَبِ". هُوَ النِّقْطَةُ الَّتِي تَلْتَقِي فِيهَا كُلُّ الْخُيُوطِ: بَيِّنَاتُ الْخَوَاسِ، وَمِشَاعِرُ الْفُؤَادِ، وَإِلْهَامَاتُ الرُّوحِ، وَوَسَاوِسُ النَّفْسِ، وَتَحْلِيلَاتُ الدَّهْنِ. كُلُّ هَذِهِ تَتَجَمَّعُ فِي سَاحَةِ الْقَلْبِ، وَفِيهِ يَتِمُّ الْفَقْهُ النَّهَايِيُّ وَالْقَرَارُ الْحَاسِمُ.»

«لِذَلِكَ،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «يَرْبِطُ الْقُرْآنُ أَعْلَى عَمَلِيَّةِ إِدْرَاكِيَّةٍ - وَهِيَ "الَّتَدَبُّرُ" - بِالْقَلْبِ حَضْرًا. تَأَمَّلُوا مَعِيَ مَرَّةً أُخْرَى هَذِهِ الْآيَةَ الْهَائِلَةَ مِنْ سُورَةِ مُحَمَّدٍ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. إِنَّهَا لَا تَقُولُ "أَمْ عَلَى عُقُولٍ أَقْفَالُهَا" أَوْ "أَمْ عَلَى أَذْهَانٍ أَقْفَالُهَا". لِمَاذَا؟ لِأَنَّ "الَّتَدَبُّرَ"

أَكْبَرُ مِنْ مُجَرَّدِ التَّفَكِيرِ.»

سَأَلَ خَالِدٌ:

«مَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا يَا شَيْخَنَا؟»

«التَّفَكِيرُ قَدْ يَكُونُ تَحْلِيلًا لِلْجُزْئِيَّاتِ. أَنْ تَنْظُرَ فِي كَلِمَةٍ وَتَبْحَثَ عَنْ أَصْلِهَا اللَّغَوِيِّ. هَذَا تَفَكِيرٌ. أَمَّا "التَّدَبُّرُ" فَهُوَ مُسْتَقَى مِنْ "دُبُرِ الْأَمْرِ"، أَيْ عَاقِبَتِهِ وَنَهَائِيَّتِهِ وَمَا وَرَاءَهُ. التَّدَبُّرُ هُوَ أَنْ تَأْخُذَ آيَةً وَتَقْلِبَهَا عَلَى كُلِّ وُجُوهِهَا، وَتَنْظُرَ لَا فِي مَعْنَاهَا الظَّاهِرِ فَقَطْ، بَلْ فِي عِلَاقَتِهَا بِالْآيَاتِ الْأُخْرَى، وَعِلَاقَتِهَا بِحَيَاتِكَ أَنْتَ، وَعِلَاقَتِهَا بِسُنَنِ اللَّهِ فِي الْكُونِ، وَعِلَاقَتِهَا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى. إِنَّهَا مُحَاوَلَةٌ لِإِدْرَاكِ الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ، لَا تَشْرِيحِ الْجُزْءِ. هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ السُّمُولِيَّةُ الْعَمِيقَةُ لَا تَقْوَى عَلَيْهَا أَدَاةُ الدَّهْنِ الْمَجَرَّدَةُ وَحْدَهَا، بَلْ تَحْتَاجُ إِلَى "قَلْبٍ" حَيٍّ وَمُتَفَتِّحٍ.»

«وَهُنَا نَصِلُ إِلَى فِكْرَةِ "الْأَقْفَالِ". مَا هِيَ أَقْفَالُ الْقُلُوبِ؟»

قَالَ أَرِسْطُو بِسُرْعَةٍ:

«هِيَ الْمَغَالَطَاتُ الْمَنْطِيقِيَّةُ. أَنْ يَبْنِيَ الْمَرْءُ اسْتِدْلَالَهُ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ فَاسِدَةٍ.»

وَقَالَ مُعَاذٌ:

«هِيَ التَّحَيُّزَاتُ الْإِدْرَاكِيَّةُ (Cognitive Biases). مِثْلُ التَّلَحُّيزِ التَّأْكِيدِيِّ الَّذِي يَجْعَلُنَا لَا نَرَى إِلَّا الْأَدِلَّةَ الَّتِي تُؤَيِّدُ مَا نُوْمِنُ بِهِ مُسَبِّقًا.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«كَلَاكُمَا أَصَابَ جُزْءًا مِنَ الْحَقِيقَةِ. فَهَذِهِ بِالْفِعْلِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَقْفَالِ. وَلَكِنَّ تَشْخِصَ الْقُرْآنِ لِلْأَقْفَالِ يَذْهَبُ إِلَى مَا هُوَ أَعَمُّ، إِلَى جُذُورِ أَخْلَاقِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ، لَا مُجَرَّدَ أَخْطَاءٍ مَنْطِقِيَّةٍ أَوْ إِدْرَاكِيَّةٍ. مِنْ أَعْظَمِ هَذِهِ الْأَقْفَالِ "الْكِبَرُ". «سَأَصْرِفُ عَنْ عَائِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ». فَالْمُتَكَبِّرُ قَدْ يَكُونُ أَذْكَى النَّاسِ، وَيَرَى الْآيَةَ بِعَيْنِهِ وَيَسْمَعُهَا بِأُذُنِهِ وَيَحِلِّلُهَا بِذِهْنِهِ، لَكِنَّ "كِبَرَهُ" يُشْكَلُ قَفْلًا عَلَى قَلْبِهِ يَمْنَعُ الْحَقِيقَةَ مِنَ التَّفُؤُذِ إِلَيْهِ. وَمِنْهَا "الْعَفْلَةُ" وَ"الَرَّانُ" الَّذِي يَغْشَى الْقَلْبَ بِسَبَبِ الذُّنُوبِ. إِنَّهَا أَقْفَالٌ وَجُودِيَّةٌ، تُصِيبُ مَرَكَزَ الْوَعْيِ فَتَعْطَلُهُ.»

«وَلَاِنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَرَكَزُ التَّدَبُّرِ وَالْفَهْمِ الْعَمِيقِ، فَهُوَ بِالصَّرُورَةِ مَحَلُّ "الْإِيمَانِ". الْإِيمَانُ الْحَقِيقِيُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ قِنَاعَةٍ ذَهَبِيَّةٍ، بَلْ هُوَ تَصْدِيقٌ وَتَسْلِيمٌ وَحُبٌّ وَثِقَةٌ تَسْكُنُ فِي الْقَلْبِ. لِذَلِكَ، فَإِنَّ صِحَّةَ الْقَلْبِ أَوْ مَرَضَهُ تَوْثُرُ مَبَاشَرَةً عَلَى مَسَارِ التَّعَقُّلِ.»

«تَأَمَّلُوا آيَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. مَا هُوَ هَذَا الْمَرَضُ؟ إِنَّهُ مَرَضُ النِّفَاقِ وَالشُّكِّ وَالْحَسَدِ. هَذَا الْمَرَضُ يَجْعَلُ "تَعَقُّلَهُمْ" يَعْمَلُ بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ: إِنَّهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ ذَكَاءَهُمْ لِلشُّخْرِيةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْتَخْدِمُونَ قُدْرَتَهُمُ الْمَنْطِقِيَّةَ لِإِيجَادِ الْمُبَرِّزَاتِ لِخِيَانَاتِهِمْ. إِنَّهُ "تَعَقُّلٌ مَرِيضٌ" لِأَنَّهُ يَنْبُعُ مِنْ قَلْبٍ مَرِيضٍ.»

«وَبِالْعَكْسِ تَمَامًا،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «يَصْعُقُ الْقُرْآنُ شَرْطًا لِحُصُولِ الذِّكْرِى وَالْفَائِدَةِ مِنَ التَّبَيَّنِ، فَيَقُولُ فِي آيَةٍ عَجِيبَةٍ مِنْ سُورَةِ ق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. هَذِهِ الْآيَةُ تُقَدِّمُ لَنَا مِنْهَجَيْنِ لِلتَّلَقِّيِ الْمُثْمِرِ.»

سَأَلْتُ لَيْلَى بِشَغَفٍ:

«مَا هُمَا يَا شَيْخَنَا؟»

«الْمَنْهَجُ الْأَوَّلُ هُوَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾. وَهَذَا لَا يَغْنِي الْقَلْبَ الْجَسَدِيَّ، فَكَلَّمْنَا لَنَا قُلُوبَ. بَلْ يَغْنِي: لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ "حَيٌّ". قَلْبٌ "حَاضِرٌ"، قَلْبٌ "مُنْفَتِحٌ"، قَلْبٌ "مُرَكَّبٌ". هَذَا الْقَلْبُ بِمَجَرَّدِ أَنْ يَتَلَقَّى الْبَيَانَ، فَإِنَّهُ يَتَفَاعَلُ مَعَهُ مُبَاشَرَةً وَيَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الذِّكْرَى وَالْعِبْرَةَ. تَعَقُّلُهُ مُنْبِئٌ مِنْ قَلْبِهِ الْحَيِّ، فَيَأْتِي تَعَقُّلاً مُشْرِقاً بِنُورِ الْإِيمَانِ.»

«أَمَّا الْمَنْهَجُ الثَّانِي، فَهُوَ لَنَا جَمِيعاً، لِلسَّالِكِينَ فِي الطَّرِيقِ: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. إِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُكَ قَدْ بَلَغَ تِلْكَ الدَّرَجَةَ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْحُضُورِ، فَلَا تَبْتَاسُ. هُنَاكَ طَرِيقٌ آخَرُ. أَنْ "تُلْقِيَ السَّمْعَ". لَا حِطْوَا دَقَّةَ التَّغْيِيرِ، لَمْ يَقُلْ "سَمِعَ"، بَلْ "أَلْقَى السَّمْعَ"، وَفِي الْإِلْقَاءِ جُهْدٌ وَتَكَلُّفٌ وَتَوَجُّعٌ لِكُلِّ طَاقَةٍ الْأُسْتِمَاعِ. وَلَكِنْ هَذَا لَا يَكْفِي، فَقَدْ يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ غَافِلٌ. فَأَضَافَ شَرْطاً آخَرَ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. أَيُّ أَنْ يَكُونَ حَاضِراً بِكُلِّ كَيْانِهِ، شَهِيداً عَلَى مَا يَسْمَعُ. هَذَا الْجُهْدُ الْمُرْدُودُ - الْإِضْغَاءُ الْكَامِلُ وَالْحُضُورُ الْوُجُودِيُّ - هُوَ الَّذِي يَكْسِرُ أَقْفَالَ الْقَلْبِ شَيْئاً فَشَيْئاً وَيُخَيِّهِ.»

«وَهَكَذَا،» اسْتَظَرَدَ الْإِمَامُ، «نَرَى أَنَّ الْبَيَانَ يَدْخُلُ إِلَى الْقَلْبِ فَيُؤَثِّرُ فِيهِ. فَإِنْ وَجَدَهُ مُنْفَتِحاً، صَارَ التَّعَقُّلُ إِيْمَاناً وَاطْمِئْنَاناً. وَإِنْ وَجَدَهُ مُنْغَلِقاً أَوْ مَرِيضاً، صَارَ التَّعَقُّلُ إِعْرَاضاً وَجُحُوداً.»

«وَلَعَلَّنَا نَرَى هَذَا الْأَمْرَ بِوُضُوحٍ فِي قِصَّةِ الْحَوَارِيِّينَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، حِينَ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. "قَالُوا آمَنَّا". هَذَا إِفْرَارٌ صَدَرَ مِنَ "الْقَلْبِ" مُبَاشَرَةً، تَصْدِيقٌ وَاسْتِجَابَةٌ فَوْرِيَّةٌ لِلْوَحْيِ. تَعَقُّلُهُمْ تَفَاعَلٌ مَعَ الْبَيَانِ الَّذِي جَاءَهُمْ، وَأَنْتَحَ إِيمَاناً قَلِيلاً وَإِفْرَاراً لِسَائِيّاً.»

قَالَ مُعَاذٌ مُعْتَرِضًا:

«لَكِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً طَلَبُوا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، طَلَبُوا دَلِيلًا مَادِّيًّا. أَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ إِيمَانَهُمُ الْقَلْبِيُّ لَمْ يَكُنْ كَافِيًّا، وَأَنَّهُمْ كَانُوا بِحَاجَةٍ لِبُرْهَانٍ حِسِّيٍّ لِيُطَمِّئَنَّ تَعَقُّلَهُمْ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«بَلْ هَذَا يُثَبِّتُ مَا نَقُولُهُ عَنِ التَّكَامُلِ بَيْنَ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ. إِنَّ قُلُوبَهُمْ آمَنَتْ، لَكِنَّهُمْ أَرَادُوا، مِثْلَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ، أَنْ يَرْتَقُوا مِنْ مَقَامِ "الإِيمَانِ" إِلَى مَقَامِ "الْطَّمَأْنِينَةِ" الَّذِي تَتَطَبَّقُ فِيهِ الْبَصِيرَةُ الدَّاخِلِيَّةُ مَعَ الشَّهَادَةِ الْخَارِجِيَّةِ. لَمْ يَكُنْ طَلَبُهُمْ طَلَبَ شَيْءٍ، بَلْ طَلَبَ زِيَادَةَ طَّمَأْنِينَةٍ لِلْقَلْبِ. فَتَعَقُّلُهُمْ لَمْ يَكُنْ مُنْفَصِلًا عَنِ إِيمَانِهِمْ، بَلْ كَانَ يَسْعَى لِتَعْمِيقِهِ وَتَرْسِيخِهِ. وَهَكَذَا يَتَنَفَّعُ الْقَلْبُ بِالتَّبَيَّنِ، فَيَسْتَقْبِلُهُ وَيُحَوِّلُهُ إِلَى إِيمَانٍ، ثُمَّ يَدْفَعُ الْتَّعَقُّلَ لِيُحَوِّلَ هَذَا الْإِيمَانَ إِلَى سُلُوكٍ وَطَّمَأْنِينَةٍ. هَكَذَا تَصِيرُ الْمَعْرِفَةُ حَيَاةً.»

صَمَتَ الْإِمَامُ وَكَانَتْ وَصَلَ إِلَى نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ، ثُمَّ قَدَّمَ الْقَاعِدَةَ السَّادِسَةَ كَخُلَاصَةٍ جَامِعَةٍ:

«الْقَلْبُ هُوَ مَرْكَزُ الْتَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ: فِيهِ يُفْتَحُ التَّدَبُّرُ، وَفِيهِ يَسْكُنُ الْإِيمَانُ، وَإِلَيْهِ يَدْخُلُ الْبَيِّنَاتُ. وَمَنْ صَفَا قَلْبُهُ صَفَا تَعَقُّلُهُ وَأَشْرَقَ، وَمَنْ قَسَا قَلْبُهُ وَأَقْفَلَ عَلَيْهِ انْحَرَفَ تَعَقُّلُهُ وَأَظْلَمَ.»

أَحَسَّ الْجَمِيعُ بِثِقَلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ. فَمَسْئُولِيَّةُ الْفَهْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لَمْ تَعُدْ مَسْئُولِيَّةَ ذَهْنِيَّةٍ بَحْتَةٍ، بَلْ أَصْبَحَتْ مَسْئُولِيَّةَ وَجُودِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِصِحَّةِ الْمَرْكَزِ الْأَعْمَقِ فِي كَيَانِهِمْ.

وَكَاثَهُ يَقْرَأُ الْحَيَرَةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، فَتَنَحَّ خَالِدٌ فَمَهُ لِيَسْأَلَ السُّؤَالَ الَّذِي يَدُورُ فِي أَدْهَانِ الْجَمِيعِ: «شَبَّخْنَا، كَلَامُكَ عَنِ الْقَلْبِ كَقَصْرِ لِلْمَلِكِ وَمَرْكَزٍ لِلْقِيَادَةِ عَمِيقٌ جَدًّا. لَكِنَّ الْقُرْآنَ أَحْيَانًا يَسْتَخْدِمُ لَفْظًا آخَرَ قَرِيبًا مِنْهُ. أَتَذَكَّرُ دُعَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ أَنَّهَا تَكُونُ فِي "صُدُورِ النَّاسِ". فَإِذَا كَانَ "الْقَلْبُ" هُوَ الْقَصْرُ الْمُنِيعُ، فَمَا هُوَ "الْصَّدْرُ"؟ هَلْ هُوَ سَاحَةُ الْقَصْرِ الْخَارِجِيَّةُ؟ أَوْ هِيَ أَسْوَارُهُ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهُ؟ مَا عِلَاقَةُ هَذَا الْفَضَاءِ الْجَدِيدِ بِعَمَلِيَّةِ التَّعَقُّلِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ، فَقَدْ كَانَتْ الْخَرِيطَةُ تَتَكَشَّفُ أَمَامَهُمْ بِانْتِظَامٍ وَدَقَّةٍ.

«لِكُلِّ قَصْرِ حِصْنٍ يَحْمِيهِ، وَسَاحَةُ تَدُورُ فِيهَا الْأَحْدَاثُ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى الْمَلِكِ. وَهَذَا الْحِصْنُ هُوَ "الْصَّدْرُ". وَحِكَايَتُهُ هِيَ حِكَايَةُ مَجْلِسِنَا الْقَادِمِ.»

الْفَصْلُ 7: بَيْنَ الضِّيقِ وَالسَّعَةِ

كَانَتْ اللَّيْلَةُ قَدْ اُنْتَصَفَتْ، وَالصَّمْتُ فِي الْخَارِجِ أَصْبَحَ كَامِلًا، لَا يَكْسِرُهُ إِلَّا خَفِيفُ أَغْصَانِ الشَّجَرِ الَّتِي تُدَاعِبُهَا رِيحٌ بَارِدَةٌ. أَمَّا دَاخِلُ الْمَجْلِسِ، فَكَانَ الْهُدُوءُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ؛ هُدُوءٌ مَشْحُونٌ بِالْأَفْكَارِ، مَلِيءٌ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي قِيلَتْ وَتِلْكَ الَّتِي لَمْ تُقَلْ بَعْدُ. كَانَ الْجَمِيعُ قَدْ أَبْحَرَ عَمِيقًا فِي عَالَمِ الْأَدَاتِ، مِنْ بَوَابَاتِ الْخَوَاسِّ إِلَى مَطْبَخِ الْأَفِيدَةِ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى قَصْرِ الْقَلْبِ. وَالْآنَ، كَانَ سُؤَالُ خَالِدٍ الْأَخِيرُ يَدْعُوهُمْ لِيَنْظُرُوا إِلَى الْفَضَاءِ الَّذِي يَحْتَوِي كُلَّ ذَلِكَ: "الصَّدْرُ".

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى خَالِدٍ نَظْرَةً مُوَافِقَةً، وَقَالَ:

«مَثَلُكَ يَا خَالِدُ كَانَ بَلِيغًا. إِذَا كَانَ "الْقَلْبُ" هُوَ الْقَصْرُ الْمَلَكِيُّ الْمَنِيعُ، حَيْثُ يُتَّخَذُ قَرَارُ الْإِيمَانِ الْأَعْظَمِ، فَإِنَّ "الصَّدْرَ" هُوَ بِالْفِعْلِ سَاحَةُ الْقَصْرِ الْوَاسِعَةِ، وَخُصُونُهُ الْأُولَى. إِنَّهُ الْمَجَالُ النَّفْسِيُّ الشَّاسِعُ الَّذِي يَحْفُفُ بِالْقَلْبِ وَيَحْتَوِي الْأَفِيدَةَ. لَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ فِكْرَةٍ أَوْ خِطَابٍ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَلِكِ فِي قَصْرِهِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ أَوَّلًا مِنْ بَوَابَاتِ هَذَا الْحِصْنِ وَيَتَجَوَّلَ فِي سَاحَاتِهِ.»

لَمَحَ مُعَادٌ فُرْصَتَهُ لِيُعِيدَ الْحَوَارَ إِلَى أَرْضِ يَأْلَفُهَا. قَالَ بِجَدِّيَّةٍ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ الْأَوْصَافَ الْقُرْآنِيَّةَ لِحَالَاتِ الصَّدْرِ - "الْإِنْشِرَاحُ" وَالْضَيْقُ" - هِيَ أَوْصَافٌ دَقِيقَةٌ لَطَوَاهِرُ نَفْسِيَّةٍ نَدْرُسُهَا الْيَوْمَ بِأَدَوَاتٍ عِلْمِيَّةٍ. "الْإِنْشِرَاحُ الصَّدْرُ" يُقَابِلُ مَا نُسَمِّيهِ "الْإِنْفِتَاحَ الذَّهْنِيَّ" (Open-mindedness) أَوْ الْأَمْنَ النَّفْسِيَّ، وَهُوَ حَالَةٌ تَتَّسِمُ بِإِنْخِفَاضِ هَرْمُونَاتِ التَّوتُّرِ مِثْلِ الْكُورْتِيزُولِ. وَ"ضَيْقُ الصَّدْرِ" هُوَ وَصْفٌ دَقِيقٌ لِحَالَةِ الْفَلَقِ أَوْ "التَّنَافُرِ الْمَعْرِفِيِّ" (Cognitive Dissonance) حِينَ تَهْدُدُ فِكْرَةً جَدِيدَةً قَنَاعَاتِ الْفَرْدِ الرَّأْسِيَّةِ. فَهَلْ نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ بُعْدٍ رُوحِيٍّ غَامِضٍ، أَمْ عَنْ حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ وَبُيُوكِيمِيَّاتِيَّةٍ يُمَكِّنُ تَفْسِيرُهَا؟»

رَدَّ الْإِمَامُ يَهُدُوءُ:

«أَنْتَ تُقَدِّمُ تَشْخِيسًا مُمْتَارًا لِـ "أَعْرَاضِ" الظَّاهِرَةِ يَا مُعَاذُ، وَالْقُرْآنُ لَا يَنْفِي هَذِهِ الْأَعْرَاضَ، بَلْ يُؤَكِّدُهَا وَيَصِفُهَا بِدَقِّهِ مُعْجَزَةٍ. لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُنْهَجَيْنِ لَيْسَ فِي وَصْفِ الْعَرَضِ، بَلْ فِي تَشْخِيسِ "سَبَبِهِ" وَتَحْدِيدِ "وَضَائِفَتِهِ". الْعِلْمُ النَّفْسِيُّ يَرَى هَذِهِ الْحَالَاتِ نِتَاجًا لِتَفَاعُلَاتِ دَاخِلِيَّةٍ أَوْ ظُرُوفٍ خَارِجِيَّةٍ. أَمَّا الْقُرْآنُ فَيُقَدِّمُهَا عَلَى أَنَّهَا "مُؤَشِّرَاتٌ" رُوحِيَّةٌ عَمِيقَةٌ، مِثْلُ إِبْرَةِ الْبُوصْلَةِ، تُظْهِرُ لَكَ يَوْضُوحَ مَا إِذَا كَانَ كَيَانُكَ مُتَّجِهًا نَحْوَ الْحَقِّ أَمْ مُعْرِضًا عَنْهُ. إِنَّهَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ "حَالَاتٍ"، بَلْ هِيَ "إِجَابَاتٌ" مِنْ فِطْرَتِكَ عَلَى مَا يُعْرِضُ عَلَيْهَا.»

«وَلِنَفَقِهِمْ هَذَا، لِنَنْظُرْ فِي آيَةِ الْمِحْوَرِّيَّةِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ آيَةُ تَرْسُمُ فِيهَا خَرِيطَةُ الْهُدَايَةِ وَالضَّلَالِ النَّفْسِيَّةِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.»

«لِنَتَوَقَّفْ عِنْدَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ

لِلْإِسْلَامِ). لَاحِظُوا التَّرْتِيبَ. "إِرَادَةُ الْهَدَايَةِ" مِنْ اللَّهِ تَتَجَلَّى أَوَّلًا فِي فِعْلِ بَاطِنِيٍّ، فِي تَهْيِئَةِ الْمَجَالِ، فِي "شَرْحِ الصَّدْرِ". كَأَنَّ اللَّهَ يُوسِّعُ لَكَ السَّاحَةَ الْأَمَامِيَّةَ لِقُصْرِ قَلْبِكَ، وَيُزِيلُ الْعَوَاقِقَ، وَيَجْعَلُ الْبَوَابَ مُسْرَعَةً. لِمَاذَا؟ "لِلْإِسْلَامِ"، أَيْ لِقَبُولِ الْحَقِّ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ. "إِنْشِرَاحُ الصَّدْرِ" إِذَنْ هُوَ حَالَةُ الْفَائِلِيَّةِ الْفُضُوءِ، هُوَ التَّهْيِئَةُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ التَّعَقُّلَ قَادِرًا عَلَى التَّوَجُّهِ لِلْحَقِّ بِبُسْرٍ وَسَلَامٍ.»

سَأَلْتُ لَيْلَى بِتَأَثُّرٍ:

«هَلْ هَذَا شَيْءٌ نَشْعُرُ بِهِ؟ أَقْصِدُ، هَلْ لَهُ عَلَامَاتٌ فِي حَيَاتِنَا؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«بِالتَّأَكُّيدِ يَا لَيْلَى. صَاحِبُ الصَّدْرِ الْمُنْشَرِحِ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي تَجَدُّبِنَهُ هَيِّنًا لَيْتًا، يَسْمَعُ الرَّأْيَ الْآخَرَ بِاخْتِرَامٍ حَتَّى لَوْ خَالَفَهُ. هُوَ الَّذِي إِذَا أَخْطَأَ، اتَّسَعَ صَدْرُهُ لِقَبُولِ التَّقْدِيرِ وَالْإِعْتِرَافِ بِالْخَطَأِ. هُوَ الَّذِي إِذَا رَأَى نِعْمَةً عَلَى غَيْرِهِ، اتَّسَعَ صَدْرُهُ لِلْفَرَحِ لَهُ. هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ هُمُومَ النَّاسِ فِي صَدْرِهِ. إِنَّهُ "السَّعَةُ" النَّفْسِيَّةُ. وَأَعْظَمُ دَرَجَاتِ هَذِهِ السَّعَةِ هِيَ مَا مِنْ اللَّهِ بِهِ عَلَى نَبِيِّهِ (ص) فِي سُورَةِ الشُّرْحِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. وَأَيُّ صَدْرٍ كَانَ أَوْسَعَ مِنْ صَدْرِهِ، وَقَدْ اتَّسَعَ لِأَدَى قَوْمِهِ، وَلِثِقَلِ الْوَحْيِ، وَلِهُمُومِ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعًا؟»

ثُمَّ تَغَيَّرَتْ نَبْرَةُ الْإِمَامِ قَلِيلًا وَقَالَ:

«أَمَّا الْحَالَةُ الْمُقَابِلَةُ، فَهِيَ الَّتِي تَصِفُهَا الْآيَةُ بِتَغْيِيرٍ مُرْعِبٍ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾. لِنَتَأَمَّلَ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ الْمُعْجِزِ. "ضَيِّقًا" وَ"حَرَجًا"، كِلْتَاهُمَا يُفِيدُ الْإِنْغِلَاقَ

وَالْأَخْتِنَاقَ. ثُمَّ يَأْتِي التَّشْبِيهُ الْفَذُّ: «كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ». وَنَحْنُ نَعْلَمُ الْيَوْمَ عِلْمَ الْبَاقِينَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا أَرْتَقَعَ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ، نَقَصَ الْأَكْسِجِينَ وَشَعَرَ بِضِيقٍ فِي التَّنَفُّسِ وَأَخْتِنَاقٍ. إِنَّهُ تَشْبِيهُ حَسِّيٍّ لِحَالَةِ نَفْسِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ. فَالشَّخْصُ الْمُعْرَضُ عَنِ الْحَقِّ، يَصِيرُ الْحَقُّ بِالنَّسَبَةِ لَهُ كَبَيْئَةٍ غَرِيبَةٍ لَا أَكْسِجِينَ فِيهَا، يَخْتَنِقُ كُلَّمَا سَمِعَهُ، وَيَشْعُرُ بِأَنَّ صَدْرَهُ يُعَصِّرُ.»

«وَهَذَا الضِّيقُ هُوَ عَلَامَةٌ "الرَّفْضِ" الْبَاطِنِيِّ وَالْأُسْتِكْبَارِ". هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْمَرْءَ لَا يُطِيقُ سَمَاعَ الْحَقِّ. تَجِدُهُ يُقَاطِعُ، وَيُعَيِّرُ الْمَوْضُوعَ، وَيَسْخَرُ، لِأَنَّ صَدْرَهُ لَا يَتَّسِعُ لِأُسْتِيْعَابِ فِكْرَةٍ تُخَالِفُ هَوَاهُ. هَذَا الضِّيقُ هُوَ الْحِجَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَمْنَعُ التَّعَقُّلَ مِنَ الْقِيَامِ بِوُظُفِيَّتِهِ.»

أَضَافَتْ زَيْنَبُ:

«وَهَلْ لِهَذَا عِلَاقَةٌ بِآيَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ عَنِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَنْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ». الْآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنِ "زَنْغٍ فِي الْقُلُوبِ".»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«نَعَمْ، وَالْعِلَاقَةُ وَثِيقَةٌ. "الزَّيْغُ" هُوَ مَرَضٌ يَجِلُّ فِي "الْقَلْبِ"، فِي قَصْرِ الْمَلِكِ. وَمَاذَا تَكُونُ نَتِيجَتُهُ؟ إِنَّهُ يَتَجَلَّى فِي "صَدْرٍ" ضَيِّقٍ لَا يَتَحَمَّلُ النُّصُوصَ الْوَاضِحَةَ الْمُحْكَمَةَ، فَيَهْرُبُ مِنْهَا وَيَذْهَبُ لِيَبْحَثَ عَنِ النُّصُوصِ الْمُتَشَابِهَةِ الْحَمَالَةِ لِلأَوْجِهَةِ، لِأَنَّهَا الْمَجَالُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ فِيهِ أَنْ يُلَبَّسَ هَوَاهُ ثَوْبَ الْحَقِّ. فَالزَّيْغُ فِي الْقَلْبِ يُورِثُ ضَيْقًا فِي الصَّدْرِ، وَضِيقُ الصَّدْرِ يُورِثُ انْجِرَافًا فِي التَّعَقُّلِ.»

جَدَلِيَّتُهُ الْعَقْلُ وَالْتَعَقُّلُ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

«وَلَعَلَّ أَفْضَلَ مَنْ فَهِمَ هَذِهِ الْحَرَكِيَّةَ هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. لِنَقُمَ بِتَمْرِينَا التَّطْبِيقِيَّ لِهَذِهِ اللَّيْلَةِ. تَأَمَّلُوا مَعِيَ دُعَاءَهُ الْعَظِيمَ فِي سُورَةِ طه، وَهُوَ عَلَى أَعْتَابِ أَكْثَرِ مُهِمَّةٍ فِي حَيَاتِهِ، مُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ. مَاذَا كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ طَلَبَهُ مِنْ رَبِّهِ؟»

تَلَا خَالِدٌ آيَةَ بِصَوْتٍ خَاشِعٍ:

«(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي).»

سَأَلَ الْإِمَامُ:

«لِمَاذَا؟ لِمَاذَا بَدَأَ بِهَذَا الطَّلَبِ؟ لِمَاذَا لَمْ يَطْلُبِ النَّصْرَ، أَوْ الْقُوَّةَ، أَوْ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةَ أَوَّلًا؟»

تَحَدَّثَتْ لَيْلَى وَكَانَتْهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهَا:

«لِأَنَّ الْمُوَاجَهَةَ الْكُبْرَى لَيْسَتْ مَعَ فِرْعَوْنَ، بَلْ مَعَ الضَّغْطِ النَّفْسِيِّ وَالْعَبْءِ الْهَائِلِ لِلْمَسْئُولِيَّةِ. إِنَّهُ يَطْلُبُ السَّعَةَ الدَّاخِلِيَّةَ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ تَحْمِلِ الْمِهْمَةِ دُونَ أَنْ يَنْهَارَ. يَطْلُبُ الظَّمَأَيْنَةَ وَالثَّبَاتَ.»

وَقَالَ سَلْمَانُ:

«إِنَّهُ يَطْلُبُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْكَلَامِ. فَالْصَّدْرُ الضَّيِّقُ يُنْتِجُ كَلَامًا مُتَلَعِثًا وَمُضْطَرِبًا. وَالْصَّدْرُ الْمُنْشَرِحُ يُنْتِجُ بَيَانًا وَاضِحًا وَوَثَابًا. إِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ بَيَانَهُ وَحَجَّتَهُ لَنْ تَخْرُجَ قُوَّةً مَا لَمْ يَكُنِ الْمَجَالُ النَّفْسِيُّ الَّذِي تَخْرُجُ مِنْهُ وَاسِعًا وَمُظْمِنًا.»

أَكْمَلَ الْإِمَامُ:

«أَحْسَنْتُمَا. لَقَدْ عَلِمَ مُوسَى بِفِطْرَتِهِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ أَنْشِرَاحَ الصَّدْرِ هُوَ الشَّرْطُ الْمُسَبِّقُ لِكُلِّ فِعْلٍ عَظِيمٍ. فَهُوَ الَّذِي يَمْنَحُهُ الْقُدْرَةَ عَلَى تَحْمُلِ الْأَمَانَةِ، وَالصَّبْرَ عَلَى تَكْذِيبِ الْمُكْذِبِينَ، وَالْحِكْمَةَ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ. إِنَّهُ الْأَسَاسُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ "تَيْسِيرُ الْأَمْرِ" وَ"حَلُّ عُقْدَةِ اللِّسَانِ". فَالْتَّعَقُّلُ وَالْبَيَانُ السَّلِيمَانِ يَصُدْرَانِ بِالصَّرُورَةِ عَنْ صَدْرِ مُنْشَرِحٍ.»

صَمَتَ الْإِمَامُ، وَكَانَتْهُ يَدْعُهُمْ يَتَنَفَّسُونَ فِي هَذِهِ الْمَسَاحَةِ الْوَاسِعَةِ مِنْ مَعْنَى "أَنْشِرَاحِ الصَّدْرِ". ثُمَّ قَدَّمَ الْقَاعِدَةَ السَّابِعَةَ:

«الصَّدْرُ فِي الْقُرْآنِ هُوَ مَجَالُ الْقَبُولِ وَالرَّفُضِ: فَإِذَا أَنْشَرَاحَ بِالْهَدَايَةِ صَارَ الْتَّعَقُّلُ نُورًا وَتَسْلِيمًا، وَإِذَا صَاقَ بِالْإِعْرَاضِ صَارَ الْتَّعَقُّلُ حَرَجًا وَضَلَالًا. وَهُوَ الْمِيزَانُ النَّفْسِيُّ الَّذِي يُحَدِّدُ وَجْهَةَ الْإِنْسَانِ إِمَّا إِلَى الْهُدَى أَوْ الْهَوَى.»

بَعْدَ لَحْظَاتٍ مِنَ التَّأَمُّلِ، رَفَعَ خَالِدٌ يَدَهُ وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ أَنَّ قِطْعَةً جَدِيدَةً مِنَ الصُّورَةِ الْمُحِيرَةِ قَدْ بَدَأَتْ تَتَّضِحُ فِي زَهْنِهِ. قَالَ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ الصُّورَةَ تَكْبُرُ وَتَتَعَقَّدُ وَتَتَرَابَضُ بِشَكْلِ عَجِيبٍ. لَدَيْنَا الْآنَ بَوَابَاتُ حِسِّيَّةٍ، "السَّمْعُ وَالْبَصَرُ". وَلَدَيْنَا مَطْبَحُ لِلْمَشَاعِيرِ وَالْقِيَمِ، "الْأَفْعِدَةُ". وَلَدَيْنَا قَصْرٌ لِلْقَرَارِ وَالْإِيمَانِ، "الْقَلْبُ". وَلَدَيْنَا سَاحَةٌ وَاسِعَةٌ لِلْقَبُولِ وَالرَّفُضِ، "الصَّدْرُ". كُلُّ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ تَعْمَلُ مَعًا لِتُنْتِجَ "الْتَّعَقُّلُ". وَلَكِنْ... كُلُّ هَذَا يَبْقَى دَاحِلِيًّا. كَيْفَ يَخْرُجُ هَذَا الْتَّعَقُّلُ الْمُرَكَّبُ مِنَ الدَّاحِلِ إِلَى الْخَارِجِ؟ مَا هِيَ الْأَدَاةُ الَّتِي تَنْقُلُ ثَمَرَةَ عَمَلٍ كُلِّ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ إِلَى الْعَالَمِ، فَتُصْبِحُ كَلَامًا مَسْمُوعًا أَوْ حُجَّةً مَفْهُومَةً؟ أَلَيْسَ هُنَاكَ جِسْرٌ بَيْنَ هَذَا الْبَاطِنِ الْغَنِيِّ وَالظَّاهِرِ الْمُبِينِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ إِبْتِسَامَةً عَرِيضَةً، فَقَدْ كَانَ خَالِدٌ يَرَسُمُ الطَّرِيقَ

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

بِنَفْسِهِ.

«بَلَى يَا خَالِدُ. لَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ مُوسَى فِي دُعَائِهِ بَعْدَ أَنْ طَلَبَ شَرْحَ صَدْرِهِ مُبَاشَرَةً. إِنَّهُ الْأَدَاةُ الْأَخِيرَةُ وَالْأَخْطَرُ... إِنَّهُ "اللسان". وَمَا قِصَّتُهُ، فَتِلْكَ قِصَّةُ أُخْرَى.»

الْمَحْوَرُ الثَّانِي: الْبُنْيَانُ الْإِذْرَاكِيُّ

المُقَدِّمَةُ

إِذَا كَانَ الْمَحْوَرُ الْأَوَّلُ قَدْ هَدَمَ الصُّورَةَ النَّمَطِيَّةَ عَنِ الْعَقْلِ وَبَيَّنَ حُدُودَهُ، فَإِنَّ هَذَا الْمَحْوَرَ يَشْرَعُ فِي بِنَاءِ الصُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ لِـ التَّعَقُّلِ كِنِظَامِ إِذْرَاكِيٍّ شَامِلٍ. هُنَا يَتَجَلَّى الْقَلْبُ كَمُتَرَجِّمٍ لِلْمَعَانِي، وَيُظْهِرُ الزَّمَنُ كَوَعَاءٍ يَحْفَظُ تَجَارِبَ الْإِنْسَانِ، وَتَتَسِعُ الْحَيَاةُ لِتَكُونَ مِيدَانًا يَتَفَاعَلُ فِيهِ الْوَعْيُ وَالتَّجَرُّبَةُ.

فِي هَذَا الْمَحْوَرِ يَتَكَوَّنُ الْإِنْسَانُ كَأَنَّهُ مَلْحَمَةٌ كِيَانٍ، تَتَنَاعَمُ فِيهَا الْحَوَاسُّ وَالْعَقْلُ وَالرُّوحُ، فَيَصْعَدُ عَلَى سُلَّمِ مَعْرِفِيٍّ يَنْقُلُهُ مِنَ الْإِذْرَاكِ الْجَسَدِيِّ إِلَى الْحِكْمَةِ الْعُلْيَا. وَهُنَا يَطْرَحُ السُّؤَالُ الْجَوْهَرِيُّ: لِأَجْلِ مَاذَا نَتَعَقَّلُ؟ فَيَكُونُ الْجَوَابُ مَفْتَاَحًا لِمَسَالِكِ الْمَعْرِفَةِ وَخَرَائِطِ الْوَعْيِ.

وَهَكَذَا يُقِيمُ هَذَا الْمَحْوَرُ أُسُسَ الْبُنْيَانِ الْإِذْرَاكِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ التَّعَقُّلَ لَيْسَ مَجْرَدَ عَمَلٍ ذَهْنِيٍّ، بَلْ حَيَاةً كَامِلَةً تُشَارِكُ فِيهَا كُلُّ قُوَى الْإِنْسَانِ.

الْفَصْلُ 8: مُتَرْجِمُ الْقَلْبِ

كَانَ اللَّيْلُ قَدْ أَلْقَى بِأَثْقَالِهِ كُلِّهَا عَلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَجْلِسِ إِلَّا ضَوْءُ الْمَصَابِيحِ الَّذِي يَخْفِرُ دَائِرَةً مِنْ أَنْسٍ وَتَرَكُّزٍ فِي قَلْبِ الْعُتْمَةِ. الْأَفْكَارُ الَّتِي نُوقِشَتْ فِي السَّاعَاتِ الْمَاضِيَةِ كَانَتْ لَا تَزَالُ تَتَرَدَّدُ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ بَنَتْ فِي أَذْهَانِ الطُّلَابِ صُورَةً مُعَقَّدَةً وَمُذْهِلَةً لِدَوَائِهِمْ: بَوَابَاتُ حِسِّيَّةٍ، وَمَصَانِعُ لِلْمَشَاعِرِ، وَقَصْرٌ لِلْإِيمَانِ، وَخُصُونٌ لِلْقَبُولِ. وَالْآنَ، كَانَ سُؤَالُ خَالِدٍ الْأَخِيرُ قَدْ وَضَعَهُمْ عَلَى عَتَبَةِ جَدِيدَةٍ: كَيْفَ يَخْرُجُ كُلُّ هَذَا الْعَالَمِ الدَّاخِلِيِّ الْغَنِيِّ إِلَى الْوُجُودِ الْخَارِجِيِّ؟

الْتَقَطَ الْإِمَامُ خَيْطَ الْحَدِيثِ مِنْ حَيْثُ انْتَهَى، وَقَدْ وَجَّهَ كَلَامَهُ إِلَى خَالِدٍ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَغْنِي الْجَمِيعَ. قَالَ:

«لَقَدْ أَصْبَتْ كَيْدَ الْحَقِيقَةِ بِسُؤَالِكَ يَا خَالِدُ. فَمَا قِيَمَةُ مَمْلَكَةِ بَاطِنِيَّةٍ عَامِرَةٍ بِالْحِكْمَةِ وَالْإِيمَانِ، إِذَا كَانَ سَفِيرُهَا إِلَى الْعَالَمِ سَفِيرًا أَخْرَسَ، أَوْ أَسْوَأَ مِنْ ذَلِكَ، سَفِيرًا كَاذِبًا؟ إِنَّ الْبِنَاءَ الدَّاخِلِيَّ الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ يَفْقَدُ أَحَدَ أَهَمِّ مَقَاصِدِهِ إِنْ لَمْ يَجِدْ لَهُ مُتَرْجِمًا أَمِينًا وَقَوِيًّا يُعَبِّرُ عَنْهُ. وَهَذَا الْمُتَرْجِمُ، هَذَا الْحَبِيسُ بَيْنَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، هُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ: إِنَّهُ "اللسان".»

بَادَرَ مُعَاذٌ إِلَى الْكَلَامِ، وَكَأَنَّمَا أُثِيرَتْ نُقْطَةٌ مِنْ صَمِيمِ اهْتِمَامَاتِهِ

الْفَلَسَفِيَّةُ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْفِكْرِ هِيَ مِنْ أَعْقَدِ الْإِسْكَالِيَّاتِ. وَوَصَفُ اللِّسَانِ بِأَنَّهُ مُجَرَّدٌ "مُتَرْجِمٌ" لِفِكْرٍ دَاخِلِيٍّ سَابِقٍ عَلَيْهِ هُوَ مَوْضِعُ نِقَاشٍ كَبِيرٍ. هُنَاكَ مَنْ يَرَى الْعَكْسَ، كَمَا فِي فَرَضِيَّةِ "سَايبر-وُورْف" اللَّسَانِيَّةِ، الَّتِي تَقْتَرِحُ أَنَّ بُنْيَةَ اللُّغَةِ الَّتِي نَتَحَدَّثُهَا هِيَ الَّتِي "تُشَكِّلُ" طَرِيقَةَ تَفْكِيرِنَا وَإِدْرَاكِنَا لِلْعَالَمِ. فَالِّلِّسَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ نَاقِلٍ، بَلْ هُوَ صَانِعٌ لِفِكْرٍ. فَأَيُّهُمَا يَأْتِي أَوَّلًا: "الْتَعَقُّلُ" أَمْ "اللِّسَانُ"؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ بِهِدْوٍ:

«هَذَا عُمُقٌ فِي التَّحْلِيلِ يَا مُعَاذُ، وَهُوَ يُثَبِّتُ أَنَّ اللِّسَانَ لَيْسَ بِالْبَسَاطَةِ الَّتِي قَدْ يَبْدُو عَلَيْهَا. وَلَكِنَّ مَنْظُورَ الْبَيَّانِ الْقُرْآنِيِّ يَطْرَحُ الْمَسْأَلَةَ فِي إِطَارٍ مُخْتَلِفٍ. إِنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا كَقَضِيَّةٍ "أَيُّهُمَا أَوَّلًا"، بَلْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ جِلَالِ الْغَايَةِ وَالْمَنْحِ. تَأَمَّلُوا مَعِيَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُفْتَتِحَةَ لِسُورَةِ الرَّحْمَنِ، فَهِيَ تَوْسِّسُ لِمَكَانَةِ اللِّسَانِ فِي الْوُجُودِ: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.»

«لِنَتَوَقَّفْ عِنْدَ هَذَا التَّرْتِيبِ الْإِلَهِيِّ الْعَجِيبِ. الْبُدَايَةُ بِـ﴿الرَّحْمَنِ﴾، لِيُعْلِمَنَا أَنَّ كُلَّ مَا سَيَأْتِي هُوَ تَجَلٍّ لِصِفَةِ الرَّحْمَةِ. ثُمَّ، قَبْلَ ذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، يَأْتِي ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾. هُنَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ "الْبَيَانَ الْإِلَهِيَّ" الْأَكْمَلَ سَابِقٌ فِي الْوُجُودِ الْعِلْمِيِّ عَلَى الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ. ثُمَّ يَأْتِي ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾. وَمَا هِيَ الْمُنْحَةُ الْعُظْمَى الَّتِي تَلَتْ فِعْلَ الْخَلْقِ مُبَاشَرَةً وَمَيَّزَتْ هَذَا الْكَائِنَ؟ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْبَيَّانِ، وَأَدَاتُهَا اللِّسَانُ، هِيَ أُلْهَبَةٌ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ إِنْسَانًا، وَتَجْعَلُهُ قَابِلًا لِتَلْقَى ذَلِكَ الْبَيَّانَ الْأَعْلَى، الْقُرْآنَ. فَالِّلِّسَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ تَوَاصُلٍ، بَلْ هُوَ تَجَلٌّ لِتَكْرِيمِ اللَّهِ

لِلْإِنْسَانِ.»

«وَمِنْ هُنَا،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «نَفْهَمُ أَنَّ أَوَّلَ وَأَعْلَى وَظِيفَةٍ لِلِّسَانِ هِيَ "التَّيْلِيعُ". أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَنَاءً أَمِينَةً لِنَقْلِ الْحَقِّ وَالْحِكْمَةِ. إِنَّهُ الْجِسْرُ الَّذِي تَعْبُرُ عَلَيْهِ الْمَعَارِفُ الَّتِي تَشَكَّلَتْ فِي دَاخِلِ كَيْانٍ مُتَعَقِّلٍ، لِيَدْخُلَ إِلَى كَيْانٍ مُتَعَقِّلٍ آخَرَ. بَلَا هَذَا الْجِسْرِ، تَبْقَى الْحِكْمَةُ سَجِينَةً الصُّدُورِ.»

سَأَلْتُ لَيْلَى:

«وَلَكِنْ يَا شَيْخَنَا، الْكَلَامُ سَهْلٌ. كَثِيرُونَ يَتَكَلَّمُونَ، وَقَلِيلُونَ يُؤَنِّثُونَ. مَا الَّذِي يَجْعَلُ لِسَانًا مُؤَنَّثًا وَآخَرَ هَبَاءً مُنْثَوْرًا؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«سُؤَالُكَ يَنْقُلُنَا مِنْ "أَهْمِّيَّةِ" اللِّسَانِ إِلَى "شُرُوطِ" اللِّسَانِ الْمُسْتَقِيمِ. وَالْقُرْآنُ يَضَعُ لَنَا شُرُوطًا وَاضِحَةً. الشَّرْطُ الْأَوَّلُ هُوَ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا.»

«تَوَقَّفُوا عِنْدَ هَذَا التَّعْيِيرِ: "قَوْلًا سَدِيدًا". مَا هُوَ الْقَوْلُ السَّدِيدُ؟»

قَالَتْ رَيْنَبُ بِحَسَمٍ:

«السَّدِيدُ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا أَعُوجَاجَ فِيهِ. هُوَ الْقَوْلُ الدَّقِيقُ، الْمُحْكَمُ، الَّذِي يُصِيبُ الْهَدَفَ مُبَاشَرَةً، كَالسَّهْمِ الْمُسَدِّدِ. فِي عُرْفِنَا الْأُصُولِيِّ، هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يُوَافِقُ الْحَقَّ وَلَا يُخَالِفُهُ.»

عَقَّبَ سَلْمَانُ:

«وَقَدْ يَكُونُ الْقَوْلُ السَّيِّدُ هُوَ الْقَوْلُ الْأَمِينُ الَّذِي يُعَبِّرُ بِصَدَقِ
عَمَّا فِي الدَّاحِلِ. فَلَا يَكُونُ فِيهِ زَيْفٌ أَوْ تَصْنَعٌ.»
أَوْمًا لِلْإِمَامِ بِرَأْسِهِ:

«كَلَّا التَّعْرِيفَيْنِ صَحِيحٌ. فَالْقَوْلُ السَّيِّدُ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يُحَقِّقُ
"سَدَادًا" عَلَى جَنْهَتَيْنِ: جَنْهَةٌ "الْمُطَابَقَةُ لِلْحَقِّ" الْخَارِجِيَّةُ، وَجَنْهَةٌ
"الْمُطَابَقَةُ لِلصِّدْقِ" الدَّاحِلِيَّةُ. إِنَّهُ الْكَلَامُ الَّذِي صَبَطَهُ "تَعَقُّلٌ" رَاسِخٌ، فَخَرَجَ
مُحَكَّمًا فِي مَبْنَاهُ، صَادِقًا فِي مَعْنَاهُ.»

«وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ الصِّدْقِ وَالسَّادِ. فَهَنَّاكَ شَرْطُ آخَرٍ،
يَتَعَلَّقُ لَيْسَ بِطَبِيعَةِ الْقَوْلِ، بَلْ بِأَثَرِهِ. يَقُولُ الْحَقُّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:
﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْبًا﴾. وَهَذَا نَنْقِلُ مِنْ دَائِرَةِ "الْحَقِّ" إِلَى دَائِرَةِ "الْجَمَالِ"
وَالْخَيْرِ". فَقَدْ يَكُونُ الْقَوْلُ سَيِّدًا، لَكِنَّهُ فَظٌ غَلِيظٌ يُنْفِرُ النَّاسَ، فَيَطْلُبُ
الَّتَبَيُّانُ الْقَرَائِيَّ مِنْ لِسَانِ الْمُتَعَقِّلِ أَنْ يَكُونَ لِسَانًا جَمِيلًا، لِسَانًا يُرَاعِي
أَحْوَالَ النَّاسِ وَيَرْفُقُ بِهِمْ.»

«وَأَعْظَمُ تَجَسُّدٍ لِقِيَمَةِ الْقَوْلِ الْحَسَنِ هُوَ ذَلِكَ الْمَثَلُ الْخَالِدُ فِي
سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي أَدْعُوكُمْ لِنَتَأَمَّلُوهُ مَعِيَ لِحَظَةٍ. يَقُولُ الْحَقُّ: ﴿أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي
السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. هَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ تَشْبِيهِ بِلَاغِيٍّ،
بَلْ هُوَ تَشْرِيحٌ لِغِنَايَةِ الْكَلِمَةِ الْحَيَّةِ وَأَثَرِهَا.»

«لِنُفَكِّكِ الْمَثَلَ. "كَلِمَةً طَيِّبَةً"، كَلِمَةً حَقٌّ وَخَيْرٌ. تُشَبِّهُ "شَجَرَةً
طَيِّبَةً". مَا هِيَ صِفَاتُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؟»
أَجَابَتْ لَيْلَى بِشَغَفٍ:

«أَصْلُهَا ثَابِتٌ».

سَأَلَ الْإِمَامَ:

«وَمَا هُوَ الْأَصْلُ الثَّابِتُ لِلْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ؟»

صَمَتَ الْجَمِيعُ لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ خَالِدٌ بِتَرَدُّدٍ:

«رَبِّمَا... الصَّدْقُ؟»

قَالَ الْإِمَامُ:

«بَلْ أَعَمَّقُ مِنْ ذَلِكَ، أَصْلُهَا الثَّابِتُ هُوَ "الْقَلْبُ" الَّذِي نَبَعَتْ مِنْهُ. فَإِذَا كَانَتْ نَابِعَةً مِنْ قَلْبٍ مُؤْمِنٍ، مُوقِنٍ، مُطْمَئِنٍّ، جَاءَتْ الْكَلِمَةُ ثَابِتَةً لَا تَهْزُهَا الرِّيَاحُ.»

«ثُمَّ ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾. فُرُوعُهَا، أَيُّ مَعَانِيهَا وَأَثَارُهَا، لَيْسَتْ أَرْضِيَّةً مَحْدُودَةً، بَلْ هِيَ سَامِيَّةٌ، مُتَّصِلَةٌ بِالْحَقَائِقِ الْعُلْيَا.»

«وَأَخِيرًا، النَّتِيجَةُ: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ صَوْتٍ يَتَلَاشَى، بَلْ هِيَ كَائِنٌ حَيٌّ يُنْتِجُ ثَمَرًا مُسْتَمِرًّا. كَلِمَةُ تَشْجِيعٍ تَقُولُهَا لِطِفْلِ قَدْ ثُمِرَ فِيهِ ثِقَةٌ بِالنَّفْسِ تَدُومُ عُمْرَهُ كُلَّهُ. وَكَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَنْقُلُهَا قَدْ ثُمِرَ هِدَايَةٍ فِي قَلْبِ أَجْيَالٍ لَمْ تَرَكَ. هَذَا هُوَ الْأَثَرُ الْمُبَارَكُ لِللسَانِ الَّذِي رَزَّاهُ التَّعَقُّلُ.»

«وَلَكِنْ،» تَغَيَّرَتْ نَبْرَةُ الْإِمَامِ، «لِهَذَا اللِّسَانِ وَجْهٌ آخَرٌ شَدِيدُ الْخُطُورَةِ. وَهُوَ يَظْهَرُ حِينَ "يُفَارِقُ" اللِّسَانُ الْقَلْبَ. حِينَ يَنْطِقُ اللِّسَانُ بِمَا لَيْسَ فِي الْقَلْبِ، هُنَا تَفْعُ كَارِئَةُ الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ. هُنَا يُصِيحُ اللِّسَانُ أَذَاهُ

فَسَادٍ لَا أَدَاةَ بَيَّانٍ. وَلِخُطُورَةِ هَذِهِ الْأَدَاةِ، جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا رَقَابَةً لَصِيقَةً لَا تَغْفُلُ: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». فَكُلُّ كَلِمَةٍ مُحْسُوبَةٌ، لِأَنَّ أَثَرَهَا قَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ أَثَرِ السَّيْفِ.»

صَمَتَ الْإِمَامُ، وَكَانَتْهُ أَرَادَ أَنْ يَدَعَ هَيْبَةَ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ تَأْخُذُ مَكَانَهَا فِي الصُّدُورِ. ثُمَّ قَدَّمَ الْخُلَاصَةَ الْقَاعِدِيَّةَ الثَّامِنَةَ:

«اللسانُ في القرآنِ أداةُ التَّبْلِيغِ وَالتَّفَاعُلِ: يُتَرْجَمُ مَا فِي الْقَلْبِ وَالْفُؤَادِ إِلَى كَلِمَاتٍ، فَإِذَا صَدَقَ الْبَاطِنُ وَاتَّصَلَ بِهِ، صَارَ نُورًا وَبَرَكَةً وَشَجَرَةً طَيِّبَةً. وَإِذَا نَافَقَ وَانْفَصَلَ عَنْهُ، صَارَ فَسَادًا وَفِتْنَةً وَشَجَرَةً خَبِيثَةً. وَمَنْطِقُ الْبَيَّانِ يَسْعَى لِیَجْعَلَ اللِّسَانَ أَدَاةً لِلْحَقِّ وَالْقِيَمَةِ، لَا سِلَاحًا لِلْهَوَى وَالْجَدَلِ.»

سَادَ الصَّمْتُ لَحَظَاتٍ، وَكَانَ كُلُّ مِنَ الطُّلَّابِ يَرِاجِعُ فِي دَاخِلِهِ كَلِمَاتِهِ، تِلْكَ الَّتِي قَالَهَا وَتِلْكَ الَّتِي كَتَمَهَا.

وَكَانَ أَرَسَطُو الصَّغِيرِ، بِحِسِّهِ الْمَنْطِقِيِّ الدَّائِمِ، هُوَ مَنْ فَتَحَ الْبَابَ لِلْفَصْلِ التَّالِي. قَالَ بِطَءٍ وَكَانَتْهُ يَرْكَبُ فِكْرَةً:

«شَيْخَنَا، هَذِهِ الْمَنْطُومَةُ تَزْدَادُ تَرَابُطًا. لَدَيْنَا قُوَى بَاطِنِيَّةٌ، وَلَدَيْنَا لِسَانٌ يُعَبِّرُ عَنْهَا. وَلَكِنْ، لِكَيْ يَكُونَ هُنَاكَ "تَعَقُّلٌ" حَقِيقِيُّ مُسْتَمِرٌّ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ رُدُودِ أَفْعَالٍ لَخَطِيئَةٍ، وَلِكَيْ يَكُونَ "اللسانُ" صَادِقًا وَمُتَّسِقًا مَعَ مَا قَالَهُ بِالْأَمْسِ، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مَلَكَةٍ تَحْفَظُ التَّجَارِبَ السَّابِقَةَ، وَتُخْزِنُ الْمَعَارِفَ الْمُكْتَسَبَةَ، وَتَرْبِطُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ. فَالْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَتَذَكَّرُ لَا يَتَعَقَّلُ. فَمَا هُوَ مَوْقِعُ "الذَّاكِرَةِ" فِي خَرِيطَتِنَا هَذِهِ؟»

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى أَرَسَطُو بِتَقْدِيرٍ.

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«سُؤَالَكَ يُثَبِّتُ أَنَّكَ بَدَأْتَ تَبْنِي الْهَيْكَلَ بِنَفْسِكَ. بِالْفِعْلِ، لَا قِيَمَةَ لِكُلِّ هَذَا بِدُونِ الْوَعَاءِ الْحَافِظِ... وَمَا حِكَايَةُ الذَّاكِرَةِ، فَتِلْكَ حِكَايَةُ أُخْرَى.»

الْفَصْلُ 9: وَعَاءُ الزَّمَنِ

كَانَتْ السَّاعَةُ قَدْ تَجَاوَزَتْ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ، لَكِنَّ أَحَدًا مِنَ الْجَالِسِينَ لَمْ يَشْعُرْ بِثِقَلِ الْوَقْتِ. بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، كَانَتْ أَذْهَانُهُمْ قَدْ بَلَغَتْ دَرَجَةَ مِنَ التَّوَقُّدِ وَالْيَقَظَةِ تَجْعَلُ الْإِحْسَاسَ بِالزَّمَنِ يَتَلَاشَى. الْخَرِيطَةُ الْبَاطِنِيَّةُ لِلْإِنْسَانِ كَانَتْ تَتَكَشَّفُ أَمَامَهُمْ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَقَدْ أَدْرَكُوا فِي اللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ أَنَّهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَى هَائِلَةً: حَوَاسًا تَلْتَقِطُ الْعَالَمَ، وَأَفِيدَةً تَطْبُخُهُ مَشَاعِرَ وَقِيمًا، وَقُلُوبًا يَحْكُمُ وَيُؤْمِنُ، وَصَدْرًا يَتَسِعُ وَيَضِيقُ. وَكَانَ سُؤَالُ أَرِسْطُو الْأَخِيرُ قَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى خَلْقَةِ مَفْقُودَةٍ وَحَاسِمَةٍ فِي كُلِّ هَذَا الْبِنَاءِ.

إِلْتَقَطَ الْإِمَامُ خَيْطَ الْحَدِيثِ مِنْ حَيْثُ أَنْهَاهُ أَرِسْطُو، وَقَالَ بِتَبَرَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ النُّقْطَةِ الْقَادِمَةِ:

«سُؤَالُكَ عَنِ "الْمَخْزَنِ" يَا أَرِسْطُو، هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي يَنْقُلُ بِنَاءَنَا مِنْ مُجَرَّدِ لَحْظَةٍ حَاضِرَةٍ إِلَى كَيْنُونَةٍ مُمْتَدَّةٍ فِي الزَّمَنِ. فَكُلُّ الْقُوَى الَّتِي تَحَدَّثُنَا عَنْهَا - الْحَوَاسُ وَالْأَفِيدَةُ وَالْقَلْبُ وَاللِّسَانُ - سَتَعْمَلُ فِي فَرَاغٍ، سَتَكُونُ كَأَنَّهَا تُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، لَوْلَا وُجُودُ ذَلِكَ الْوِعَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَحْفَظُ الْمَاضِي، وَيُسَكِّلُ الْحَاضِرَ، وَيُوجِّهُ الْمُسْتَقْبَلَ. هَذَا الْوِعَاءُ، هَذَا الْمَخْزَنُ الْهَائِلُ لِلْخَبَرَةِ وَالْإِعْتِبَارِ، هُوَ مَا نُسَمِّيهِ "الذَّاكِرَةَ".»

بَادَرَ مُعَادٌ كَعَادَتِهِ لَوْضَعِ الْإِطَارِ الْعِلْمِيِّ:

«شَيْخَنَا، "الذَّاكِرَةُ" هِيَ إِحْدَى أَكْثَرِ الْوُضَائِفِ الدِّمَاغِيَّةِ دِرَاسَةً. نَحْنُ نَفْهَمُ آليَاتِهَا الْعَصَبِيَّةَ بِدَقَّةٍ مُتَزَايِدَةٍ، مِنْ التَّغْيِيرَاتِ فِي الْمَشَابِكِ الْعَصَبِيَّةِ (Synaptic Plasticity) إِلَى دَوْرِ الْحَصِينِ (Hippocampus) فِي تَشْكِيلِ الذِّكْرِيَّاتِ الْجَدِيدَةِ، وَدَوْرِ الْقِشْرَةِ الْمُخَيَّةِ الْجَدِيدَةِ (Neocortex) فِي تَخْزِينِهَا لِلْمَدَى الطَّوِيلِ. إِنَّهَا قَاعِدَةٌ بَيِّنَاتٍ أَحْيَائِيَّةٍ مُعَقَّدَةٌ لِلْغَايَةِ. فَهَلْ يُضَيَّفُ الْمَنْظُورُ الْقُرْآنِيُّ بَعْدًا آخَرَ غَيْرَ هَذِهِ الْأَلِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ؟»

أَضَافَ أَرِسْطُو:

«وَفِي الْفَلَسَفَةِ أَيْضًا، كَانَتِ الذَّاكِرَةُ مَحْوَرِيَّةً. فَقَدْ رَأَاهَا أَفَلَاطُونُ "تَذَكُّرًا" (Anamnesis) لِلْحَقَائِقِ الْأَرْثِيَّةِ الَّتِي عَرَفَتْهَا الرُّوحُ قَبْلَ هُبُوطِهَا إِلَى الْجَسَدِ. بَيْنَمَا رَأَاهَا أَرِسْطُو بِشَكْلِ أَكْثَرِ وَاقِعِيَّةٍ، كَمَخْزَنِ لُصُورِ الْإِذْرَاكَاتِ الْجَسَدِيَّةِ الْمَاضِيَةِ. فَأَيْنَ يَقِفُ الْمَنْظُورُ الْقُرْآنِيُّ مِنْ هَذَيْنِ التَّصَوُّرَيْنِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«مَرَّةً أُخْرَى، نَرَى كَيْفَ أَنَّ الْمَنْظُورَ الْعِلْمِيَّ وَالْفَلَسَفِيَّ يَهْتَمَّانِ بِـ"مَاهِيَّةِ" الذَّاكِرَةِ وَ"آليَّتِهَا"، وَهِيَ بُحُوثٌ مُبَارَكَةٌ وَنَافِعَةٌ. أَمَّا الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ، فَكَعَادَتِهِ، يَهْتَمُّ أَوَّلًا بِـ"وُظَيْفَةِ" الذَّاكِرَةِ وَ"غَايَتِهَا" فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ. إِنَّهُ لَا يَتَعَامَلُ مَعَ الذَّاكِرَةِ كـ"مَخْزَنِ" سَلْبِيٍّ نَكْدَسُ فِيهِ الْمَعْلُومَاتِ، بَلْ كَعَضْوٍ حَيٍّ يَجِبُ تَفْعِيلُهُ وَاسْتِدْعَاؤُهُ وَنَنْشِيطُهُ بِاسْتِمْرَارٍ. وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ الْكَلِمَةَ الْمِفْتَاحَ لِفَهْمِ الذَّاكِرَةِ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَتْ "تَخْزِينًا"، بَلْ هِيَ "ذِكْرٌ" وَ "تَذَكُّرٌ".»

«إِنَّ "الْتَعَقُّلَ"، وَاصِلَ الْإِمَامِ، «لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْمَلَ فِي فَرَاغٍ. إِنَّهُ مِثْلُ طَاحُونَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى حُبُوبٍ لِتَطْحَنَهَا. وَهَذِهِ الْحُبُوبُ هِيَ الْمَعْلُومَاتُ وَالْجَبَرَاتُ وَالْصُّورُ الْمَحْفُوظَةُ فِي الذَّاكِرَةِ. فَالْتَعَقُّلُ بِلا ذَّاكِرَةٍ هُوَ طَاحُونَةٌ تَدُورُ عَلَى الْهَوَاءِ، لَا تُنْتِجُ طَحِينًا. إِنَّ عَمَلَهُ الْأَسَاسِيَّ هُوَ أَنْ يَسْتَدْعِيَ الْمَعَارِفَ الْمَحْزُونَةَ، ثُمَّ يَرْكَبُهَا فِي مِيزَانٍ جَدِيدٍ يُوَاجِهُ بِهِ وَاقِعًا جَدِيدًا.»

«وَلِهَذَا السَّبَبِ، تَجِدُونَ الْقُرْآنَ مَلْبِيًا بِالْأَمْرِ بِ"الذِّكْرِ". وَهُوَ لَيْسَ مَجَرَّدَ فِعْلٍ تَعَبُّدِيٍّ، بَلْ هُوَ عَمَلِيَّةٌ إِدْرَاكِيَّةٌ عَلَيَّا لِتَنْشِيطِ الذَّاكِرَةِ وَتَوْجِيهِهَا. تَأْمَلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. هَذَا لَيْسَ عِلَاجًا لِنَسْيَانٍ مَكَانٍ مَفَاتِيحِكَ فَحَسْبُ. "النَّسْيَانُ" الْأَخْطَرُ هُنَا هُوَ "الْعَقْلُ"، نَسْيَانُ الْمَرْءِ لِرَبِّهِ وَلِعَايَةِ وُجُودِهِ. فَيَأْتِي الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ لِيَقُولَ لَكَ: إِنَّ الْعِلَاجَ الْأَعْظَمَ لِكُلِّ أَنْوَاعِ النَّسْيَانِ وَالشُّرُودِ هُوَ أَنْ تُعِيدَ ضَبْطَ بُوَصْلَتِكَ نَحْوَ الْمَرْكَزِ الْأَوَّلِ، أَنْ تَذْكُرَ رَبَّكَ. فَإِذَا حَصَرَ ذِكْرَهُ، حَصَرَتْ مَعَهُ كُلُّ الْمَعَانِي الْأُخْرَى وَانْتَضَمَتْ.»

«ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْقُرْآنُ لِيَحَدِّدَ لَنَا مَاذَا نَتَذَكَّرُ بِالضَّبْطِ. فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ يَقُولُ: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. "آلَاءُ اللَّهِ" هِيَ نِعْمَةُ الْعَظِيمَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَالْأَمْرُ بِتَذَكُّرِهَا هُوَ تَمَرُّنٌ مُسْتَمِرٌّ لِلذَّاكِرَةِ لِتَرْصُدِ الْإِيجَابِيَّاتِ وَتُبْنِيَّ حَالَةٍ مِنَ الْأَمْتِنَانِ الَّتِي هِيَ أَرْضِيَّةٌ خُصِيَّةٌ لِلْتَعَقُّلِ السَّلِيمِ. فَالذَّاكِرَةُ الَّتِي لَا تَتَذَكَّرُ إِلَّا الْمَصَائِبَ وَالْآلَامَ تَوَرَّتْ تَعَقُّلًا سَاحِطًا وَيَاسًا.»

وَاصِلَتْ لَيْلَى:

«هَذَا صَحِيحٌ. أَحْيَانًا عِنْدَمَا أَكُونُ فِي ضَيْقٍ، أَجْبِرُ نَفْسِي عَلَى أَنْ أَكْتُبَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ جَيِّدَةٍ حَدَثَتْ لِي. هَذَا الْفِعْلُ الْبَسِيطُ، فِعْلُ "الْتَذَكُّرِ"،

يُغَيِّرُ مَزَاجِي وَطَرِيقَةَ تَفَكِيرِي بِالْكَامِلِ.»
أَصَافَ الْإِمَامُ:

«وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ يَتَّبِعُ مَفْهُومُ الذِّكْرِ لِيَشْمَلَ الْمَنْهَجَ: «وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ». هُنَا الذَّاكِرَةُ مَطْلُوبٌ مِنْهَا أَنْ تَحْفَظَ لَا النَّعَمَ الْكُونِيَّةَ فَقَطْ، بَلِ النِّعْمَةَ الْمَعْرِفِيَّةَ الْكُبْرَى: الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ. فَالذَّاكِرَةُ هِيَ وَعَاءُ الْوَحْيِ فِي دَاخِلِنَا.»

«وَمِنْ هُنَا نَنْتَقِلُ إِلَى الْوُظَيْفَةِ الثَّانِيَةِ لِلذَّاكِرَةِ، وَهِيَ "الْإِعْتِبَارُ". وَالْإِعْتِبَارُ، مِنَ الْجَذْرِ "عَبَر"، يَعْنِي الْقُدْرَةَ عَلَى "الْعُبُورِ" مِنْ حَدَثٍ مَا ضِىءَ مَحْفُوظٍ فِي الذَّاكِرَةِ إِلَى دَرَسٍ وَعِبْرَةٍ فِي الْحَاضِرِ. وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْقَصَصِ الْفَرَاغِيِّ، لِذَلِكَ يَتَكَدَّرُ الْأَمْرُ: «وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ»، «وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى». لِمَاذَا؟ لِتَتَحَوَّلَ حَيَاتُهُمْ الْمَحْفُوظَةُ فِي ذَاكِرَتِنَا الْجَمْعِيَّةِ إِلَى مَادَّةٍ لِلتَّعْقُلِ وَالْإِعْتِبَارِ، فَتَعْبُرُ مِنْ أَخْطَائِهِمْ وَاتِّصَارَاتِهِمْ إِلَى حِكْمَةٍ تُبَيِّرُ دَرْبَنَا.»

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«هَذَا هُوَ أَسَاسُ عِلْمِ التَّارِيخِ وَفَلَسَفَتِهِ. "مَنْ غَفَلَ عَنِ التَّارِيخِ أَعَادَ أَخْطَاءَهُ". فَالذَّاكِرَةُ التَّارِيخِيَّةُ لِلأُمَّةِ هِيَ شَرْطٌ لِتَعْقُلِهَا الصَّحِيحِ فِي الْحَاضِرِ.»

«أَحْسَنْتِ»، قَالَ الْإِمَامُ. «وَكَمَا أَنَّ لِلذَّاكِرَةِ وَظِيفَتَهَا الْإِيجَابِيَّةَ فِي الذِّكْرِ وَالْإِعْتِبَارِ، فَإِنَّ لَهَا أَمْرَاضَهَا الْفَاتِلَةَ، وَهِيَ "الْعَفْلَةُ" وَ "النَّسْيَانُ". أَمَّا "الْعَفْلَةُ"، فَهِيَ لَيْسَتْ فَقْدَانُ الْمَعْلُومَةِ، بَلْ هِيَ تَعْطِيلُ الْوُصُولِ إِلَيْهَا. كَأَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ كَنْزٌ مَذْفُونٌ فِي أَرْضِكَ وَلَكِنَّكَ لَا تُكَلِّفُ نَفْسَكَ عَنَاءَ الْحَفْرِ لِأَسْتِخْرَاجِهِ. الْغَافِلُ هُوَ مَنْ تَكَدَّسَتْ فِي ذَاكِرَتِهِ الْآيَاتُ وَالْعِبَرُ،

وَلِكِنَّهُ لَا يَسْتَنْدِعِيهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَيَعِيشُ كَأَنَّهُ بِلَا ذَاكِرَةٍ.»

«أَمَّا "النَّسْيَانُ" فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ فَأَعَمَّقِي مِنْ مُجَرَّدِ خَلِّ عَصَبِيٍّ. إِنَّهُ أَحْيَانًا يَكُونُ عُقُوبَةً. تَأَمَّلُوا هَذِهِ الْآيَةَ الْمُرْعَبَةَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾. يَا لِلْعُقُوبَةِ! عِنْدَمَا يَنْسَى الْعَبْدُ رَبَّهُ، يُعَاقِبُهُ اللَّهُ بِأَنْ يَمْحُو مِنْ ذَاكِرَتِهِ أَهَمَّ مَعْلُومَةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ: حَقِيقَةُ نَفْسِهِ، وَغَايَةُ وُجُودِهِ، وَمَصْدَرُ سَعَادَتِهِ. يَصِيرُ غَرِيبًا عَنْ ذَاتِهِ، وَهَذَا أَشَدُّ أَنْوَاعِ الضِّيَاعِ.»

«وَلَعَلَّ أَكْبَرَ دَرِيسٍ تَطْبِيقِيٍّ عَلَى دَوْرِ الذَّاكِرَةِ فِي مَصِيرِ الْأَمَمِ هُوَ مَا يَعْرِضُهُ الْقُرْآنُ فِي قِصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، خُصُوصًا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. مَا هِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَتَكَرَّرُ مَرًّا وَتَكَرَّرًا فِي خِطَابِ اللَّهِ لَهُمْ؟»

أَجَابَتْ لَيْلَى عَلَى الْقَوْرِ:

«"اذْكُرُوا". «يَتَبَيَّنُ إِسْرَءِيلُ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ».

قَالَ الْإِمَامُ:

«بِالضَّبْطِ. كَانَ مُشْكِلَتَهُمُ الْجَوْهَرِيَّةُ كَانَتْ "ذَاكِرَةً مَثْقُوبَةً". يَمُنُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ كَاللَّجَاةِ مِنْ فِرْعَوْنَ، فَتَدْخُلُ الذَّاكِرَةُ. ثُمَّ بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، يَقْعُونَ فِي أَوَّلِ اخْتِبَارٍ، فَيَنْسَوْنَ النِّعْمَةَ الْكَامِلَةَ وَيَعْبُدُونَ الْعِجْلَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيُطْعِمُهُمُ الْيَمَنَ وَالسَّلَوى، فَتَدْخُلُ الذَّاكِرَةُ. ثُمَّ يَنْسَوْنَ وَيَتَذَمَّرُونَ وَيَطْلُبُونَ الْبَصَلَ وَالْقِتَاءَ. إِنَّهَا دَوْرَةٌ مُؤَلِّمَةٌ مِنْ "النِّعْمَةِ، فَالنَّسْيَانِ، فَالْإِنْجَرَفِ". وَكَانَ الْعِلَاجُ الْإِلَهِيُّ دَائِمًا هُوَ نَفْسُهُ: "تَذَكَّرُوا!". فَنِسْيَانُهُمْ لِلْمَاضِي أَفْقَدَ تَعَقُّلَهُمُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِعْتِبَارِ وَاتِّخَاذِ الْقَرَارِ الصَّحِيحِ فِي الْحَاضِرِ.»

أَطْرَقَ الْإِمَامُ لَحْظَةً، ثُمَّ قَدَّمَ الْقَاعِدَةَ التَّاسِعَةَ الَّتِي تُلْخِصُ كُلَّ شَيْءٍ:

«الذَّاكِرَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ مَخْزَنُ الْخَبَرَةِ وَالْإِعْتِبَارِ: فَبِهَا يُفَعَّلُ الْتَّعْقُلُ مَا مَضَى لِإِضْلَاحِ مَا هُوَ آتٍ. وَمَنْ أَحْيَا ذَاكِرَتَهُ بِالذِّكْرِ وَالْإِعْتِبَارِ كَانَ تَعْقُلُهُ حَيًّا وَعَمِيقًا، وَمَنْ طَمَسَهَا بِالْعَفْلَةِ وَالنَّسْيَانِ ضَاعَ مِيزَانُهُ وَتَكَرَّرَتْ أَخْطَاؤُهُ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الطُّلَابِ كَانَ يُقَلِّبُ فِي صَفَحَاتِ ذَاكِرَتِهِ الْخَاصَّةِ، يَبْحَثُ عَنِ النِّعَمِ الْمُنْسِيَّةِ وَالْعِبَرِ الْمُهْمَلَةِ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ خَالِدٌ، وَكَانَ صَوْتُهُ يَحْمِلُ نَبْرَةً مَن وَجَدَ حَلْفَةً أُخْرَى فِي سِلْسِلَةٍ مُحْيِرَةٍ. قَالَ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ الصُّورَةَ تَكَادُ تَكْتَمِلُ. أَفَهُمَ الْآنَ أَهَمِّيَّةَ هَذَا الْمَخْزَنِ الْعَظِيمِ، الذَّاكِرَةِ. إِنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِـ "مَا كَانَ". لِكِنِّي أَنَا أَعِيشُ الْآنَ، فِي "مَا هُوَ كَائِنٌ". أَحْيَانًا تَوَاجِهْنِي مَوَاقِفُ جَدِيدَةٍ تَمَامًا، لَا يُوجَدُ لَهَا مَثِيلٌ فِي مَخْزُونِ ذَاكِرَتِي. وَأَحْيَانًا أَشْعُرُ أَنَّ ذِكْرَيَاتِي السَّيِّئَةَ تَحْسِينِي وَتَمْنَعُنِي مِنْ خَوْضِ تَجَارِبِ جَدِيدَةٍ. فَكَيْفَ يَتَعَامَلُ الْتَّعْقُلُ مَعَ اللَّحْظَةِ الْحَاضِرَةِ؟ مَا هِيَ عِلَاقَةُ كُلِّ هَذَا الْمَخْزُونِ الْمَاضِي بِالتَّجَرِبَةِ الْحَيَّةِ الَّتِي أَخُوْضُهَا الْآنَ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

«أَحْسَنْتَ الْفَصْلَ يَا خَالِدُ. لَقَدْ مَيَّزْتَ بَيْنَ "مَخْزُونِ الْمَاضِي" وَ"تَدْقُقِ الْحَاضِرِ". وَكَيْفِيَّةِ التَّفَاعُلِ بَيْنَهُمَا هِيَ قَلْبُ عَمَلِيَّةِ الْحِكْمَةِ. وَهَذِهِ هِيَ قِصَّةُ "التَّجَرِبَةِ"، وَهِيَ مَوْضُوعُ مَجْلِسِنَا الْقَادِمِ.»

الْفَصْلُ الْعَاشِرُ: مَيْدَانُ التَّجَرُّبَةِ

كَانَ الْهُدُوءُ فِي الْمَجْلِسِ قَدْ أَخَذَ طَابَعًا جَدِيدًا. لَمْ يَعْذُ هُدُوءَ التَّرَقُّبِ الْغَامِضِ، بَلْ هُدُوءَ الَّذِينَ تَجَمَّعَتْ لَدَيْهِمْ أَجْزَاءُ خَرِيطَةِ مُعَقَّدَةٍ وَبَدَّوْا يَرَوْنَ الصُّورَةَ الْكُلِّيَّةَ تَتَشَكَّلُ أَمَامَهُمْ. لَقَدْ غَاصُوا فِي عُمُقِ الذَّاتِ، وَاکْتَشَفُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ صُنْدُوقًا أَسْوَدَ، بَلْ هِيَ مَمْلَكَةٌ غَامِرَةٌ بِالْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ: حُصُونٌ وَقُصُورٌ، وَوَرَشٌ وَمَخَازِنٌ، وَسَفَرَاءُ. وَكَانَ سُؤَالُ خَالِدٍ الْأَخِيرُ، الَّذِي نَبَعَ مِنْ قَلْبِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ، قَدْ فَتَحَ الْبَابَ عَلَى الْفَصْلِ الْأَخِيرِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الرِّحْلَةِ: الْعَلَاقَةُ بَيْنَ كُلِّ هَذَا الْمَخْزُونِ الْمَاضِي وَالتَّدْفِقِ الْحَاضِرِ لِلْحَيَاةِ.

إِلْتَقَطَ الْإِمَامُ حَيْظَ الْحَدِيثِ وَقَالَ:

«سُؤَالُكَ يَا خَالِدُ هُوَ السُّؤَالُ الْأَكْثَرُ إلْحَاحًا عَلَى كُلِّ مَنَّا. لَقَدْ تَحَدَّثْنَا بِاسْتِيفَاضَةٍ عَنِ "الذَّاكِرَةِ" كَمَخْزَنِ عَظِيمٍ لِمَا "كَانَ". وَلَكِنَّا لَا نَعِيشُ فِي الْمَاضِي، بَلْ نَحْيَا فِي "مَا هُوَ كَائِنٌ". كُلُّ يَوْمٍ، بَلْ كُلُّ لَحْظَةٍ، هِيَ صَفْحَةٌ جَدِيدَةٌ فِي كِتَابِ حَيَاتِنَا. فَكَيْفَ نَسْتَخْدِمُ جَبْرَ الْمَاضِي الْمَخْزَنِ فِي الذَّاكِرَةِ، لِنَكْتُبَ بِحِكْمَةٍ فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ الْجَدِيدَةِ؟ هَذَا السُّؤَالُ هُوَ سُؤَالُ "التَّجَرُّبَةِ".»

بَادَرَ مُعَاذُ، وَكَانَتْهُ وَجَدَ مِرْسَاةً عِلْمِيَّةً فِي هَذَا الْبَحْرِ الْمُتَلَاطِمِ مِنْ

الْمَفَاهِيم:

«شَيْخَنَا، "التَّجَرُّبَةُ" (Experience) هِيَ الْكَلِمَةُ الْمِفْتَاحُ لِكُلِّ الْعُلُومِ التَّجَرُّبِيَّةِ (Empirical Sciences). وَلَكِنْ لِكَيْ تَكُونَ التَّجَرُّبَةُ مَصْدَرًا مُوْتَوْفًا لِلْمَعْرِفَةِ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ "مَضْبُوطَةً" (Controlled). نَحْنُ نَقُومُ بِ"تَجَرُّبَةٍ عِلْمِيَّةٍ" (Experiment)، حَيْثُ نَضْعُ فَرَضِيَّةً، وَنُثَبِّتُ الْمُنْعَيَّرَاتِ، وَنُجْرِي الْأَخْتِبَارَ، وَنُسَجِّلُ الْبَيَانَاتِ الْقَابِلَةَ لِلْقِيَاسِ. أَمَّا التَّجَارِبُ الشَّخْصِيَّةُ الْعَفْوِيَّةُ، مَعَ كُلِّ أَحْزَامِي، فَهِيَ مُجَرَّدُ "حِكَايَاتٍ" (Anecdotes)، مَلِيَّةٌ بِالتَّحْيِزَاتِ الدَّائِيَّةِ وَالتَّفْسِيرَاتِ الْإِنْطِبَاعِيَّةِ. فَهَلْ نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنِ النَّوعِ الْأَوَّلِ أَمْ الثَّانِي؟»

أَصَافُ أَرْسُطُو:

«وَالْفَلَسَافَةُ الْعَقْلَانِيُونَ قَدْ حَذَرُوا دَوْمًا مِنْ أَنَّ "الْعَقْلَ" (Logos) يَبْحَثُ عَنِ الْحَقَائِقِ الْكُلِّيَّةِ الثَّابِتَةِ، وَهِيَ حَقَائِقُ "نَظَرِيَّةٍ" بِالطَّبْعِ. أَمَّا "التَّجَرُّبَةُ"، فَهِيَ بِطَبِيعَتِهَا جُزْئِيَّةٌ وَمُتَغَيِّرَةٌ، وَتَنْتَمِي إِلَى عَالَمِ الظَّوَاهِرِ الْمُتَقَلِّبِ، لَا عَالَمِ الْجَوْهَرِ الثَّابِتِ. قَدْ تُعْطِينَا التَّجَرُّبَةُ مَادَّةً خَامًا لِلتَّفَكِيرِ، لَكِنْ أَيْتَبَغِي أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمَيْدَانِ النَّهَائِيَّ لِإثْبَاتِ صِحَّةِ التَّعَقُّلِ؟ أَلَيْسَتْ النِّظَرِيَّةُ الْمُحْكَمَةُ أَسْمَى مِنَ التَّطْبِيقِ الْمَشْوَشِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«أَرَى كَيْفَ أَنَّ كِلَا الطَّرْحَيْنِ، الْعِلْمِيَّ وَالْفَلَسَفِيَّ، يَشْتَرِكَانِ فِي نَوْعٍ مِنَ الْخَوْفِ أَوْ الْحَذَرِ مِنَ "التَّجَرُّبَةِ الْحَيَّةِ" غَيْرِ الْمَضْبُوطَةِ. وَلِهَذَا سَبَبٌ وَجِيهٌ. فَهِيَ بِالْفِعْلِ مَجَالٌ مُعَقَّدٌ وَمَلِيءٌ بِالْأَهْوَاءِ. وَلَكِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ لَا يَهْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَيْدَانِ، بَلْ يَقْتَحِمُهُ وَيَجْعَلُهُ هُوَ الْمَرْكَزَ وَالْمَحْوَرَ. كَيْفَ؟ عَنْ طَرِيقِ إِعَادَةِ تَأْطِيرِ التَّجَرُّبَةِ كُلِّهَا.»

«فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ، لَيْسَتْ التَّجَرُّبَةُ مُجَرَّدَ حَدَثٍ عَفْوِيٍّ أَوْ حِكَايَةِ شَخْصِيَّةٍ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ فُرْصَةٍ لَجَمْعِ الْبَيِّنَاتِ. إِنَّهَا أَشْمَلُ وَأَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ. إِنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا، بِكُلِّ تَجَارِبِهَا، هِيَ "مَيِّدَانُ أُبْتِلَاءٍ"، أَيُّ مَجَالٍ اخْتِبَارٍ هَادِفٍ. كُلُّ تَجَرُّبَةٍ تَمُرُّ بِهَا، صَغُرَتْ أَمْ كَبُرَتْ، سَارَّةٌ كَانَتْ أَمْ مُؤْلِمَةً، هِيَ فِي جَوْهَرِهَا سُؤَالٌ يُوجِّهُهُ الْخَالِقُ إِلَيْكَ، وَتَعَقُّلُكَ وَسُلُوكُكَ هُمَا إِجَابَتُكَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ.»

«وَأَوْضَحَ آيَةً فِي ذَلِكَ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ». هَذِهِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَصَائِبَ، بَلْ هِيَ أَدَوَاتٌ اخْتِبَارٌ دَقِيقَةٌ: الْخَوْفُ يَخْتَبِرُ الشَّجَاعَةَ وَالتَّوَكُّلُ، وَالْجُوعُ يَخْتَبِرُ الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ، وَالنَّقْصُ فِي الْأَمْالِ وَالْأَنْفُسِ يَخْتَبِرُ الزُّهْدَ وَالْإِيمَانَ بِالْآخِرَةِ. هَكَذَا تَصِيرُ التَّجَرُّبَةُ الْمُؤْلِمَةُ فُرْصَةً لِتَفْعِيلِ أَرْقَى دَرَجَاتِ التَّعَقُّلِ.»

إِلْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى لَيْلَى، وَقَالَ لَهَا بِلُطْفٍ:

«أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ قَدْ يَبْدُو نَظَرِيًّا يَا لَيْلَى. هَلْ لَكَ أَنْ تُشَارِكِنَا، إِنْ شِئْتَ، بِتَجَرُّبَةٍ شَخْصِيَّةٍ شَعَرْتَ فِيهَا بِهَذَا التَّحَوُّلِ؟»

تَرَدَّدَتْ لَيْلَى قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتٍ خَافٍ وَلَكِنَّهُ ثَابِتٌ:

«نَعَمْ... مِنْذُ سَنَتَيْنِ، خَسِرْتُ وَظِيفَتِي الَّتِي كُنْتُ أُجِبُّهَا بِشَكْلِ مُفَاجِئٍ. فِي الْبِدَايَةِ، كَانَتْ التَّجَرُّبَةُ مُجَرَّدَ أَلَمٍ خَامٍ. شَعَرْتُ بِ "الْخَوْفِ" مِنْ الْمُسْتَقْبَلِ، وَبِ "نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ". كَانَ تَعَقُّلِي مَشْلُوبًا، لَا أَرَى إِلَّا الظُّلْمَ وَالْقَلَقَ. وَلَكِنْ بَعْدَ فِتْرَةٍ، بَدَأْتُ أَتَذَكَّرُ هَذِهِ الْآيَةَ... بَدَأْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي: "مَاذَا لَوْ كَانَ هَذَا اخْتِبَارًا؟ مَاذَا لَوْ كَانَ سُؤَالًا مِنَ اللَّهِ؟". هَذَا السُّؤَالُ وَحْدَهُ غَيَّرَ كُلَّ شَيْءٍ. بَدَلًا مِنَ الشُّكْوَى، بَدَأْتُ أَفَكِّرُ فِي الصَّبْرِ. بَدَلًا مِنْ

الْيَأْسِ، بَدَأْتُ أَبْحَثُ عَنْ فُرْصِ جَدِيدَةٍ. تَحَوَّلَتِ التَّجَرِبَةُ مِنْ كَوْنِهَا مُصِيبَةً إِلَى كَوْنِهَا فُرْصَةً لِإِعَادَةِ اكْتِشَافِ نَفْسِي وَقُوَّتِي. لَمْ يَخْتَفِ الْأَلَمُ، لَكِنْ "تَعَقُّلِي" لِلْأَلَمِ تَغَيَّرَ.»

شَكَرَهَا الْإِمَامُ وَقَالَ:

«شُهِدْتُكَ هَذِهِ يَا لَيْلَى هِيَ الْقَلْبُ النَّايِضُ لِدَرْسِنَا. لَقَدْ بَيَّنْتَ كَيْفَ أَنَّ التَّعَقُّلَ يُفَعِّلُ فِي التَّجَرِبَةِ. فَيَدُونُ التَّجَرِبَةَ، كَانَتْ كُلُّ الْأَفْكَارِ الْجَمِيلَةِ عَنِ الصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ سَتَبْقَى مَعَارِفَ نَظَرِيَّةٍ بَاهِتَةٍ فِي ذَهْنِكَ، كَمَا يُشِيرُ أَرِسْطُو. لَكِنَّ التَّجَرِبَةَ أَجْبَرَتْ تَعَقُّلِكَ عَلَى أَنْ يُحَوِّلَ هَذِهِ الْمَعَارِفَ إِلَى وَاقِعٍ حَيٍّ. فَبِلَا تَجَرِبَةٍ، يَبْقَى التَّعَقُّلُ مَجْرُودًا لَا يُفَلِّحُ لَهُ وَلَا مُصْداقِيَّةً.»

«وَمِنْ هُنَا نَنْتَقِلُ إِلَى الْوُظَيْفَةِ الثَّانِيَةِ لِلتَّعَقُّلِ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ، وَهِيَ تَحْوِيلُ التَّجَرِبَةِ إِلَى "عِبْرَةٍ". وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى الْجَامِعُ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾. "الْإِعْتِبَارُ" هُوَ أَنْ "تَعَبَّرَ" مِنْ صِفَةِ الْحَدَثِ الْوَاقِعِيِّ إِلَى صِفَةِ الدَّرْسِ وَالْحِكْمَةِ. وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْعُبُورِ هِيَ مِنْ أَرْقَى وَطَائِفِ التَّعَقُّلِ.»

«وَلِهَذَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَكْتَفِي بِأَنْ يَدْعُونَا لِحَوْضِ تَجَارِبِنَا الْخَاصَّةِ، بَلْ يَدْعُونَا لِلسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِنَتَعَلَّمَ مِنْ تَجَارِبِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ. يَقُولُ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾. إِنَّهَا دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ لِتَحْوِيلِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ بِأَكْمَلِهِ إِلَى مَحْتَبَرٍ تَجْرِبِيٍّ صَحِيحٍ لِنَتَعَلَّقَ، لِنَسْتَخْلِصَ مِنْهُ "سُنَنٌ" اللَّهُ الثَّانِيَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ وَالْأَخْلَاقِ.»

«وَأَعْظَمُ مِثَالٍ تَطْبِيقِيٍّ عَلَى هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ - عَمَلِيَّةِ تَحْوِيلِ التَّجَرِبَةِ إِلَى عِبْرَةٍ - هُوَ تَعَامُلُ الْقُرْآنِ مَعَ أَحْدَاثٍ غَرَوَةٍ أَحَدٍ. لَقَدْ كَانَتْ غَرَوَةُ أَحَدٍ

تَجَرِبَةً قَاسِيَةً وَمُؤَلِمَةً لِلْعَاقِبَةِ، هَزِيمَةً عَسْكَرِيَّةً وَكَارِثَةً نَفْسِيَّةً لِلْمُجْتَمَعِ
الْمُسْلِمِ الْأَوَّلِ.»

سَأَلَ الْإِمَامُ:

«لَوْ كُنَّا نَحْلُلُ هَذِهِ التَّجَرِبَةَ بِعَقْلِ مَجْرُودٍ، فَمَاذَا كُنَّا سَنَقُولُ؟»

أَجَابَ أَرِسْطُو بِسُرْعَةٍ:

«كُنَّا سَنَقُولُ إِنَّهَا كَانَتْ خَطَأً تَكْتِيكِيًّا. مُخَالَفَةً لِلرُّمَةِ لِأَوَامِرِ الْقَائِدِ
أَدَّتْ إِلَى انْكِشَافِ الْجَيْشِ وَالْهُجُومِ الْمُضَادِّ. الْخَلَاصَةُ: الْإِلْتِزَامُ بِالْخُطَّةِ
الْعَسْكَرِيَّةِ ضَرُورِيٌّ لِلنَّصْرِ.»

قَالَ الْإِمَامُ:

«تَحْلِيلٌ صَحِيحٌ، لَكِنَّهُ سَطَحِيٌّ. أَمَّا الْقُرْآنُ، فَقَدْ أَخَذَ هَذِهِ التَّجَرِبَةَ
الدَّائِمِيَّةَ وَحَوَّلَهَا إِلَى دَرَسٍ خَالِدٍ فِي "تَعَقُّلٍ" الْهَزِيمَةِ. لَمْ يَتَوَقَّفْ عِنْدَ الْخَطَأِ
التَّكْتِيكِيِّ، بَلْ غَاصَ لِيُكْشِفَ عَنِ الْأَمْرَاضِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَيْهِ: حُبُّ
الدُّنْيَا (الرَّغْبَةُ فِي الْغَنَائِمِ)، وَالْخِلَافُ وَالتَّنَازُعُ. ثُمَّ لَمْ يَنْزُكْهُمْ فِي حَالَةِ
الْيَأْسِ، بَلْ رَفَعَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾. لَقَدْ حَوَّلَ الْقُرْآنُ التَّجَرِبَةَ مِنْ مُجَرَّدِ حَدَثٍ عَارِضٍ إِلَى "عِبْرَةٍ"
رَاسِخَةٍ، وَمِنْ هَزِيمَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ إِلَى "مِيزَانٍ" تَرْبَوِيٍّ يُصَحِّحُ مَسَارَ الْأُمَّةِ. هَذِهِ
هِيَ قِمَّةُ التَّعَقُّلِ فِي التَّجَرِبَةِ.»

«فَالْخَطَرُ الْكَبِيرُ يَا أَجَبْتِي،» قَالَ الْإِمَامُ، «هُوَ أَنْ نَقَعَ فِي فِخٍّ
"الْعَقْلَةِ"، فَنَمَرَّ بِالْتَّجَارِبِ مُرُورَ الْكَرَامِ. عِنْدَهَا، تَتَحَوَّلُ التَّجَرِبَةُ إِلَى مُجَرَّدِ
"عَادَةٍ" بِلَا دَرَسٍ، فَتُكَرِّرُ نَفْسَ الْأَخْطَاءِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَنَحْنُ لَا نَدْرِي لِمَاذَا.

وَهَكَذَا يَضِيعُ الْمِيزَانُ.»

تَنْفَسُ الْإِمَامُ بِعُمُقٍ وَكَأَنَّهُ يَسْتَوْعِبُ كُلَّ مَا قِيلَ، ثُمَّ قَدَّمَ الْقَاعِدَةَ الْعَاشِرَةَ:

«الْتَّجَرِبَةُ فِي الْفُرَاقِ هِيَ مَجَالُ الْأَخْتِبَارِ وَالْتَّطْبِيقِ: فِيهَا يَتَحَوَّلُ الْتَّعَقُّلُ مِنْ مَعْرِفَةٍ نَظَرِيَّةٍ إِلَى حِكْمَةٍ مُمَارَسَةٍ، وَمِنْ وَعْيٍ مُجَرَّدٍ إِلَى مِيزَانٍ حَيٍّ يَصْحَحُ الْحَيَاةَ وَيُقِيمُهَا عَلَى الْحَقِّ. فَمَنْ لَا يَغْتَبِرُ بِتَجَرِبَتِهِ، لَا يَكْتُمِلُ تَعَقُّلُهُ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَلَأَوَّلَ مَرَّةٍ، كَانَ أَرْسَطُو هُوَ الَّذِي بَدَأَ عَلَيْهِ التَّائُّرُ الْعَمِيقُ. كَانَتْ فِكْرُهُ تَفُوقِي النِّظَرِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ تَهْتَرُ فِي دَاخِلِهِ. قَالَ بِبُطْءٍ وَكَأَنَّهُ يَرْتَبُ أَفْكَارَهُ:

«شَيْخَنَا... لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ مُذْهَلَةً. لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَيَّ الْآنَ عَشْرُ قِطَعٍ لِهَذِهِ الْأُحْجِيَّةِ الْعَظِيمَةِ. لَدَيْنَا "الْتَّعَقُّلُ" وَ"الْبَيَانُ" كَأَطَارِ عَامٍّ. ثُمَّ غُضْنَا فِي الْمَكُونَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ: "الرُّوحُ" وَ"النَّفْسُ" وَ"الْقَلْبُ" وَ"الْأَفْئِدَةُ" وَ"الْصَّدْرُ". ثُمَّ الْبَوَابَاتُ وَالْأَدَوَاتُ: "الْحَوَاشِ" وَ"اللسانُ" وَ"الذَّاكِرَةُ". وَالْيَوْمَ وَضَعْنَا كُلَّ هَذَا فِي مِيدَانِ "الْتَّجَرِبَةِ".»

تَوَقَّفَ أَرِسْطُو لَحْظَةً، ثُمَّ وَاصَلَ بِحَمَاسٍ فِكْرِيٍّ:

«لَكِنَّ عَقْلِي الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ النِّظَامِ وَالتَّرْكِيبِ لَا يَزَالُ يَسْأَلُ: كَيْفَ تَعْمَلُ كُلُّ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ مَعًا فِي "الْتَّحْتُ" ("الْجَوْفَةُ الْمُوسِيقِيَّةُ") الْوَاحِدَةِ؟ لَقَدْ أَشْرَبَتْ مِرَارًا إِلَى فِكْرَةِ "الْمِيزَانِ". فَكَيْفَ يَعْمَلُ "الْتَّعَقُّلُ" بِوَصْفِهِ الْمِيزَانِ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَحْفَظُ التَّوَازْنَ بَيْنَ كُلِّ هَذِهِ الْمَكُونَاتِ؟ كَيْفَ يَزِنُ نِدَاءَ "الرُّوحِ" مُقَابِلَ شَهْوَةِ "النَّفْسِ"؟ وَكَيْفَ يَزِنُ دَلَالََةَ "الْحِسِّ"

جَدِیَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

مُقَابِلَ إِرْثِ "الذَّاكِرَةِ"؟ وَكَيْفَ يَزِنُ حَرَارَةَ "الْفُؤَادِ" مُقَابِلَ بَصِيرَةِ "الْقَلْبِ"؟
إِنِّي بِحَاجَةٍ لِأَرَى الصُّورَةَ التَّرْكِيبِيَّةَ النَّهَايَّةَ لِهَذِهِ الْمَنْظُومَةِ وَهِيَ تَعْمَلُ.»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً مَلِيئَةً بِالرَّضَا.

«لَقَدْ وَصَلْتَ بِنَفْسِكَ يَا أَرِسْطُو إِلَى مَحَاطَّتِنَا الْقَادِمَةِ، وَهِيَ مَحَاطَّةُ
الْجَمْعِ وَالتَّرْكِيبِ وَوَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ فِي مِيزَانِهِ. إِنَّهَا لَحَظَةٌ النَّظَرِ إِلَى
الْخَرِيطَةِ كَامِلَةٍ. وَهَذِهِ هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةِ.»

الْفَصْلُ 11: مَلْحَمَةُ الْكِيَانِ

كَانَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ الْخَادِيَّةَ عَشْرَةَ مِنْ لِقَاءَاتِهِمْ، وَكَانَ الْجَوْ مُشْبَعًا بِإِحْسَائِسِ بِالْجِتَامِ وَالْأَكْتِمَالِ. لَمْ يَكُنْ جِتَامَ الرَّحْلَةِ، بَلْ جِتَامَ مَرَحَلَتِهَا الْأُولَى وَالْأَهَمِّ: مَرَحَلَةِ تَجْمِيعِ الْأَدَوَاتِ وَرَسْمِ الْخَرِيطَةِ. جَلَسَ الطُّلَابُ وَفِي أَعْيُنِهِمْ نَظَرُهُ مُخْتَلِفَةٌ، نَظَرُهُ مَنْ يَقِفُ عَلَى قِمَّةِ ثَلَّةٍ وَيَنْظُرُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ إِلَى الْمَشْهَدِ الْجَامِعِ وَالْكَامِلِ لِمَدِينَةٍ كَانَ يَعْرِفُ أَزَقَّتَهَا فَقَطْ. كَانَ سُؤَالُ أَرِسْطُو الْأَخِيرِ، الْمُنْبَعِثُ مِنْ شَوْقِهِ الْفَلَسَفِيِّ لِلنَّظَامِ وَالْكُلِّيَّةِ، لَا يَزَالُ يَطُوفُ فِي أَرْجَاءِ الْمَجْلِسِ.

فَتَحَ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ قَائِلًا وَهُوَ يَنْظُرُ مُبَاشَرَةً إِلَى أَرِسْطُو:

«سَأَلْتَ يَا أَرِسْطُو عَنِ الصُّورَةِ التَّرَكِيبِيَّةِ النَّهَايَّةِ. سَأَلْتَ عَنِ الْمَلْحَمَةِ الْكَامِلَةِ. سَأَلْتَ كَيْفَ يَعْمَلُ "الْتَّعَقُّلُ" بِوَصْفِهِ "الْمِيزَانَ الْأَعْظَمَ" الَّذِي يَحْفَظُ التَّوَازُنَ بَيْنَ كُلِّ الْمَكُونَاتِ الَّتِي أَسْتَعْرَضْنَاهَا. سُؤَالُكَ هُوَ الْخَاتِمَةُ الطَّبِيعِيَّةُ وَالضَّرُورِيَّةُ لِكُلِّ مَا سَبَقَ. فِي اللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ، كُنَّا كَمَنْ يَتَعَرَّفُ عَلَى آلَاتِ جَوْفِهِ ضَخْمَةٍ، آلهَ آلهَ. تَعَرَّفْنَا عَلَى قُدْسِيَّةِ كَمَنْجَةِ "الرُّوحِ"، وَعَلَى ضَرَوَاتِ طُبُولِ "النَّفْسِ"، وَعَلَى نَقَاءِ نَائِ "الْقَلْبِ"، وَعَلَى حَسَاسِيَّةِ أَوْتَارِ "الْحَوَاسِّ". وَاللَّيْلَةَ، لَنْ نُقَدِّمَ آلهَ جَدِيدَةً، بَلْ سَنُحَاوِلُ أَنْ نَرَى كَيْفَ يَقُودُ "صَاحِبُ الْإِيْقَاعِ" - أَيُّ "الْتَّعَقُّلِ" - كُلَّ هَذِهِ الْأَلَاتِ لِيَتَغَرَّفَ لَحْنًا وَاجِدًا مُتَنَاعِمًا، بَدَلًا مِنْ أَنْ تُصْدِرَ صَحِيحًا مُتَنَافِرًا.»

قَاطَعُهُ مُعَادٌ بِلُطْفٍ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ صُورَةَ الْمَلَحَمَةِ الْمُتَنَاعِمَةِ هِيَ صُورَةُ شِعْرِيَّةٍ جَمِيلَةٍ، وَلَكِنَّهَا قَدْ تَكُونُ مِثَالِيَّةً أَكْثَرَ مِنَ الْإِلَازِمِ. عِلْمُ النَّفْسِ الْحَدِيثُ، خُصُوصًا مَدَارِسُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ، يُرِينَا أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ سَاحَةُ صِرَاعٍ دَائِمٍ بَيْنَ قُوَى مُتَضَادَّةٍ، الْوَعْيُ ضِدَّ الْإِلَاوَعِي، الرَّغْبَةُ ضِدَّ الْوَأَقِعِ، الْعَاطِفَةُ ضِدَّ الْمَنْطِقِي. فَهَلْ هَذَا التَّكَامُلُ الَّذِي تَصِفُهُ هُوَ حَالَةٌ وَاقِعِيَّةٌ، أَمْ مُجَرَّدُ طُمُوحٍ مِثَالِيٍّ بَعِيدِ الْمَنَالِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«أَنْتَ عَلَى حَقٍّ يَا مُعَادٌ فِي أَنَّ "الصِّرَاعَ" هُوَ الْحَالَةُ الْأَوَّلِيَّةُ لِلْإِنْسَانِ. وَلَكِنَّ التَّبَيَّنَ الْفَرَادِيَّ لَا يَقِفُ عِنْدَ تَشْخِصِ هَذَا الصِّرَاعِ، بَلْ يَقْتَرِحُ "مَنْهَجًا" لِإِدَارَتِهِ وَالْوُضُوعِ بِهِ إِلَى حَالَةٍ "الْمِيزَانِ" وَ"الْإِنْسِجَامِ". فَالْمَلَحَمَةُ لَيْسَتْ الْحَالَةُ الْإِفْتِرَاضِيَّةُ، بَلْ هِيَ الْغَايَةُ الْمُنْشَوْدَةُ لِرِحْلَةِ "التَّعَقُّلِ". وَ"التَّعَقُّلُ" فِي جَوْهَرِهِ هُوَ فِعْلُ الْمُوَازَنَةِ الدَّائِمِ هَذَا.»

«إِذَنْ، لِنَعُدْ إِلَى صُورَةِ "صَاحِبِ الْإِيقَاعِ". إِنَّ "التَّعَقُّلَ" لَيْسَ آلَةً إِصْافِيَّةً، بَلْ هُوَ مُرْشِدُ الْجَوْقَةِ وَقَائِدُهَا. وَمَاذَا يَفْعَلُ الْقَائِدُ؟ إِنَّهُ لَا يُصْدِرُ صَوْتًا بِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ مِنْ دُونِهِ يَضِيعُ اللَّحْنُ. إِنَّهُ يَقُومُ بِوَطَائِفٍ عَدِيدَةٍ: يَسْمَعُ كُلَّ الْأَلَاتِ، وَيُعْطِي الْإِشَارَةَ الصَّحِيحَةَ لِكُلِّ مِنْهَا لِيَتَدَخَّلَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، وَيَضْبُطُ عُلُوَّ صَوْتِهَا وَأَنْخِفَاضَهُ، وَيُوَحِّدُ إِيقَاعَهَا، لِيَضْمَنَ أَنَّ النَّاتِجَ النِّهَائِيَّ لَيْسَ صَحِيحًا، بَلْ هُوَ بِنَاءٌ فَنِّيٌّ مُتَكَامِلٌ. هَذَا بِالضَّبْطِ مَا يَفْعَلُهُ التَّعَقُّلُ مَعَ مَلَكَاتِ الْإِنْسَانِ.»

«لِنَقُمْ بِجَوَلَةٍ عَلَى هَذِهِ الْجَوْقَةِ لِنَرَى كَيْفَ يَعْمَلُ هَذَا الْمِيزَانُ. لِنَبْدَأْ بِأَبْعَدِ صَوْتَيْنِ وَأَكْثَرِهِمَا تَضَادًّا: صَوْتُ "الرُّوحِ" السَّمَاوِيِّ وَصَوْتُ

"النَّفْسُ" الْأَرْضِيَّةُ.

«كَمَا رَأَيْنَا، الرُّوحُ هِيَ مَصْدَرُ الْإِلْهَامِ وَالْحَنِينِ إِلَى الْأَعْلَى، هِيَ الَّتِي تَمُدُّ الْإِنْسَانَ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْإِبْدَاعِ وَالْبَصِيرَةِ، وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الَّتَّعَقُّلَ "نُورَانِيًّا". وَفِي الْمُقَابِلِ، النَّفْسُ هِيَ مَجَالُ الشَّهْوَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالْهَوَى وَحُبِّ الدَّاتِ. فَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْ طَعَى أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ؟ إِذَا طَعَتِ الرُّوحُ بِشَكْلِ كَامِلٍ، قَدْ يَصِلُ الْإِنْسَانُ إِلَى رَهْبَانِيَّةٍ تَهْجُرُ الدُّنْيَا وَتَعْتَظِلُ عِمَارَةَ الْأَرْضِ. وَإِذَا طَعَتِ النَّفْسُ، وَهُوَ الْأَغْلَبُ، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا﴾، فَإِنَّهَا تَسْرِقُ الْعَقْلَ لِتَحَقِّقَ أَهْوَاءَهَا. يَأْتِي "الَّتَّعَقُّلُ الْمِيزَانُ" هُنَا لِيَقُولَ: "لَا". إِنَّهُ يَسْتَمِعُ لِإِلْهَامِ الرُّوحِ، وَيَذَرُكَ حَاجَاتِ النَّفْسِ، ثُمَّ يَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ "الْتَّرَكِيَّةِ"، فَيَسْمَحُ لِلنَّفْسِ بِأَنْ تَأْخُذَ حَظَّهَا الْمَشْرُوعَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَلَكِنْ تَحْتَ صَوِّهِ الْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ. إِنَّهُ الَّذِي يُحَقِّقُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾. هَذَا هُوَ فِعْلُ الْمَوَازَنَةِ الْأَوَّلِ.»

«ثُمَّ لِنَنْظُرَ إِلَى مِيزَانِ آخَرَ: الْمَوَازَنَةُ بَيْنَ مَا يَدْخُلُ إِلَيْنَا مِنْ "الْحَوَاسِّ" وَمَا هُوَ مُخَرَّجٌ فِي "الذَّاكِرَةِ".»

«الْحَوَاسِّ، كَمَا رَأَيْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، تُعْطِينَا الْمُعْطِيَّاتِ الْأَوَّلِيَّةَ لِلْوَاقِعِ الْحَاضِرِ. إِنَّهَا تُمَثِّلُ "الآنَ". وَالذَّاكِرَةُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَذَكَّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾، تُعْطِينَا عِبَرَ "الْمَاضِي". فَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْ طَعَى أَحَدُهُمَا؟ مَنْ يَعِشُ تَحْتَ سُلْطَةِ حَوَاسِّهِ اللَّحْظِيَّةِ فَقَطْ، يَصِيرُ ابْنٌ لَحْظِيَّةٍ، مُتَقَلِّبًا، بِلَا عُمُقٍ تَارِيخِيٍّ، يُكَدِّرُ نَفْسَ الْأَخْطَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَبِرُ. وَمَنْ يَعِشُ سَجِينَ ذَاكِرَتِهِ فَقَطْ، يُصْبِحُ رَجْعِيًّا، عَاجِزًا عَنِ الَّتَّعَامُلِ مَعَ مُسْتَجِدَّاتِ الْوَاقِعِ، يُحَاوِلُ أَنْ يَفْرِضَ حُلُولَ الْأُمُوسِ عَلَى مَشَاكِلِ الْيَوْمِ. يَأْتِي "الَّتَّعَقُّلُ الْمِيزَانُ" هُنَا فَيَقُومُ بِعَمَلِيَّةٍ مُبْدِعَةٍ: إِنَّهُ يَأْخُذُ الْمُعْطَى الْجَدِيدَ مِنَ الْحَوَاسِّ، ثُمَّ يَغْوُصُ فِي بَحْرِ الذَّاكِرَةِ لِيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ مَا

يُشَابِهُهُ مِنَ التَّجَارِبِ وَالْعَبْرِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْحَاضِرِ لِيُصَدِّرَ حُكْمًا جَدِيدًا مُسْتَنِيرًا بِالْمَاضِي وَمُتَفَاعِلًا مَعَ الْحَاضِرِ.»

«وَلَنَنْتَقِلَ إِلَى الثَّنَائِيَّةِ الْأَخْطَرِ: الْمُوَازَنَةُ بَيْنَ "الْقَلْبِ" وَ"اللِّسَانِ".»

«الْقَلْبُ، كَمَا رَأَيْنَا، هُوَ مَرْكَزُ الْإِيمَانِ وَالْأَظْمِنَانِ وَالْتَّصَدِيقِ الْبَاطِنِيِّ، هُوَ مَكَانُ "رُؤْيَا الْفُؤَادِ" الَّتِي «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»، وَاللِّسَانُ هُوَ أَدَاةُ الْإِعْلَانِ الظَّاهِرِ وَالْبَيَانِ الْخَارِجِيِّ. وَالْإِنْسَانُ الْمَجْرَأُ هُوَ الَّذِي يُوجَدُ فُرْقَانٌ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ. هَذَا هُوَ التَّفَاقُّ بِعَيْنِهِ. يَأْتِي "الْتَّعَقُّلُ الْمُمِيزَانُ" لِيُقِيمَ حِسْرًا صُلْبًا مِنَ الصَّدْقِ بَيْنَهُمَا، فَيَضْمَنُ أَنَّ مَا يَنْطِقُ بِهِ اللِّسَانُ هُوَ تَرْجَمَةٌ أَمِينَةٌ لِمَا يَسْكُنُ فِي الْقَلْبِ. وَلَا يَقِفُ عِنْدَ هَذَا، بَلْ يَقُومُ أَيْضًا بِتَهْذِيبِ مَا يَخْرُجُ مِنَ اللِّسَانِ لِيَكُونَ "قَوْلًا سَدِيدًا" وَ"قَوْلًا حَسَنًا"، حَتَّى لَا يَجْرَحَ الْحَقُّ الْخَلْقَ.»

«أَمَّا عِلَاقَةُ الْتَّعَقُّلِ بِـ "الصَّدْرِ"، فَهِيَ عِلَاقَةٌ تَعَاكُسِيَّةٌ. فَـ"الْتَّعَقُّلُ الْمُمِيزَانُ" الَّذِي يُوَارِنُ بَيْنَ كُلِّ هَذِهِ الْقُوى يُنْتِجُ حَالَةً مِنَ التَّوَافُقِ الدَّاخِلِيِّ، وَثَمَرُهُ هَذَا التَّوَافُقُ هِيَ "انْشِرَاحُ الصَّدْرِ". وَبِالْمُقَابِلِ، «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»، هَذَا الْإِنْشِرَاحُ الَّذِي هُوَ هِبَةٌ، يُصْبِحُ هُوَ نَفْسُهُ الْأَرْضِي الْخُصْبَةَ الَّتِي يَنْمُو فِيهَا الْتَّعَقُّلُ الصَّحِيحُ وَيُزْهِرُ. إِنَّهَا دَائِرَةٌ مُعْذِيَّةٌ: تَعَقُّلٌ مُتَوَارِنٌ يُؤَدِّي إِلَى صَدْرٍ مُنْشَرِحٍ، وَصَدْرٌ مُنْشَرِحٌ يُؤَدِّي إِلَى تَعَقُّلٍ أَوْسَعٍ وَأَعَمَقٍ.»

«وَأَخِيرًا، كُلُّ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ الدَّاخِلِيَّةِ تَجِدُ مَسْرَحَهَا النِّهَائِيَّ فِي مَيْدَانِ "الْتَّجَرُّبَةِ". فَفِي الْتَّجَرُّبَةِ الْحَيَّةِ، يُخْتَبَرُ هَذَا الْمُمِيزَانُ بِأَقْسَى الْأَخْتِبَارَاتِ. هَلْ سَيَنْتَصِرُ صَوْتُ الرُّوحِ أَمْ صَوْتُ النَّفْسِ عِنْدَ إِغْرَاءِ الْمَالِ؟

هَلْ سَتَتَغَلَّبُ عِبْرَةُ الذَّاكِرَةِ أَمْ صَغْطُ الْوَاقِعِ الْجَسِيِّ عِنْدَ الْخَوْفِ؟ هَلْ سَيَصْدُقُ اللِّسَانُ مَعَ الْقَلْبِ تَحْتَ التَّهْدِيدِ؟ إِنَّ التَّجَرِبَةَ هِيَ الْمَحْكُ الْأَخِيرُ الَّذِي يُثَبِّتُ مَا إِذَا كَانَ "تَعَقُّلُنَا" مُجَرَّدَ نَظَرِيَّةٍ جَمِيلَةٍ، أَمْ حَقِيقَةٍ رَاسِخَةٍ.»

«وَلَنُنْتَقِلَ إِلَى تَمْيِيزِنَا التَّطْيِيقِيَّ لِنَرَى هَذَا الْإِنْسَانَ الْمُتَكَامِلَ فِي أَعْلَى صُورِهِ: "الْأَنْبِيَاءُ". لِنَأْخُذَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَثَلًا. كَيْفَ نَرَى هَذِهِ الْمُنْظُومَةَ تَعْمَلُ فِيهِ؟»

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«نَرَى "حَوَاسَّهُ" تَعْمَلُ بِقُوَّةٍ عِنْدَمَا يَنْظُرُ فِي الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. إِنَّهُ يَبْدَأُ مِنَ التَّجَرِبَةِ الْجَسِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ.»

وَقَالَ سَلْمَانُ:

«وَنَرَى "لِسَانَهُ" يَخْرُجُ بـ "بَيَانٍ" قَوِيٍّ فِي مُحَاجَّتِهِ لِقَوْمِهِ وَلِلنُّمُرُودِ. كَلَامُهُ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ جَدَلٍ، بَلْ كَانَ تَجَسُّدًا لِأُطْمِئْنَانٍ دَاخِلِيٍّ.»

وَقَالَتْ لَيْلَى:

«وَنَرَى "قَلْبَهُ" وَ"فُؤَادَهُ" فِي ذُرْوَةِ الْعَمَلِ عِنْدَمَا يَطْلُبُ الطَّمَأْنِينَةَ مِنْ رَبِّهِ، وَعِنْدَمَا يُسَلِّمُ لِأَمْرِ الدَّبْحِ. إِنَّهَا مَشَاعِرُ الْحُبِّ وَالْثِقَةِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ الْحِسَابَاتِ الْبَارِدَةَ.»

وَقَالَ خَالِدُ:

«وَنَرَى "ذَاكِرَتَهُ" وَ"أَعْتِبَارَهُ" حِينَ يَتَذَكَّرُ رَبَّهُ فَلَا يَخْشَى نَارَ النُّمُرُودِ.»

عَقَّبَ الْإِمَامُ: «أَحْسَنْتُمْ، لَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ أُمَّةً، لِأَنَّهُ كَانَ "إِنْسَانًا مُتَكَامِلًا" تَوَازَنَتْ فِيهِ كُلُّ هَذِهِ الْأَبْعَادِ. "تَعَقُّلُهُ" لَمْ يَكُنْ فِي ذِهْنِهِ، بَلْ كَانَ سَارِيًّا فِي كُلِّ كَيَانِهِ.»

جَمَعَ الْإِمَامُ كُلَّ هَذِهِ الْخُيُوطِ فِي يَدِهِ، وَقَدَّمَ الْقَاعِدَةَ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ، وَهِيَ خُلَاصَةُ الْخُلَاصَاتِ لِهَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنَ الرَّحْلَةِ:

«الْتَّعَقُّلُ فِي الْقُرْآنِ مِيزَانٌ شَامِلٌ يَجْمَعُ الرُّوحَ وَالنَّفْسَ وَالْحَوَاسَّ وَالْقُلُوبَ وَالصُّدُورَ وَاللِّسَانَ وَالذَّاكِرَةَ وَالْتَّجَرِبَةَ. فَهُوَ يَحُولُ الْإِنْسَانَ مِنْ كَوْنِهِ جُزْأً مُنْعَزَلَةً مِنَ الْقُوَى الْمُتَصَارِعَةِ إِلَى كَيَانٍ مُتَكَامِلٍ وَمُتَنَاعِمٍ، وَيَبْنِي مِيزَانًا دَاخِلِيًّا يُوجِّهُهُ نَحْوَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْعُمْرَانِ.»

سَادَ الصَّمْتُ طَوِيلًا، كَانَتْ الصُّورَةُ قَدْ اكْتَمَلَتْ، وَكَانَتْ مُذْهَلَةً وَجَمِيلَةً وَمُخِيفَةً فِي آنٍ وَاحِدٍ بِسَبَبِ صَخَامَةِ الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا.

وَكَانَتْ لَيْلَى هِيَ مَنْ نَطَقَ بِمَا يَدُورُ فِي أَذْهَانِ الْجَمِيعِ. قَالَتْ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ الْخُشُوعَ وَالْحَيْرَةَ:

«شَيْخَنَا، هَذِهِ الصُّورَةُ لِلْإِنْسَانِ الْمُتَكَامِلِ جَمِيلَةٌ لِدَرَجَةٍ تَجْعَلُهَا تَبْدُو بَعِيدَةً الْمَنَالِ. أَنَا أَشْعُرُ فِي حَيَاتِي بِلَحْظَاتٍ نَادِرَةٍ مِنْ هَذَا الْإِنْسِجَامِ، وَبِكَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مِنَ الصَّرَاعِ وَالْتَّنَافُرِ. فَهَلْ هَذَا "الْمِيزَانُ" هُوَ خَالَةٌ نَصِلُ إِلَيْهَا أَوْ نَفْشُلُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهَا؟ أَمْ هُوَ طَرِيقٌ ذُو دَرَجَاتٍ؟ هَلْ يُمَكِّنُ لـ "تَعَقُّلِ" الْمَرْءِ أَنْ يَنْمُو وَيَرْتَقِيَ، فَيَتَنَقَّلَ مِنْ مَقَامٍ أَدْنَى فِي الْحِكْمَةِ إِلَى مَقَامٍ أَعْلَى؟ هَلْ هُنَاكَ سُلْمٌ نَصْعَدُهُ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ؟»

اِبْتَسَمَ الْإِمَامُ ابْتِسَامَةً عَمِيقَةً.

جَدِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«سُؤَالُكَ هُوَ الْبَابُ الَّذِي نَنْتَقِلُ بِهِ الْآنَ مِنَ "الْخَرِيطَةِ" إِلَى
"الْمَسِيرِ" عَلَيْهَا. مِنْ "هَيْكَلِ" الِْتَعَقُّلِ إِلَى "حَرَكِيَّةِ" نُمُوِّهِ. وَمَا هِيَ
"مَقَامَاتُ" هَذَا النُّمُوِّ، فَتِلْكَ قِصَّةٌ أُخْرَى.»

الْفَصْلُ 12: السُّلْمُ الصَّاعِدُ

جَلَسَ الطُّلَّابُ فِي مَجْلِسِ جَدِيدٍ، وَكَانَتْ أَجَوَاءُ الْغُرْفَةِ قَدْ تَغَيَّرَتْ. فَبَعْدَ لَيَالٍ مِنَ الْغُوصِ الْعَمِيقِ فِي مُكُونَاتِ الدَّاتِ، أَصْبَحَتْ وَجُوهُهُمْ تَحْمِلُ أَثَرَ الرَّخْلَةِ. لَمْ يَعُدْ "مُعَاذٌ" بِجَدَّتِهِ الْمُتَحَفِّزَةِ الْأُولَى، بَلْ أَصْبَحَتْ نَظَرَاتُهُ تَحْمِلُ فُضُولًا نَفْذِيًّا أَكْثَرَ مِنْهُ رَفْصًا مُسَبِّقًا. وَ"أَرْسُطُو" بَدَأَ يَجِدُ مُنْتَعَةً فِي مُقَارَنَةِ الْبِنَاءِ الْفَرَائِيِّ الْمَعْقَدِ بِأَنْسَاقِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ. أَمَّا لَيْلَى وَخَالِدٌ، فَقَدْ بَدَأَتْ الْمَفَاهِيمُ الَّتِي كَانَتْ "غُيُومًا" تَتَحَوَّلُ إِلَى "أَدَوَاتٍ" حَقِيقِيَّةٍ يَسْتَطِيعَانِ رُؤْيَةَ مَكَانِهَا فِي حَيَاتِهِمَا. كَانَ سُؤَالٌ لَيْلَى الْأَخِيرُ، السُّؤَالُ عَنْ إِمْكَانِيَّةِ النُّمُوِّ وَالْإِرْتِقَاءِ، قَدْ فَتَحَ الشَّهِيَّةَ لِمَعْرِفَةِ الْمَزِيدِ عَنْ طَبِيعَةِ هَذَا الطَّرِيقِ الصَّاعِدِ.

بَدَأَ الْأِمَامُ الْجَلْسَةَ يَهْدُوهُ، مُوجِّهًا كَلَامَهُ مُبَاشَرَةً إِلَى لَيْلَى:

«سَأَلْتُ يَا لَيْلَى سُؤَالَ جَوْهَرِيًّا: هَلِ "الْمِيزَانُ" الَّذِي وَصَفْنَاهُ هُوَ حَالَةٌ نَصَلُ إِلَيْهَا أَوْ نَفْسٌ؟ أَمْ هُوَ طَرِيقٌ ذُو دَرَجَاتٍ؟ سُؤَالُكَ يُغَيِّرُ مَنْظُورَنَا مِنْ دِرَاسَةِ "التَّعَقُّلِ" إِلَى دِرَاسَةِ "عِلْمٍ وَطَائِفٍ نُمُوهُ". وَالْجَوَابُ الْفَرَائِيُّ وَاضِحٌ: إِنَّ "التَّعَقُّلَ" لَيْسَ حَالَةً ثَابِتَةً، بَلْ هُوَ "رَخْلَةٌ" دَائِمَةٌ، وَمَسِيرَةٌ صَاعِدَةٌ، وَلِهَذِهِ الرِّخْلَةُ مَحَطَّاتٌ وَمَرَاتِبٌ وَمَقَامَاتٌ. فَالْإِنْسَانُ الْمُتَعَقِّلُ هُوَ سَالِكٌ دَائِمٌ فِي طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ، لَا مُقِيمٌ فِي قَصْرِهَا.»

قَالَ مُعَاذٌ بِنَبْرَتِهِ التَّقْدِيَّةِ الْمُعْتَادَةِ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ فِكْرَةَ "مَرَاجِلِ النُّمُو" لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَنِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ. فَيَاجِيهِ وَصَفُ مَرَاجِلِ النُّمُو الْمَعْرِفِيِّ عِنْدَ الطِّفْلِ، وَكَوْلِبِزْغٍ وَصَفُ مَرَاجِلِ النُّمُو الْأَخْلَاقِيِّ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَاجِلَ هِيَ نِتَاجُ تَطَوُّرٍ إِدْرَاكِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ، وَهِيَ مُتَدَاخِلَةٌ وَمُسْتَمِرَّةٌ. فَمَا هِيَ "الْمَقَامَاتُ" الْفَرَايِئَةُ هَذِهِ؟ هَلْ هِيَ مَرَاجِلُ مُنْفَصِلَةٌ يَقْفِزُ الْمَرْءُ بَيْنَهَا؟ وَهَلْ هِيَ قَابِلَةٌ لِلْقِيَاسِ وَالرَّصْدِ، أَمْ أَنَهَا مُجَرَّدُ أَوْصَافٍ شِعْرِيَّةٍ لِحَالَةِ الْمُبْتَدِئِ مُقَابِلِ حَالَةِ الْخَبِيرِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَشْبِيهُكَ بِمَرَاجِلِ النُّمُو فِي مَحَلِّهِ يَا مُعَاذُ، لَكِنْ مَعَ فَارِقٍ جَوْهَرِيٍّ. فَمَرَاجِلُ فَيَاجِيهِ تَحْدُثُ بِشَبْهِ حَتْمِيَّةٍ أَحْيَائِيَّةٍ مَعَ نُمُو الدِّمَاغِ، أَمَّا "مَقَامَاتُ التَّعَقُّلِ" فَهِيَ لَيْسَتْ حَتْمِيَّةً، بَلْ هِيَ ثَمَرَةٌ "اخْتِيَارٍ" وَ"مُجَاهَدَةٍ" وَ"هِدَايَةٍ". وَهِيَ لَيْسَتْ صَنَادِيقَ مُنْفَصِلَةٍ، بَلْ أَشْبَهُ بِدَوَائِرَ مُتَّحِدَةٍ الْمَرْكَزِ، كُلُّ دَائِرَةٍ تَحْتَوِي الَّتِي قَبْلَهَا وَتَزِيدُ عَلَيْهَا سَعَةً وَعُمُقًا. وَنُفُوسُنَا أَنْ نُمَيِّزَ فِي هَذَا السُّلَمِ الصَّاعِدِ ثَلَاثَ مَحَطَّاتٍ رَئِيسِيَّةٍ: مَحَطَّةُ الْبِدَايَةِ، وَمَحَطَّةُ الْعُبُورِ، وَمَحَطَّةُ الْوُصُولِ.»

«الْمَحَطَّةُ الْأُولَى وَالنَّبَوَايَةُ الَّتِي لَا بَدَّ مِنْهَا هِيَ "مَقَامُ التَّذَكُّرِ". وَهُوَ مَقَامٌ يَرْتَكِزُ بِالْكَامِلِ عَلَى "الذَّاكِرَةِ" الَّتِي تَحَدَّثُنَا عَنْهَا. إِنَّهُ مَقَامٌ "جَمْعُ الْبَيِّنَاتِ". هُوَ الْمَرْحَلَةُ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا الْمَرْءُ بِتَعْبِئَةٍ وَعَاءٍ ذَاكِرَتِهِ بِالْمَادَّةِ الْحَامِ لِلتَّعَقُّلِ: يَحْفَظُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، يَقْرَأُ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ السَّابِقَةِ، يَتَعَلَّمُ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ، يَدْرُسُ تَارِيخَهُ، وَيُخَزِّنُ تَجَارِبَهُ الشَّخْصِيَّةَ. إِنَّهُ فِعْلٌ اسْتِخْصَارٌ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الذَّاكِرَةِ وَإِبْقَائِهِ حَيًّا وَنَشِطًا. وَلِذَلِكَ، تَجْدُ الْقُرْآنَ يُلِحُّ عَلَى هَذِهِ الْبِدَايَةِ، فَيَقُولُ لِنَبِيِّهِ (ص): ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ

«الْمُؤْمِنِينَ».

قَالَ أَرِسْطُو:

«إِذَنْ، هَذَا هُوَ مَقَامُ "الْعَالِمِ" بِمَعْنَاهُ التَّقْلِيدِيَّ، الشَّخْصُ الَّذِي يُعَدُّ مَوْسُوعَةً مُتَحَرِّكَةً مِنَ الْمَعْلُومَاتِ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«نَعَمْ، وَلَا غِنَى عَنْهُ. فَلَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَتَعَقَّلَ فِي الْفَرَاغِ. وَلَكِنَّ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ هُوَ أَنْ يَبْقَى الْمَرْءُ سَاجِدًا هَذَا الْمَقَامَ. فَيُصْبِحُ كَرَجُلٍ جَمَعَ أَجُودَ أَنْوَاعِ الطَّحِينِ وَالسُّكَّرِ وَالْفَاكِهَةِ وَكَدَّسَهَا فِي مَخْزَنِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْمَطْبَخَ قَطُّ لِيُصْنَعَ مِنْهَا طَعَامًا. مَعْلُومَاتُهُ كَثِيرَةٌ، لَكِنَّهَا خَامٌ وَمَيِّتَةٌ. تَجِدُهُ يَسْرُدُ لَكَ عَشْرَةَ أَقْوَالٍ فِي تَفْسِيرِ آيَةٍ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ لَمْ تُغَيَّرْ فِي حَيَاتِهِ شَيْئًا. يَحْفَظُ قِصَصَ الْأُمَمِ الْهَالِكَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَرَى أَسْبَابَ هَلَاكِهَا تَتَكَرَّرُ فِي وَاقِعِهِ. هُنَا يَكُونُ التَّذَكُّرُ قَدْ أَدَّى وَظِيفَتَهُ الْأُولَى، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرْتَقِ إِلَى الْمَقَامِ الَّذِي يَلِيهِ.»

«وَمَا هُوَ هَذَا الْمَقَامُ؟» سَأَلَ خَالِدٌ.

«إِنَّهُ مَقَامُ الْعُبُورِ مِنَ الْمَعْلُومَةِ إِلَى الدَّرْسِ. إِنَّهُ "مَقَامُ الْإِعْتِبَارِ". وَهُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يُجِيبُ عَنْ سُؤَالِ "إِذَنْ مَاذَا؟" (So what?). لَدَيَّ كُلُّ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ، إِذَنْ مَاذَا أَفْعَلُ بِهَا؟ كَيْفَ أَسْتَفِيدُ مِنْهَا؟ إِنَّهُ الْمَعْبَرُ الَّذِي يُحَوِّلُ الْمَعْرِفَةَ الْخَامَ إِلَى قَاعِدَةٍ لِلْحَيَاةِ، وَإِلَى مِيزَانٍ لِلْأَعْمَالِ. وَلِهَذَا يَأْتِي الْأَمْرُ الْأَلَهِيُّ وَاضِحًا وَصَرِيحًا بَعْدَ عَرْضِ تَجَرِبَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مُهِمَّةٍ: «فَاعْتَبِرُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ». لَمْ يَقُلْ "فَاعْلَمُوا" أَوْ "فَاَحْفَظُوا"، بَلْ "فَاعْتَبِرُوا"، أَيْ "اعْبُرُوا" مِنْ هَذَا الْحَدَثِ الْجُرْئِيِّ إِلَى الْقَانُونِ الْكُلِّيِّ الَّذِي يَحْكُمُهُ.»

«وَلِنَقُومَ بِتَمَرِينِنَا التَّطْبِيقِيِّ لِنَرَى هَذَا السَّلَمَ فِي قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ: قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ. إِنَّهَا مَلِيئَةٌ بِهَذِهِ الْمَقَامَاتِ.»

«لِنَأْخُذْ حَادِثَةَ نَجَاتِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَانْفِلَاقِ الْبَحْرِ. "مَقَامُ التَّذَكُّرِ" هُنَا هُوَ أَنْ يَحْفَظُوا هَذِهِ الْقِصَّةَ بِتَفَاصِيلِهَا، وَيَرَوُّوَهَا لِأَبْنَائِهِمْ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْجَاهُمْ بِمُعْجَزَةٍ. هَذَا هُوَ الْمُسْتَوَى الْأَوَّلُ. لَكِنْ، مَا هُوَ "مَقَامُ الْإِعْتِبَارِ" فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ؟»

أَجَابَتْ زَيْنَبُ:

«هُوَ أَسْتِنْتَاخُ قَاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانُوا قَلَّةً مُسْتَضْعَفَةً، وَيَهْزِمُ الْجَبَابِرَةَ وَإِنْ كَانُوا يَمْلِكُونَ الْجُيُوشَ. وَأَنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّوَكُّلَ هُمَا سِلَاحَانِ أَقْوَى مِنَ الْأَسْلِحَةِ الْمَادِّيَّةِ.»

أَكْمَلَ الْإِمَامُ:

«أَحْسَنْتِ. هَذَا هُوَ الْعُبُورُ. لَقَدْ عَبَّرْتَ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى الْخَاصَّةِ إِلَى "سُنَّةِ إِلَهِيَّةٍ" عَامَّةٍ. هَذَا هُوَ الْإِعْتِبَارُ. وَمَنْ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ، أَصْبَحَ يَنْظُرُ إِلَى أَحْدَاثِ حَيَاتِهِ التَّيُومِيَّةِ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْعَدْسَةِ. فَعِنْدَمَا يَرَى ظَالِمًا قَوِيًّا، لَا يَشْعُرُ بِالْيَأْسِ الْمُطْلَقِ، لِأَنَّهُ "يَعْتَبِرُ" بِقِصَّةِ فِرْعَوْنَ. وَعِنْدَمَا يَكُونُ عَلَى حَقٍّ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفٌ، لَا يَفْقِدُ الْأَمَلَ، لِأَنَّهُ "يَعْتَبِرُ" بِنَجَاةِ مُوسَى. هُنَا تَحَوَّلَتِ الْمَعْلُومَةُ الْمُخْزَنَةُ فِي الذَّاكِرَةِ إِلَى مِيزَانٍ حَيٍّ فِي الْوَاقِعِ.»

«وَلَكِنْ،» وَاصَلَ الْإِمَامُ وَقَدْ عَلَتْ نَبْرَتُهُ، «هُنَاكَ مَقَامٌ أَعْلَى وَأَرْقَى. فَقَدْ يَعْتَبِرُ الْمَرْءُ وَيَسْتَخْلِصُ الدَّرُوسَ، وَلَكِنْ تَأْتِي لَحْظَةُ الْإِخْتِبَارِ الْحَقِيقِيِّ، فَتَغْلِبُهُ نَفْسُهُ أَوْ يَضْعُفُ قَلْبُهُ، فَلَا يَعْمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِبَرَةِ الَّتِي

تَعَلَّمَهَا. هُنَا يَأْتِي الْمَقَامُ الثَّلَاثُ، مَقَامُ الْكِمَالِ الْبَشَرِيِّ الْمُمْكِنِ. إِنَّهُ "مَقَامُ الْجَكْمَةِ".»

«الْجَكْمَةُ" هِيَ الْمَقَامُ الَّذِي لَا تَعُودُ فِيهِ الْعِبْرَةُ مُجَرَّدَ "فِكْرَةٍ" صَاحِبَةٍ فِي الذَّهْنِ، بَلْ تُصْبِحُ "حَالَةً" رَاسِخَةً فِي الْكَيَانِ كُلِّهِ. الْحَكِيمُ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُفَكِّرَ طَوِيلًا لِيَسْتَدْعِيَ الْعِبْرَةَ، لِأَنَّهُ أَصْبَحَ هُوَ نَفْسُهُ تَجَسُّدًا لِلْعِبْرَةِ. إِنَّهُ الْمَقَامُ الَّذِي يَتَّحِدُ فِيهِ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ اتِّحَادًا تَامًا، فَيُصْبِحُ "الْمِيزَانُ" الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ طَبِيعَةً ثَانِيَةً لِلشَّخْصِ، يَتَجَسَّدُ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَسُكُونِهِ. إِنَّهَا هِبَةُ إِلَهِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، «وَمَنْ يُؤْتِ الْجَكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا».

«وَبِالْعَوْدَةِ إِلَى مَثَالِ مُوسَى، فَإِنَّ "جَكْمَتَهُ" تَجَلَّتْ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى قِيَادَةِ قَوْمٍ صَعِبِ الْمِرَاسِ كَتَبِيِّ إِسْرَائِيلَ. لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ مُذَكِّرٍ لَهُمْ بِالْمَاضِي، وَلَا مُسْتَخْلِصٍ لِلْعَبْرِ، بَلْ كَانَ قَائِدًا وَمُشَرِّعًا، يُنَزِّلُ الْجَكْمَةَ إِلَهِيَّةً فِي صُورَةِ أَحْكَامٍ وَتَوْجِيهَاتٍ عَمَلِيَّةٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ وَاقِعِهِمْ. هَذَا هُوَ تَجَسُّدُ الْمِيزَانِ فِي الْفِعْلِ.»

صَمَتَ الْإِمَامُ وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ.

«إِذَنْ، هَذَا هُوَ السُّلَّمُ الصَّاعِدُ: تَذَكُّرٌ يَجْمَعُ الْمَعْرِفَةَ، ثُمَّ أُعْتِبَارٌ يَسْتَخْلِصُ الدَّرْسَ، ثُمَّ جَكْمَةٌ تَجَسَّدُ الدَّرْسَ فِي الْحَيَاةِ. وَمُعْظَمُ النَّاسِ، لِلْأَسَفِ، إِذَا أُنْ يَقِفُوا عِنْدَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ فَيُصْبِحُوا حَفَظَةً بِلَا فِقْهِ، أَوْ يَقِفُوا عِنْدَ الثَّانِي فَيُصْبِحُوا فَلَاسِفَةً وَمُنْظَرِينَ بِلَا أَثَرٍ. وَالْقَلَّةُ الْقَلِيلَةُ هِيَ مَنْ يَتِمُّ الرُّحْلَةُ وَيَصِلُ إِلَى مَقَامِ الْجَكْمَةِ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْخُلَاصَةَ الْقَاعِدِيَّةَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ:

«مَقَامَاتُ التَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ مَسَارٌ رَاقٍ: يَبْدَأُ بِالتَّذَكُّرِ، ثُمَّ يَرْتَقِي إِلَى الإِغْتِبَارِ، ثُمَّ يَسْتَقِرُّ فِي الْحِكْمَةِ. وَمَنْ تَوَقَّفَ فِي الْمَذْخَلِ ضَاعَتْ غَايَتُهُ، وَمَنْ أَكْمَلَ الْمَسِيرَةَ نَالَ نُورَ الْحِكْمَةِ وَثِمَارَ التَّعَقُّلِ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطُّلَّابِ يُحَاوِلُ أَنْ يُحَدِّدَ مَوْقِعَهُ عَلَى هَذَا السُّلَمِ. كَانَ سَلْمَانُ الرَّوَّائِي، الَّذِي طَالَمَا أَهْتَمَّ بِ"لِمَاذَا" الْقِصَّةِ، هُوَ مَنْ كَسَرَ الصَّمْتَ.

قَالَ بِصَوْتٍ يَمْلَأُ الشَّغْفُ:

«شَيْخَنَا، هَذِهِ خَرِيطَةٌ رَائِعَةٌ لِلرَّحْلَةِ. لَقَدْ وَصَفَتْ لَنَا كَيْفِيَّةَ السَّيْرِ وَالْإِزْتِمَاعِ. وَلَكِنْ كُلُّ سَفَرٍ، كَمَا فِي أَعْظَمِ الرِّوَايَاتِ، لَا يُحَدِّدُهُ الطَّرِيقُ فَقَطْ، بَلْ تُحَدِّدُهُ "الْوَجْهَةُ" النَّهَائِيَّةُ. لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى قِمَّةِ الْحِكْمَةِ، فَمَاذَا بَعْدُ؟ مَا هِيَ الْغَايَاتُ الْكُبْرَى أَوْ "الْمَقَاصِدُ" الَّتِي يُفْتَرَضُ بِهِذَا التَّعَقُّلِ الْحَكِيمِ أَنْ يُحَقِّقَهَا فِي الْعَالَمِ؟ لِمَاذَا نَصْعَدُ هَذَا السُّلَمَ أَصْلًا؟»

اِبْتَسَمَ الْإِمَامُ. لَقَدْ وَصَلُوا إِلَى الْقَلْبِ مِنَ الْأَمْرِ.

«سُؤَالُكَ هُوَ سُؤَالُ الْغَايَةِ يَا سَلْمَانُ. فَبَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا "مَا هُوَ" التَّعَقُّلُ، وَ"كَيْفَ" يَنْمُو، حَانَ الْوَقْتُ لِنَسْأَلَ: "لِأَجْلِ مَاذَا؟". وَهَذِهِ هِيَ قِصَّةُ "مَقَاصِدِ التَّعَقُّلِ"، وَهِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ.»

الفصل 13: لِأَجْلِ مَاذَا؟

كَانَتْ بِدَايَةِ الْمَجْلِسِ الْجَدِيدِ تَحْمُلٌ فِي طَيَّانِهَا إِحْسَاسًا بِالْإِنْتِقَالِ مِنْ مَرَحَلَةٍ إِلَى أُخْرَى. فِي اللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ، كَانَتْ رِحْلَتُهُمْ غَوْصًا إِلَى الدَّاحِلِ، أَسْتِكْشَافًا لِلقُوَى الْبَاطِنِيَّةِ وَكَيْفِيَّةِ نُمُوِّهَا. أَمَّا اللَّيْلَةُ، فَقَدْ كَانَ سُؤَالُ سَلْمَانَ الْأَخِيرُ قَدْ فَتَحَ النَّافِذَةَ عَلَى الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ بِأَسْرِهِ. لَمْ يَعِْدِ السُّؤَالُ "مَنْ أَنَا؟" أَوْ "كَيْفَ أَنُمُو؟"، بَلْ أَصْبَحَ السُّؤَالُ الْأَكْبَرُ وَالْأَشْمَلُ: "وَمَاذَا بَعْدُ؟".

إِسْتَهَلَ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ بِالْتِفَاتَةِ مُبَاشِرَةٍ إِلَى سَلْمَانَ. قَالَ:

«لَقَدْ طَرَحْتَ سُؤَالَ الْقِصَّةِ الْكُبْرَى يَا سَلْمَانُ. سُؤَالُ الْغَايَةِ وَالْمَعْنَى. "لِأَجْلِ مَاذَا؟". لِمَاذَا نَصْعَدُ هَذَا السُّلَّمُ الشَّقَّ مِنْ مَقَامِ التَّذَكُّرِ إِلَى الْأَعْتِبَارِ فَالْحِكْمَةِ؟ لِمَاذَا نَسْعَى جَاهِدِينَ لِإِقَامَةِ هَذَا الْمِيزَانِ الدَّقِيقِ فِي دَوَاجِلِنَا؟ وَالْجَوَابُ يَكْمُنُ فِي أَنَّ "الْتَعَقُّلَ" فِي الرُّؤْيَا الْقُرْآنِيَّةِ لَيْسَ تَرَفًا فِكْرِيًّا، وَلَا هُوَ غَايَةٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ. إِنَّهُ لَيْسَ صَوْمَعَةً نَنْعَزِلُ فِيهَا لِنَسْتَمْتِعَ بِجَمَالِ الْأَفْكَارِ النَّظَرِيَّةِ. بَلْ هُوَ أَدَاةٌ وَجُودِيَّةٌ عَظِيمَةٌ وَهَبَتْ لَنَا لِتَحْقِيقِ "مَقَاصِدَ" عَلَيَا فِي الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ.»

كَانَ مُعَاذٌ قَدْ جَهَّزَ نَفْسَهُ لِهَذَا التَّفَاشِ. قَالَ يَهْدُوٌّ وَثِقَةً:

«شَبَّخْنَا، إِنَّ مَقَاصِدَ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ هِيَ مَوْضُوعُ أَشْبَعْتُهُ الْفَلَسَفَةُ الْحَدِيثَةُ بَحْثًا. مُنْذُ عَصْرِ التَّنْوِيرِ، اتَّصَحَّتِ الْغَايَاتُ: أُسْتِخْدَامُ الْعَقْلِ لِمُحَارَبَةِ الْجَهْلِ وَالْخُرَافَةِ، وَلِتَحْقِيقِ أَكْبَرَ قَدَرٍ مِنَ السَّعَادَةِ لِأَكْبَرَ عَدَدٍ مِنَ النَّاسِ (كَمَا تَقُولُ النِّفَعِيَّةُ)، وَلِبِنَاءِ مُجْتَمَعَاتٍ قَائِمَةٍ عَلَى الْحُرِّيَةِ وَالْعِلْمِ وَالتَّقَدُّمِ التَّقْنِيِّ. هَذِهِ مَقَاصِدُ عَظِيمَةٌ وَوَاضِحَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى مَصْدَرٍ خَارِجِيٍّ لِيَتَبَرَّرَهَا.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«هَذِهِ غَايَاتٌ نَبِيلَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا يَا مُعَاذُ، وَالْإِسْلَامُ لَا يَرُفُضُهَا، بَلْ يَحْتُّ عَلَيْهَا وَيَعُدُّهَا جُزْءًا مِنْ مَطَالِيهِ. وَلَكِنَّ التَّبَيَّنَ الْقُرْآنِيَّ يَرَى أَنَّهَا "يَمَارٌ" تَأْتِي نَتِيجَةً لِحَقِيقِ مَقَاصِدِ "أُصُولٍ" أَكْثَرَ عُمُقًا وَتَأْسِيسًا. إِنَّهُ يَهْتَمُّ بِتَصْحِيحِ "حَالَةِ الْكَيَانِ" قَبْلَ الْبَحْثِ فِي "شَكْلِ الْبُنْيَانِ". فَالتَّقَدُّمُ الْعِلْمِيُّ بِلَا بُوَصْلَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ قَدْ يُنْتِجُ دَمَارًا، وَالسَّعَادَةُ الْمُبْنِيَّةُ عَلَى الْمَادَّةِ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى فَرَاغٍ رُوحِيٍّ. لِذَلِكَ، يَضَعُ الْقُرْآنُ لِلتَّعَقُّلِ ثَلَاثَةَ مَقَاصِدَ كُبْرَى، هِيَ كَالْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ لِشَجَرَةِ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ: الْهُدَى وَالْعَدْلُ وَالْعُمْرَانُ.»

«لِنَبْدَأُ بِالْمَقْصِدِ الْأَوَّلِ وَالْأَهَمِّ، لِأَنَّهُ شَرْطٌ لِكُلِّ مَا بَعْدَهُ: الْهُدَى.»

«قَبْلَ أَنْ تَسِيرَ فِي أَيِّ طَرِيقٍ، يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ الْإِتِّجَاهَ. قَبْلَ أَنْ تَبْنِيَ أَيَّ بِنَاءٍ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ تَصْمِيمٌ وَاضِحٌ. الْوُضُفَةُ الْأُولَى لِلتَّعَقُّلِ هِيَ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ "الْهُدَى" وَيَتَمَسَّكَ بِهِ. أَنْ يُمَيِّزَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالنُّورَ مِنَ الظُّلَامِ، وَالطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ مِنَ السُّبُلِ الْمُتَشَعِّبَةِ. إِنَّهُ الْبُوَصْلَةُ. وَالْقُرْآنُ يَعْرِفُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ هُوَ أَدَاةُ الْهُدَايَةِ الْعُظْمَى. يَقُولُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.»

تَدَخَّلْتُ لَيْلَى بِصَوْتٍ هَادِيٍّ:

«دَائِمًا مَا أَتَوَقَّفُ عِنْدَ تَغْيِيرِ "سُبُلِ السَّلَامِ". إِنَّهُ تَغْيِيرٌ مُطْمَئِنٌّ جَدًّا. لَا يَقُولُ "طَرِيقُ النَّجَاحِ" أَوْ "طَرِيقُ الْقُوَّةِ"، بَلْ "سُبُلِ السَّلَامِ".»

أَجَابَ الْأَمَامُ:

«لِأَنَّ الْقُرْآنَ يَعْلَمُ أَنَّ غَايَةَ الْغَايَاتِ لِلْكَيَانِ الْبَشَرِيِّ هِيَ تَحْقِيقُ السَّلَامِ. السَّلَامُ الْأَدَاخِلِيُّ مَعَ النَّفْسِ، وَالسَّلَامُ مَعَ الْخَلْقِ، وَالسَّلَامُ مَعَ الْخَالِقِ. وَ"الْهُدَى" هُوَ الْخَرِيطَةُ الَّتِي تَقُودُ إِلَى هَذِهِ السُّبُلِ. فَالْتَعَقُّلُ الَّذِي يُحَقِّقُ مَقْصِدَ الْهُدَى هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ صَاحِبَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الشُّكِّ وَالْفَلَقِ وَالتَّنَاقُضِ وَالْعَبَثِيَّةِ، إِلَى نُورِ الظُّمَائِنَةِ وَالْإِنْسِجَامِ وَالْغَايَةِ. وَمَنْ فَقَدَ هَذَا الْمَقْصِدَ، ضَلَّ تَعَقُّلَهُ، وَأَصْبَحَ ذَكَأُوهُ نَفْسُهُ أَدَاهٌ لِنَعْمِيقِ ضَلَالِهِ وَشَقَايِهِ.»

«فَإِذَا مَا وَجَدَ الْمَرْءُ الْإِتِّجَاهَ الصَّحِيحَ، وَاسْتَنَارَ بِنُورِ الْهُدَى، يَأْتِي الْمَقْصِدُ الثَّانِي، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَحْكَمَ كُلَّ خُطْوَةٍ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ. هَذَا الْمِيزَانُ هُوَ "الْعَدْلُ".»

«إِنَّ "الْعَدْلَ" هُوَ التَّجَلِّيُّ الْعَمَلِيُّ لِفِكْرَةِ "الْمِيزَانِ" الَّتِي بَحَدَّثْنَا عَنْهَا. إِنَّهُ مِيزَانُ التَّعَقُّلِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَالْأَحْكَامِ وَالْقِيَمِ. إِنَّهُ الْمَبْدَأُ الَّذِي يَضْبُطُ الْعِلَاقَاتِ كُلَّهَا: عِلَاقَتَكَ بِنَفْسِكَ (فَلَا تَظْلِمُهَا)، وَعِلَاقَتَكَ بِالنَّاسِ، وَعِلَاقَتَكَ بِالْكُونِ، وَعِلَاقَتَكَ بِرَبِّكَ. وَلِعَظَمِ هَذَا الْمَقْصِدِ، يَأْتِي الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ بِهِ صَرِيحًا وَمُطْلَقًا فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾. لَمْ يَقُلْ "يَفْتَرِخْ" أَوْ "يُحَبِّدْ"، بَلْ "يَأْمُرْ".»

هَنَا وَجَدْتُ زَيْنَبَ الْفَقِيهَةَ مَدْخَلًا أَصِيلًا. قَالَتْ بِحَمَاسٍ عِلْمِيٍّ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ مَقْصِدَ "الْعَدْلِ" هُوَ الْمَحْوَرُ الَّذِي تَدَوَّرُ حَوْلَهُ مَفَاهِيمَةُ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ بِأَكْمَلِهَا. إِنَّ "مَقَاصِدَ الشَّرِيعَةِ" الْكُلِّيَّةَ الْخَمْسَةَ الَّتِي أَسْتَنْبَطَهَا الْعُلَمَاءُ كَالشَّاطِبِي - وَهِيَ حِفْظُ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ - كُلُّهَا تَصُبُّ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ فِي تَحْقِيقِ الْعَدْلِ وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنِ الْبَشَرِ. فَالْشَّرِيعَةُ كُلُّهَا عَدْلٌ. وَتَعَقُّلُ الْفَقِيهِ هُوَ الْجُهْدُ الْمَتَوَاصِلُ لِلْكَشْفِ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَحْقِيقِ هَذَا الْعَدْلِ فِي وَقَائِعِ مُتَجَدِّدَةٍ.»

أَجَابُ الْإِمَامُ:

«بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا زَيْتَب. لَقَدْ رَبَطْتَ الْجُدُورَ بِالْفُرُوعِ. فَ"مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ" هِيَ التَّجَلِّيُ التَّفْصِيلِيُّ لـ "مَقْصِدِ الْعَدْلِ" الْقُرْآنِيِّ الْأَعْلَى. فَالْهُدَى يُعْطِينَا أَلْوَجْهَةً، وَالْعَدْلُ يُعْطِينَا الْقَانُونَ الْحَاكِمَ لِلسَّيْرِ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ.»

«فَإِذَا مَا تَحَقَّقَ الْمَقْصِدَانِ الْأَوَّلَانِ، وَسَارَ مُجْتَمَعٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى "هُدًى"، وَضَبَطَ عِلَاقَاتِهِ بِمِيزَانِ "الْعَدْلِ"، فَإِنَّهُ يَصِلُ حَتْمًا إِلَى الْمَقْصِدِ الثَّلَاثِ وَالْأَشْمَلِ، أَلْغَايَةِ الْخَضَارِيَّةِ الْكُبْرَى لِلتَّعَقُّلِ الْإِنْسَانِيِّ. هَذَا الْمَقْصِدُ هُوَ "الْعُمَرَانُ".»

«"الْعُمَرَانُ" هُوَ الْكَلِمَةُ الْقُرْآنِيَّةُ الْجَامِعَةُ لِكُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ يَا مُعَاذُ مِنْ تَقَدُّمٍ وَارْتِدَاءٍ، وَلِكَيْتَها أَعْنَى وَأَعَمَّقُ. فَالْقُرْآنُ يَسْتَخْدِمُ تَعْبِيرًا عَجِيبًا فِي سُورَةِ هُودٍ، حَيْثُ يَقُولُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَالِحٍ: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. تَأَمَّلُوا هَذَا الْفِعْلَ "وَاسْتَعْمَرَكُمْ". إِنَّهُ لَا يَعْينِي الْاسْتِعْمَارُ بِمَفْهُومِ الْقَهْرِ وَالْهَيْمَةِ، بَلْ هُوَ مِنَ الْجَذَرِ "عَمَرَ"، أَيْ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْكُمْ وَجَعَلَكُمْ "عُمَرَاءَ" لِهَذِهِ الْأَرْضِ. إِنَّهَا مَهْمَةٌ الْخِلَافَةِ. أَنْ تُحَوَّلَ الْأَرْضُ مِنْ حَالَةِ الْخَوَاءِ إِلَى حَالَةِ الْعُمَرَانِ. وَ"الْعُمَرَانُ" يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ: الْعُمَرَانُ

الْمَادِّيَّ فِي الْبِنَاءِ وَالزَّرَاعَةِ وَالصَّنَاعَةِ، وَالْعُمَرَانَ الْاجْتِمَاعِيَّ فِي بِنَاءِ أَسْرِ
مُتَمَاسِكَةٍ وَمُجْتَمَعَاتٍ مُتَرَاكِمَةٍ، وَالْعُمَرَانَ الْمَعْرِفِيَّ فِي تَطْوِيرِ الْعُلُومِ
وَالْفُنُونِ، وَالْعُمَرَانَ الرُّوحِيَّ فِي بِنَاءِ مَسَاجِدَ وَقُلُوبَ عَامِرَةٍ بِذِكْرِ اللَّهِ. إِنَّهُ
الْمَقْصِدُ الْكُلِّيُّ الَّذِي يُجَسَّدُ فِيهِ الْتَعَقُّلُ نَفْسُهُ فِي الْوُجُودِ.»

«وَهَكَذَا،» قَالَ الْإِمَامُ، «نَرَى الثَّلَاثِيَّةَ الْمُتَرَابِطَةَ: تَعَقُّلٌ يُؤَدِّي إِلَى
هُدًى، وَهُدًى يُطَبَّقُ بِعَدْلٍ، وَعَدْلٌ يُنْتِجُ عُمَرَانًا. وَبِالْمُقَابِلِ، تَعَقُّلٌ مُنْحَرِفٌ
يُؤَدِّي إِلَى ضَلَالٍ، وَضَلَالٌ يُطَبَّقُ بِظُلْمٍ، وَظُلْمٌ يُنْتِجُ خَرَابًا وَفَسَادًا فِي
الْأَرْضِ.»

«وَلَعَلَّنَا نَرَى هَذِهِ الْمَقَاصِدَ الثَّلَاثَةَ مُجْتَمِعَةً فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ جَامِعَةٍ
مِنْ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: «كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ». فَفَعَلَ "الْإِخْرَاجَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" هُوَ جَوْهَرُ الْهُدَى. وَهَذَا
الْإِخْرَاجُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ إِلَّا بِمَنْهَجٍ قَوِيمٍ وَرِسَالَةٍ حَقٍّ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ.
وَالنَّاتِجُ النِّهَائِيُّ، أَيْ حَيَاةُ النَّاسِ فِي "النُّورِ" بَدَلًا مِنْ "الظُّلُمَاتِ"، هُوَ
الْعُمَرَانُ الْحَقِيقِيُّ.»

جَمَعَ الْإِمَامُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ لِيَقْدَّمَ الْقَاعِدَةُ الثَّلَاثِيَّةَ عَشْرَةَ:

«مَقَاصِدُ الْتَعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ مُتَرَابِطَةٌ: الْهُدَى لِلتَّوْحِيدِ،
وَالْعَدْلُ كَمِيزَانٍ، وَالْعُمَرَانُ كَنَاقِيَةٍ. وَهِيَ الَّتِي تَرْفَعُ الْتَعَقُّلَ مِنْ كَوْنِهِ مُجَرَّدَ
فِعْلِ ذَهَبِيٍّ، لِتَجْعَلَهُ فِعْلًا حَيًّا يُصَحِّحُ مَسَارَ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْحَضَارَةِ
وَيُقِيمُهَا عَلَى الْحَقِّ.»

سَادَ صَمْتُ عَمِيقٍ فِي الْعُرْفَةِ. كَانَتْ الْكَلِمَاتُ الْأَخِيرَةُ قَدْ فَتَحَتْ
أُفُقًا وَاسِعًا، أُفُقًا يَجْعَلُ مِنَ فِعْلِ التَّفَكِيرِ الْبَسِيطِ عَمَلًا ذَا مَسْئُولِيَّةٍ كُونِيَّةٍ
وَحَضَارِيَّةٍ.

كَانَتْ زَيْنَبُ الْفَقِيهَةَ هِيَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ. قَالَ بِصَوْتٍ يَنْمُ عَنْ عَقْلِ
يُحَاوِلُ تَنْظِيمَ الْمَعْلُومَاتِ:

«شَيْخَنَا، لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْغَايَاتُ وَالْوُجْهَةُ وَاضِحَةً الْآنَ. فَهَمْنَا
"لِمَاذَا" نَتَّعَقَّلُ. وَلَكِنْ بَعْدَ مَعْرِفَةِ "الْغَايَةِ"، يَأْتِي سُؤَالُ "الطَّرِيقِ". فَهَذِهِ
الْمَقَاصِدُ الشَّاهِقَةُ - الْهُدَى وَالْعَدْلُ وَالْعُمَرَانُ - تَحْتَاجُ إِلَى طَرِيقٍ وَاضِحَةٍ
لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا. فَهَلْ أَكْتَفَى الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ بِتَحْدِيدِ الْمَقَاصِدِ، أَمْ أَنَّهُ قَدَّمَ لَنَا
أَيْضًا "مَنَاهِجَ" وَاضِحَةً لِلتَّعَقُّلِ، مَسَالِكَ فِكْرِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ إِذَا سَلَكَنَاهَا
أَوْصَلْتَنَا بِشَكْلِ مَوْثُوقٍ إِلَى هَذِهِ الْغَايَاتِ؟»

أَبْتَسِمَ الْإِمَامُ.

«أَحْسَنْتِ الْإِتِّقَالَ يَا زَيْنَبُ. فَكُلُّ مَقْصِدٍ عَظِيمٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
مَنْهَجٍ قَوِيمٍ. وَهَذِهِ "الْمَنَاهِجُ" ... هِيَ حَدِيثُنَا الْقَادِمُ.»

الفصل 14: الْمَسَالِكُ الْأَرْبَعَةُ

جَاءَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ وَكَانَتْهَا تَحْمِلُ مَعَهَا وَعَدًا بِالْوُضُوحِ. فِي الْجُلُوسَةِ السَّابِقَةِ، خَلَقَ الطُّلَابُ غَالِيًا فِي سَمَاءِ "الْمَقَاصِدِ"، وَرَأَوْا الْغَايَاتِ الشَّاهِقَةَ لِلتَّعَقُّلِ: الْهُدَى، وَالْعَدْلُ، وَالْعُمَرَانُ. وَالْآنَ، عَادُوا لِيَقِفُوا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ، وَفِي نَفُوسِهِمْ سُؤَالَ عَمَلِيٍّ مُلِحٍّ، السُّؤَالُ الَّذِي صَاغَتْهُ زَيْنَبُ بِدَقَّتِهَا الْأُصُولِيَّةِ: مَا هِيَ الطَّرُقُ وَالْمَنَاهِجُ الَّتِي تُوصِلُنَا إِلَى تِلْكَ الْغَايَاتِ؟

اسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ قَائِلًا، وَكَانَتْهُ يُجِيبُ عَلَى فِكْرَةٍ كَانَتْ لَا تَزَالُ مَائِلَةً فِي الْهَوَاءِ:

«سَأَلْتُ يَا زَيْنَبُ عَنِ "الْمَنَاهِجِ". وَسُؤَالُكَ يُبْنِي أَنَّ "التَّعَقُّلَ" الْحَقِيقِيَّ لَيْسَ مُجَرَّدَ نَوَايَا طَبِيعَةٍ أَوْ أَشْوَاقِ رُوحِيَّةٍ، بَلْ هُوَ عَمَلٌ مُنَظَّمٌ يَحْتَاجُ إِلَى مَسَالِكٍ وَاضِحَةٍ. فَلَا يَكْفِي أَنْ تَرِيدَ الْوُضُوحَ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ الدُّرُوبَ الْأَمْنَةَ الَّتِي تَصْعَدُ بِكَ، وَتَتَجَنَّبَ الْمُنْحَذَرَاتِ الَّتِي تَهْلِكُكَ. وَالْجَوَابُ هُوَ نَعَمْ، لَمْ يَتْرَكْنَا الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ مَعَ غَايَاتِ سَامِيَّةٍ دُونَ أَنْ يَرَسُمَ لَنَا الْمَنَاهِجَ الْوَاضِحَةَ لِبُلُوغِهَا. إِنَّهُ يُقَدِّمُ لَنَا "عُدَّةَ السَّالِكِ" كَامِلَةً، أَرْبَعَةَ مَسَالِكٍ أَوْ مَنَاهِجٍ كَثْرَى، كُلُّ مَنَهْجٍ مِنْهَا مُخَصَّصٌ لِلتَّعَامُلِ مَعَ نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَقِيقَةِ.»

تَدَخَّلَ أَرِسْطُو بِأَهْتِمَامٍ، وَقَدْ بَدَتْ فِي عَيْنَيْهِ لَمَعَةٌ بَاحِثٍ يَحَاوِلُ

الْفَهْمَ:

«هَذَا مُثِيرٌ لِلْغَايَةِ يَا شَيْخَنَا. فِي تَقْلِيدِنَا الْفَلَسَفِيِّ، نُمَيِّزُ أَيْضًا بَيْنَ مَنَاهِجٍ مُخْتَلِفَةٍ: الْمَنَهْجُ الْجَدَلِيُّ عِنْدَ سُقْرَاطَ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، وَالْمَنَهْجُ الْأُسْتِنْبَاطِيُّ عِنْدَ أَرِسْطُو الَّذِي يَنْتَقِلُ مِنَ الْكُلِّيِّ إِلَى الْجَزْئِيِّ، وَالْمَنَهْجُ الْأُسْتِفْرَاطِيُّ الَّذِي يَنْتَقِلُ مِنَ الْجَزْئِيِّ إِلَى الْكُلِّيِّ. فَهَلْ هَذِهِ الْمَنَاهِجُ الْقَرَاتِيَّةُ هِيَ أَشْكَالٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الْأُسْتِدْلَالِ الْمَنْطِقِيِّ؟»

إِعْتَدَلِ الْإِمَامُ فِي جِلْسَتِهِ، وَتَأَمَّلْ وَجُوهَ الطُّلَابِ الْمَتَرَقِّبَةِ، ثُمَّ رَدَّ بِصَوْتٍ وَاقٍ:

«لَا يَا أَرِسْطُو، مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ لَيْسَ "فَلَسَفَةً" نُرَاجِمُ فَلَسَفَتَكُمْ فِي طَرِيقِ الْأُسْتِدْلَالِ، بَلْ جَاءَ بِبَدِيلٍ أَصِيلٍ اسْمُهُ "الْبَيَانُ". فَإِنْ كَانَتْ فَلَسَفَتُكُمْ هِيَ مَحَبَّةُ الْحِكْمَةِ عَنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ الْمَجَرَّدِ، فَالْبَيَانُ عِنْدَنَا هُوَ كَشْفُ الْحَقِّ وَوَضْعُهُ فِي الْمِيزَانِ، حَيْثُ يَشْهَدُ لَهُ النَّصُّ وَتُصَدِّقُهُ التَّجَرِبَةُ وَيُقِيمُهُ الْمَقْدَارُ.

فَلَيْسَ الْبَيَانُ طَرِيقَةً جَدَلٍ، وَلَا هُوَ قَاعِدَةٌ أُسْتِنْبَاطِيَّةٌ أَوْ إِسْتِفْرَاطِيَّةٌ. بَلْ هُوَ "مِيزَانٌ جَامِعٌ" يَزِنُ هَذِهِ الْوَسَائِلَ كُلَّهَا، فَيُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ مَقَامَهُ دُونَ أَنْ يَتَسَيَّدَ عَلَى غَيْرِهِ. وَهُنَا يَكْمُنُ الْفَرْقُ: فَالْفَلَسَفَةُ بَنَتْ مَجْدَهَا عَلَى الْعَقْلِ وَحْدَهُ، أَمَّا الْبَيَانُ فَبُنِيَائُهُ عَلَى التَّعَقُّلِ وَالرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَالْقَلْبِ وَالتَّجَرِبَةِ وَالْمَقْدَارِ مَعًا.

فَالْبَيَانُ — يَا أَرِسْطُو — لَيْسَ فَضْلًا جَدِيدًا فِي كِتَابِ فَلَسَفَتِكُمْ، بَلْ هُوَ كِتَابٌ آخَرٌ، وَعَالَمٌ آخَرُ.»

حَيَّمَ السُّكُوتُ فِي الْمَجْلِسِ، وَتَحَرَّكَتْ عُيُونُ الطُّلَابِ بَيْنَ الْإِمَامِ

وَأَرِسْطُو. كَانَتْ "زَيْنَبُ" أَوَّلَ مَنْ قَطَعَ هَذَا الصَّمْتِ، فَقَالَتْ وَهِيَ تُحَدِّقُ فِي الْإِمَامِ:

«شَيْخَنَا، هَلْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنَا نُعْلِقُ بَابَ الْفَلَسَفَةِ إِذَنْ، وَنَفْتَحُ بَابَ الْبَيَانِ؟»

أَزْتَسَمَّتْ عَلَى وَجْهِ الْإِمَامِ ابْتِسَامَةٌ هَادِيَةٌ، وَخَفَضَ صَوْتَهُ كَمَنْ يُسْدِلُ سِتَارًا:

«نَعَمْ يَا زَيْنَبُ، هُوَ كَذَلِكَ. الْفَلَسَفَةُ بَحَثٌ عَنِ الْحِكْمَةِ بِالْعَقْلِ وَخَذُهُ، أَمَّا الْبَيَانُ فَهُوَ الْحِكْمَةُ كَمَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ: يَشْهَدُ لَهَا النَّصُّ، وَتُصَدِّقُهَا التَّجَرُّبَةُ، وَيُقِيمُهَا الْمِقْدَارُ. هَذَا هُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي يُقِيمُ الْفِلْسُطَ، وَيُنْبِي الْعُمْرَانَ، وَيَهْدِي إِلَى الْحَقِّ.»

تَأَمَّلَ أَرِسْطُو طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِالصَّدْقِ:

«إِنِّي لَأَرَى الْآنَ فَرْقًا عَظِيمًا بَيْنَ مَا صَنَعْتَاهُ فِي فَلَسَفَتِنَا وَمَا جِئْتُمْ بِهِ فِي بَيَانِكُمْ. نَحْنُ حَصَرْنَا الْإِنْسَانَ فِي عَقْلِهِ، أَمَّا أَنْتُمْ فَقَدْ فَتَحْتُمْ لَهُ أَبْوَابَ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَالْخَوَاسِ وَالْمِقْدَارِ، وَجَعَلْتُمُوهَا كُلَّهَا تَشْهَدُ لِلْحَقِّ. أَقِرُّ بِصِرَاحَةٍ: الْبَيَانُ لَيْسَ فَضْلًا فِي كِتَابِ الْفَلَسَفَةِ، بَلْ هُوَ كِتَابٌ آخَرُ.»

أُنْحَبَى الْمَجْلِسُ فِي صَمْتٍ وَقَارٍ، كَأَنَّمَا يَشْهَدُ وَلَادَةَ مَفْهُومٍ جَدِيدٍ، وَيَسْتَمِعُ لَوْفِعِ كَلِمَاتٍ تَبْقَى فِي الذَّاكِرَةِ: «الْبَيَانُ بَدِيلُ الْفَلَسَفَةِ».

سَادَ صَمْتُ قَصِيرٌ فِي الْمَجْلِسِ بَعْدَ إِفْرَارِ أَرِسْطُو، وَكَأَنَّ الْكَلِمَاتِ قَدْ تَرَكَتْ أَثَرًا عَمِيقًا فِي الْقُلُوبِ. تَطَلَّعَ الطُّلَّابُ إِلَى الْإِمَامِ، وَالْأَنْفَاسُ

مَحْبُوسَةٌ فِي الصُّدُورِ، يَتَرَقَّبُونَ خُطْوَتَهُ التَّالِيَةَ.

أَجَابَ الْأَمَامُ، وَهُوَ يُحَدِّقُ فِي وُجُوهِهِمْ بِنَظَرَةٍ شَامِلَةٍ:

«إِنَّهَا أَشْمَلُ مِنْ ذَلِكَ يَا أَرِسْطُو. فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ "الْيَبَاتِ لِلْأُسْتِدْلَالِ"، بَلْ هِيَ "مَسَالِكُ لِلْوُجُودِ". إِنَّهَا تُوَجِّهُ كَيَانَ الْإِنْسَانِ كُلَّهُ، لَا ذَهْنَهُ فَقَطْ. وَهَذِهِ الْمَسَالِكُ الْأَرْبَعَةُ هِيَ: التَّفَكُّرُ وَالتَّدَبُّرُ وَالتَّذَكُّرُ وَالْإِعْتِبَارُ.»

أُنْحَى الطَّلَابُ إِلَى الْأَمَامِ فِي إِنْصَاتٍ، فَقَالَ وَهُوَ يَرْفَعُ يَدَهُ كَمَنْ يَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا:

«لِنَبْدَأَ بِالْمَسَلِكِ الْأَوَّلِ وَالْأَوْسَعِ: مَنِهْجُ التَّفَكُّرِ.

إِنَّ "التَّفَكُّرَ" هُوَ الْمَنِهْجُ الَّذِي وَضَعَهُ الْفُرَّانُ لِلتَّعَامُلِ مَعَ "كِتَابِ الْكُونِ الْمَنْظُورِ". مَجَالُهُ هُوَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَبُزُولُ الْمَطَرِ، وَحَرَكَةُ الرِّيَّاحِ، وَأَطْوَارُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ. إِنَّهُ دَعْوَةٌ لِفَتْحِ الْعَيْنَيْنِ وَالْعَقْلِ عَلَى الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ الَّذِي يُحِيطُ بِنَا.

وَأَعْظَمُ تَأْسِيسٍ لِهَذَا الْمَنِهْجِ نَجِدُهُ فِي آوَاخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِيَ الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فَالْتَفَكُّرُ هُنَا لَيْسَ نَظَرًا ذَهْنِيًّا بَارِدًا، بَلْ هُوَ مَسَلِكٌ لِشُهُودِ الْحَقِّ فِي الْكُونِ، وَمِمِيزَانٌ يَجْمَعُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ. «

قَالَ مُعَاذٌ بِأَهْتِمَامٍ:

«هَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ فِي الْقُرْآنِ إِلَى رُوحِ "الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ". إِنَّهَا تَدْعُو إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَهَذَا هُوَ مَا يَفْعَلُهُ الْعَالَمُ بِالضَّبْطِ: يَلْحِظُ، وَيَتَفَكَّرُ، وَيَسْتَنْتِجُ الْقَوَائِنَ.»

رَدُّ الْإِمَامِ:

«أَحْسَنْتَ الْمَلَاخَظَةَ يَا مُعَاذُ، وَلَكِنَّكَ أَغْفَلْتَ شَرْطًا أَسَاسِيًّا وَضَعْتَهُ الْآيَاتُ. لَاحِظِ التَّرْتِيبَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ... وَيَتَفَكَّرُونَ...﴾. إِنَّ "التَّفَكُّرَ" الْقُرْآنِيَّ لَيْسَ نَظَرًا بَارِدًا وَمُحَادِّثًا فِي الْكَوْنِ. إِنَّهُ تَفَكُّرٌ "مَسْبُوقٌ" وَ"مَصْحُوبٌ" بِذِكْرِ اللَّهِ. إِنَّهَا عَمَلِيَّةٌ تَأْمُلُ فِي الْخَلْقِ تَقَامُ دَاخِلَ إِطَارٍ مِنَ الْوَعْيِ بِوُجُودِ الْخَالِقِ. هُنَا يَخْتَلِفُ الْمَسَارَانِ. فَالْعَالِمُ الْمَادِّيُّ قَدْ يَتَفَكَّرُ لِيَصِلَ إِلَى اكْتِشَافِ "الْقَانُونِ" (How)، أَمَّا الْمُتَعَقِّلُ الْمُؤْمِنُ فَيَتَفَكَّرُ لِيَنْتَقِلَ مِنَ "الْقَانُونِ" إِلَى "الْمُسْرَعِ" (Who). وَلِذَلِكَ، تَخْتِمُ الْآيَاتُ نَتِيجَةَ هَذَا التَّفَكُّرِ بِذَلِكَ الدَّعَاءِ الْعَظِيمِ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. فَغَايَةُ التَّفَكُّرِ لَيْسَتْ الْوُصُولُ إِلَى مُعَادَلَةٍ رِيَاضِيَّةٍ، بَلِ الْوُصُولُ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْخُشُوعِ وَالتَّسْبِيحِ وَالْإِقْرَارِ بِأَنَّ لِهَذَا الْكَوْنَ غَايَةً وَمَعْنَى.»

«فَإِذَا كَانَ "التَّفَكُّرُ" هُوَ مَنْهَجَ قِرَاءَةِ كِتَابِ الْكَوْنِ، فَإِنَّ الْمَنْهَجَ الثَّانِيَّ هُوَ مَنْهَجُ قِرَاءَةِ كِتَابِ الْوَحْيِ. وَهُوَ "مَنْهَجُ التَّدَبُّرِ".»

«وَقَدْ مَرَّ بِنَا هَذَا الْمُصْطَلَحُ حِينَ تَحَدَّثْنَا عَنِ "الْقَلْبِ"، فَقَدْ رَبَطَ الْقُرْآنُ بَيْنَهُمَا رِبْطًا وَثِيقًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. إِنَّ مَجَالَ "التَّدَبُّرِ" هُوَ الْكَلَامُ الْإِلَهِيُّ. وَوُظِفَتْهُ هِيَ الْعَوَظُ وَرَاءَ السُّطُورِ، وَالتَّبَحُّثُ عَنِ "دُبُرِ" الْأَمْرِ، أَيْ عَنِ عَوَاقِبِهِ وَمَقَاصِدِهِ وَأَسْرَارِهِ. إِنَّهُ مَنْهَجٌ يُحَاوِلُ أَنْ يَفْتَحَ أَقْفَالَ الْقَلْبِ لِفَهْمِ مُرَادِ اللَّهِ.»

قَالَ سَلْمَانُ:

«هَلِ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا إِذَنْ هُوَ فَرْقٌ فِي "الْمَوْضُوعِ"؟ الْتَفَكُّرُ فِي الْخَلْقِ، وَالتَّدَبُّرُ فِي الْقُرْآنِ؟»

أَجَابَ الْأِمَامُ:

«فِي الْمَوْضُوعِ، وَفِي الْأَلِيَّةِ أَيْضًا. "الْتَفَكُّرُ" يَنْتَقِلُ مِنَ الْمَحْسُوسِ إِلَى الْمَعْقُولِ. أَمَّا "التَّدَبُّرُ" فَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمَعْقُولِ (النَّصِّ) إِلَى الْأَعْمَقِ مِنْهُ. إِنَّهُ يُشْبِهُ قِرَاءَةَ النَّاقِدِ الْخَبِيرِ لِقَصِيدَةٍ. فَهُوَ لَا يَقْرَأُ الْكَلِمَاتِ فَقَطْ، بَلْ يَبْحَثُ عَنِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْآيَاتِ، وَعَنِ الرُّمُوزِ الْخَفِيَّةِ، وَعَنِ نَفْسِيَّةِ الشَّاعِرِ، وَعَنِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي تَقِفُ خَلْفَ النَّصِّ. هَذَا هُوَ فِعْلُ التَّدَبُّرِ.»

«وَلَنَنْتَقِلَ إِلَى الْمَنْهَجِ الثَّالِثِ، وَهُوَ مَنْهَجُ يَتَعَلَّقُ بِالْوَعْيِ الْحَاضِرِ. إِنَّهُ "مَنْهَجُ التَّذَكُّرِ". وَقَدْ مَرَّ بِنَا هَذَا الْمُصْطَلَحُ فِي مَقَامَاتِ التَّعَقُّلِ، وَلَكِنَّهُ هُنَا يَعْمَلُ كَمَنْهَجٍ مُسْتَقِلٍّ. مَجَالُهُ هُوَ "النَّعَمُ" وَ"الْآيَاتُ" الْمُبَاشِرَةُ فِي حَيَاةِ الْفَرْدِ وَيَوْمِهِ. إِنَّهُ مَنْهَجُ "الْبِقَظَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ". وَطِيفَتُهُ هِيَ أَنْ يَرِيطَ الْإِنْسَانُ بِشَكْلِ دَائِمٍ بِمَصَادِرِ الشُّكْرِ وَالْإِيمَانِ، وَأَنْ يَحْمِيَهُ مِنَ الْغَرَقِ فِي الْغَفْلَةِ. وَأَصْلُهُ هُوَ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». إِنَّهُ مَنْهَجٌ يَقُومُ عَلَى فِعْلِ "التَّذَكُّرِ" الْمُسْتَمِرِّ لِلذَّاتِ.»

«وَأَخِيرًا، الْمَنْهَجُ الرَّابِعُ، وَهُوَ مَنْهَجُ التَّعَامُلِ مَعَ الزَّمَنِ وَالتَّارِيخِ، وَهُوَ "مَنْهَجُ الْأَعْتِبَارِ". مَجَالُهُ هُوَ التَّارِيخُ الْبَشَرِيُّ وَالْجَبَرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُتَرَاكِمَةُ. وَوَطِيفَتُهُ هِيَ تَحْوِيلُ التَّجَارِبِ الْمَاضِيَّةِ، سِوَاءَ كَانَتْ شَخْصِيَّةً أَمْ جَمْعِيَّةً، إِلَى دُرُوسٍ وَمَوَازِينَ وَقَوَائِنَ. وَأَصْلُهُ هُوَ الْأَمْرُ الْحَاسِمُ: «فَاعْتَبِرُوا يَأُولَى الْأَبْصَارِ.»

«فَتَكْتُمِلْ لَدَيْنَا الصُّورَةُ،» قَالَ الْإِمَامُ وَهُوَ يَرْسُمُ بِيَدِهِ فِي الْهَوَاءِ. «"تَفَكَّرْ" يَقْرَأُ كِتَابَ الْكُونِ. وَ"تَدَبَّرْ" يَقْرَأُ كِتَابَ الْقُرْآنِ. وَ"تَذَكَّرْ" يَقْرَأُ كِتَابَ النَّفْسِ وَالنَّعْمِ الْخَاضِرَةِ. وَ"أَعْتَبَارْ" يَقْرَأُ كِتَابَ التَّارِيخِ وَالزَّمَانِ. هَذِهِ هِيَ الْمَكْتَبَةُ الْكَامِلَةُ لِلْمُتَعَقِّلِ.»

«وَلِنَعْمَ بِتَمَرِينِ تَطْيِيقِي لِنَرَى كَيْفَ تَتَكَامَلُ هَذِهِ الْمَنَاهِجُ. تَأَمَّلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بَعْدَ ذِكْرِ غَزْوَةِ بَدْرٍ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. كَيْفَ تَجْتَمِعُ الْمَنَاهِجُ هُنَا؟»

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«"الْأَعْتَبَارُ" وَاضِحٌ فِي خَتَامِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾. إِنَّهَا تَدْعُونَا لِلْعُبُورِ مِنَ الْحَدَثِ التَّارِيخِيِّ إِلَى دَرْسٍ.»

وَقَالَ مُعَاذُ:

«و"التَّفَكُّرُ" مَوْجُودٌ فِي دَعْوَتِهَا لِلنَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْمَادِّيَّةِ لِلْمَعْرِكَةِ: فِئَةٌ قَلِيلَةٌ تَنْتَصِرُ عَلَى فِئَةٍ كَبِيرَةٍ.»

وَأَصَافَتْ لَيْلَى:

«و"التَّذَكُّرُ" حَاضِرٌ فِي التَّذْكِيرِ بِقَاعِدَةِ إِيمَانِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾.»

وَحَتَمَ الْإِمَامُ:

«أَحْسَنْتُمْ. وَ"التَّدَبُّرُ" هُوَ الْعَمَلِيَّةُ الْكُلِّيَّةُ لِتَفْكِكِ هَذِهِ الْأَيَّةِ نَفْسِهَا، لِتَفْهَمَ كَيْفَ رَبَّطَ اللَّهُ بَيْنَ الْفِعْلِ الْبَشَرِيِّ (الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وَالتَّأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ. فَتَرَوْنَ كَيْفَ أَنَّ الْأَيَّةَ الْوَاحِدَةَ تَسْتَدْعِي كُلَّ مَنَهِجِ التَّعَقُّلِ لِكَيْ تُفْهَمَ فَهْمًا كَامِلًا.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ:

«مَنَهِجُ التَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ أَرْبَعَةٌ مُتَكَامِلَةٌ: التَّفَكُّرُ فِي الْكَوْنِ، وَالتَّدَبُّرُ فِي الْقُرْآنِ، وَالتَّذَكُّرُ لِلآيَاتِ وَالنَّعَمِ، وَالْإِعْتِبَارُ بِالتَّارِيخِ وَالْخُبْرَةِ. وَهِيَ لَيْسَتْ جُزْأًا مُنْعَزَلَةً، بَلْ هِيَ مَسَالِكُ مُتَدَاخِلَةٍ تُحوِّلُ التَّعَقُّلَ إِلَى مِيزَانٍ حَيٍّ وَشَامِلٍ يُوْجِّهُ الْإِنْسَانَ فِي كُلِّ أَبْعَادِ الْحَيَاةِ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَ الطُّلَّابُ قَدْ أَعْطَوْا لِتَوْهَمِ صُنْدُوقِ عُدَّةٍ كَامِلًا، وَهُمْ يَتَأَمَّلُونَ فِي كُلِّ أَدَاةٍ وَوُظِيفَتِهَا.

وَكَانَ خَالِدٌ، بِبَسَاطَتِهِ الْعَمِيقَةِ، هُوَ مَنْ طَرَحَ السُّؤَالَ النَّهَائِيَّ. قَالَ:

«شَيْخَنَا، لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَيْنَا الْآنَ خَرِيطَةٌ لِكَيَانِنَا الدَّاخِلِيِّ، وَسَلَّمَ لِنُمُوِّنَا، وَغَايَاتُ لِيُجَوِّدِنَا، وَمَنَهِجٌ لِيَسِيرِنَا. وَلَكِنْ بَقِيَ سُؤَالٌ. عِنْدَمَا أَقُومُ بِهَذِهِ الْمَنَهِجِ، مَنْ هُوَ "الْفَاعِلُ" الْحَقِيقِيُّ فِي دَاخِلِي؟ حِينَ "اتَّفَكَّرْتُ"، هَلْ هُوَ "ذِهْنِي" الَّذِي يَفْعَلُ؟ وَحِينَ "اتَّدَبَّرْتُ"، هَلْ هُوَ "قَلْبِي"؟ وَحِينَ "اتَّذَكَّرْتُ"، هَلْ هِيَ "ذَاكِرَتِي"؟ هَلْ لِكُلِّ مَنَهِجٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنَهِجِ "مَرَكُزٌ" أَسَاسِيٌّ فِي كَيَانِنَا يَقُومُ بِهِ؟ أَيْنَ تَقَعُ بِالضَّبْطِ مَرَكَزُ الْقِيَادَةِ لِكُلِّ عَمَلِيَّةٍ مِنْ عَمَلِيَّاتِ التَّعَقُّلِ هَذِهِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

جَدِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتُ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

«لَقَدْ أَصْبَحْتُمْ تُتَقِنُونَ فَنَ الْإِنْتِقَالَ بَيْنَ الْمَجَالِسِ بِبَرَاعَةٍ. سُؤَالَكَ
هُوَ الْبَوَابَةُ لِلدُّخُولِ إِلَى غُرْفَةِ الْخَرَائِطِ الْتَفْصِيلِيَّةِ لِنَعْرِفَ مَوَاقِعَ هَذِهِ
"الْمَرَائِزِ". وَهَذِهِ... قِصَّةُ أُخْرَى.»

الفصل 15: جُغْرَافِيَا الْوَعْيِ

كَانَ اللَّيْلُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُقِ وَالسُّكُونِ حَدًّا جَعَلَ الْغُرْفَةَ الْمُضَاءَةَ
بِالنُّورِ الدَّافِئِ تَبْدُو كَسَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ تَمُحَّرُ عِبَابَ مُحِيطٍ لَا نِهَآيَةَ لَهُ مِنْ
الظَّلَامِ. الْأَفْكَارُ الَّتِي طَرَحَتْ فِي الْجَلْسَةِ الْمَاضِيَةِ حَوْلَ "مَنَاهِجِ التَّعَقُّلِ"
كَانَتْ قَدْ وَصَعَتْ بَيْنَ أَيْدِي الطُّلَابِ عُدَّةَ عَمَلٍ كَامِلَةٍ، وَلَكِنَّ سُؤَالَ خَالِدٍ
الْأَخِيرَ أَضَافَ بُعْدًا جَدِيدًا: لَيْسَ فَقَطْ "مَاذَا" تَفْعَلُ وَ"كَيْفَ"، بَلْ "أَيْنَ"
يَحْدُثُ الْفِعْلُ فِي دَاخِلِنَا.

اسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجَلْسَةَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى خَالِدٍ بِأَمْتِنَانٍ:

«لَقَدْ قَادَنَا سُؤَالُكَ يَا خَالِدُ إِلَى قَلْبِ "جُغْرَافِيَا الْوَعْيِ" فِي
الْإِنْسَانِ. بَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا الْمَنَاهِجَ، تَسْأَلُ الْآنَ عَنْ "مَرَائِزِ" الْقِيَادَةِ الَّتِي تُدِيرُ
هَذِهِ الْمَنَاهِجَ. وَهَذَا انْتِقَالٌ صَرُورِيٌّ، فَلَا يُمْكِنُ لِقَائِدٍ جَيِّشٍ أَنْ يَضَعَ خُطَّةَ
نَاجِحَةٍ مَا لَمْ يَعْرِفْ مَرَائِزَ الْقِيَادَةِ وَالسَّيْطَرَةِ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. وَأَرْضُ
مَعْرَكَتِنَا الْكُبْرَى هِيَ دَوَاخِلُنَا.»

قَالَ مُعَاذٌ، مُحَاوِلًا كَبْحَ جِمَاحِ نَفْسِهِ قَلِيلًا، لَكِنَّ الرُّغْبَةَ فِي
التَّوْضِيحِ الْعِلْمِيِّ غَلَبَتْهُ:

«شَيْخَنَا، أَرْجُو أَنْ تَغْفِرَ لِي إِصْرَارِي، لَكِنَّا نَعُودُ لِنُوَاجِهَ نَفْسَ

الْمُعْضَلَة. "مَرَاكِزُ الْقِيَادَةِ" لِلْوَعْيِ وَالْإِذْرَاكِ وَالْقَرَارِ مَعْرُوفَةٌ فِي عِلْمِ الْأَعْصَابِ، وَهِيَ جَمِيعُهَا تَقَعُ فِي الدِّمَاغِ. عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ "الْقَلْبِ وَالْفُؤَادِ وَالصَّدْرِ" كَمَرَاكِزٍ، أَلَا نَخْلُقُ خَرِيطَةً مَجَازِيَّةً قَدْ تُشَوِّشُ عَلَيَّ فَهْمِنَا لِلْخَرِيطَةِ الْوُطَائِفِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ؟ مَا الْقِيَمَةُ الْمُضَافَةُ لِتَحْدِيدِ هَذِهِ الْمَرَاكِزِ إِذَا كَانَ الْمَرْكَزُ الْحَقِيقِيُّ وَاحِدًا وَهُوَ الدِّمَاغُ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ بِصَبْرٍ:

«أَنَا أَقْدِرُ جِرْصَكَ عَلَى الدَّقَّةِ يَا مُعَاذُ، وَلَا أَرَى أَيَّ تَعَارُضٍ بَيْنَ الْخَرِيطَتَيْنِ. خَرِيطَتُكَ هِيَ خَرِيطَةُ "الْجُغَرَاْفِيَا الْفِيْزِيَاْتِيَّةِ" لِلْجَسَدِ، وَهِيَ صَحِيحَةٌ وَنَافِعَةٌ. أَمَّا خَرِيطَةُ الْقُرْآنِ فَهِيَ خَرِيطَةُ "الْجُغَرَاْفِيَا الْوُطَائِفِيَّةِ" لِلْوَعْيِ. هِيَ لَا تَهْتَمُّ بِ"أَيْنَ يَقَعُ الْعُضْوُ؟" بِقَدْرِ مَا تَهْتَمُّ بِ"مَاذَا تَفْعَلُ الْوُطَائِفَةُ؟". إِنَّهَا تُقَدِّمُ لَنَا لُغَةً وَإِطَارًا لِفَهْمِ تَجَرِبَتِنَا الْأَدَاتِيَّةِ وَإِدَارَتِهَا، وَهَذَا مَا لَا تَسْتَطِيعُ خَرِيطَةُ الْأَعْصَابِ أَنْ تُقَدِّمَهُ لَنَا. فَالْقُرْآنُ لَا يُعَلِّمُنَا عِلْمَ الْأَحْيَاءِ، بَلْ يُعَلِّمُنَا عِلْمَ الْأَحْيَاءِ بِاللَّهِ.»

«لَقَدْ مَرَرْنَا بِهِذِهِ الْمَرَاكِزِ الثَّلَاثَةِ فِي لَيَالٍ مَاضِيَةٍ، وَلَكِنَّا سَنَعُودُ إِلَيْهَا اللَّيْلَةَ لِنَنْظُرَ إِلَيْهَا لَا كَجُرِّ مُنْعَرَلَةٍ، بَلْ كَمَنَاطِقٍ إِدَارِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ فِي دَوْلَةِ الْوَعْيِ. وَهِيَ، مِنْ الْخَارِجِ إِلَى الدَّخْلِ: الصَّدْرُ فَالْفُؤَادُ فَالْقَلْبُ.»

«لِنَبْدَأَ مِنَ الْخَارِجِ، مِنْ حُصُونِ الْمَمْلَكَةِ وَبَوَابِهَا الْعَظِيمَةِ، وَهُوَ "الصَّدْرُ". قُلْنَا إِنَّهُ الْمَجَالُ النَّفْسِيُّ الْوَاسِعُ، وَسَاحَةُ الْقَصْرِ الْكُبْرَى. وَطِيقَتُهُ الْأَوَّلَى وَالْأَهَمُّ هِيَ أَنْ يَكُونَ "مَرْكَزَ الْقَبُولِ وَالرَّفْضِ" الْأَوَّلِيَّ. فَكُلُّ فِكْرَةٍ، أَوْ آيَةٍ، أَوْ تَجَرِبَةٍ، قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى مَرَاكِزِ التَّحْلِيلِ الْعَمِيقَةِ، تَطْرُقُ بَابَ الصَّدْرِ أَوَّلًا. وَالصَّدْرُ يَتَّخِذُ قَرَارًا فُورِيًّا: إِمَّا أَنْ "يُنْشِرِحَ" لَهَا فَيَفْتَحَ الْبَابَ، أَوْ أَنْ "يَضِيقَ" بِهَا فَيُعْلِقَهُ. وَهَذَا مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ آيَةُ الْأَنْعَامِ بِوُضُوحٍ:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

سَأَلْتُ لَيْلَى:

«هَلْ هَذَا الْإِنْشِرَاحُ أَوْ الضِّيقُ فِعْلٌ نَخْتَارُهُ، أَمْ هُوَ شَيْءٌ يَخْدُثُ لَنَا؟ الْآيَةُ تَقُولُ "يَشْرَحْ" وَ"يَجْعَلُ"، وَكَانَتْ فِعْلٌ إِلَهِيٌّ خَالِصٌ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«هُوَ تَفَاعُلٌ مُعَقَّدٌ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْقَابِلِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ. فَمَنْ يَتَوَجَّهَ بِصِدْقٍ نَحْوَ الْحَقِّ، يَمُنُّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَذِهِ السَّعَةِ النَّفْسِيَّةِ كَعَوْنٍ لَهُ. وَمَنْ يُعْرِضُ وَيَتَكَبَّرُ، يُتْرَكُ لِضَيْقِ صَدْرِهِ الَّذِي اخْتَارَهُ. وَلَكِنْ مَا يَهْمُنَا هُنَا هُوَ أَنْ نُذَرِكَ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ - الْإِنْشِرَاحَ أَوْ الضِّيقَ - هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ مَسَارَ التَّعَقُّلِ كُلِّهِ. فَلَا يُمَكِّنُ لِتَعَقُّلٍ أَنْ يَكُونَ سَلِيمًا فِي صَدْرِ ضَيْقٍ.»

«وَإِذَا فَتَحَ الصَّدْرُ بَوَابَاتِهِ، وَدَخَلَتِ الْفِكْرَةُ أَوْ التَّجَرُّبَةُ إِلَى السَّاحَةِ الدَّاجِلِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَنْتَقِلُ إِلَى الْمَرْكَزِ الثَّانِي، مَرْكَزِ التَّفَاعُلِ وَالْمُعَالَجَةِ الْحَارَّةِ، وَهُوَ "الْفُؤَادُ". قُلْنَا إِنَّهُ مَطْبَحُ الْمَعْنَى، وَمَرْكَزُ الْمَشَاعِرِ وَالْوُجْدَانِ. فَالْفُؤَادُ هُوَ الَّذِي يَأْخُذُ الْإِدْرَاكَ الْخَامَ وَيَصْبُغُهُ بِصِبْغَةِ عَاطِفِيَّةٍ. إِنَّهُ الَّذِي يُعْطِي التَّعَقُّلَ بُعْدَهُ الْوُجْدَانِيَّ. وَكَمَا رَأَيْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، فَإِنَّهُ مَرْكَزٌ لِنَوْعٍ خَاصٍّ مِنَ الرُّؤْيَا الْبَاطِنِيَّةِ الصَّادِقَةِ.»

قَالَ سَلْمَانُ:

«إِذْنِ الصَّدْرِ هُوَ "حَارِسُ الْبَوَابَةِ"، وَالْفُؤَادُ هُوَ "سَكَّانُ الْمَدِينَةِ" الَّذِينَ يَتَفَاعَلُونَ مَعَ الزَّائِرِ الْجَدِيدِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ:

«تَشْبِيهٌ جَمِيلٌ. فَقَدْ يَقْبَلُ الْخَارِسُ دُخُولَ الرَّائِرِ، وَلَكِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَدْ يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالْفَرَحِ أَوْ الْغَضَبِ أَوْ الْخَوْفِ. هَذَا التَّفَاعُلُ الْأَوَّلِيُّ هُوَ عَمَلُ الْفَوَادِ.»

«وَبَعْدَ أَنْ يَتِمَّ هَذَا التَّفَاعُلُ فِي الْفَوَادِ، وَتُصَبِّغَ الْفِكْرَةَ بِصِبْغَتِهَا الشُّعُورِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَرْفَعُ إِلَى الْمَرْكَزِ الْأَعْلَى، إِلَى مَرْكَزِ الْقَرَارِ النَّهَائِيِّ، إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ، وَهُوَ "الْقَلْبُ". قُلْنَا إِنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَرْكَزُ الْإِيمَانِ وَالتَّدَبُّرِ. إِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ مُتَّفَاعِلٍ، بَلْ هُوَ صَانِعٌ قَرَارٍ. هُوَ الَّذِي يَأْخُذُ الْفِكْرَةَ بَعْدَ أَنْ لَوَّنَهَا الْفَوَادُ، وَيَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ "التَّدَبُّرِ" الْعَمِيقَةِ، فَيَقْبِلُهَا عَلَى وُجُوهِهَا، وَيَنْظُرُ فِي عَوَاقِبِهَا، وَيُصَدِّرُ حُكْمَهُ النَّهَائِيَّ بِالتَّصَدِيقِ (الْإِيمَانِ) أَوْ التَّكْذِيبِ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَجْعَلُ الْقَفْلَ الْحَقِيقِيَّ عَلَى الْقَلْبِ: «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». لِأَنَّهُ إِذَا أَقْفَلَ الْقَلْبُ، تَتَعَطَّلُ عَمَلِيَّةُ التَّدَبُّرِ النَّهَائِيَّةِ، حَتَّى لَوْ كَانَ الصَّدْرُ مُنْشَرِحًا وَالْفَوَادُ مُتَّفَاعِلَةً.»

«إِذَنْ، لَدَيْنَا مَسَارٌّ وَاضِحٌ لِلْوَعْيِ، قَالَ الْإِمَامُ مُلَخَّصًا، «صَدْرٌ يَسْتَقْبِلُ أَوْ يَرْفُضُ. فَوَادٌ يَتَّفَاعَلُ وَيَشْعُرُ. قَلْبٌ يَتَدَبَّرُ وَيُؤْمِنُ. هَذِهِ هِيَ مَرَكَزُ التَّعَقُّلِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي تَكَامُلٍ عَجِيبٍ.»

«وَلِنَقُومَ بِتَمْرِينِنَا التَّطْبِيقِيِّ لِنَرَى هَذِهِ الْمَنْظُومَةَ وَهِيَ تَعْمَلُ لِتُحَقِّقَ أَعْلَى مَقَامَاتِهَا، مَقَامَ "الْطَّمَانِينَةِ". تَأَمَّلُوا مَعِيَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». كَيْفَ نَحْلُلُ هَذِهِ الرُّحْلَةَ نَحْوَ الطَّمَانِينَةِ بِاسْتِخْدَامِ خَرِيطَتِنَا؟»

أَخَذْتُ لَيْلَى الْمُبَادَرَةَ:

«أَعْتَقِدُ أَنَّ "ذِكْرَ اللَّهِ" هُوَ التَّبَيَّنُ الْأَتْيَ مِنَ الْخَارِجِ. وَلَكِي يَدْخُلُ، يَجِبُ أَوَّلًا أَنْ يَجِدَ صَدْرًا مُنْشَرِحًا لِقَبُولِهِ، غَيْرَ ضَيِّقٍ أَوْ حَرَجٍ.»

أَكْمَلَ سَلَمَانُ:

«وَعِنْدَمَا يَدْخُلُ الذِّكْرُ إِلَى هَذَا الصَّدْرِ الْمُنْشَرِحِ، يَسْتَقْبِلُهُ الْفَوَادُ. فَيُحَوِّلُهُ مِنْ مُجَرَّدِ كَلِمَاتٍ إِلَى مَشَاعِرَ حَيَّةٍ: شُعُورٍ بِالْأَمْنِ وَالرَّجَاءِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ.»

وَحَتَمَتْ زَيْنَبُ:

«ثُمَّ تَرْفَعُ هَذِهِ الْمَشَاعِرُ الْإِيجَابِيَّةُ إِلَى الْقَلْبِ، فَيَقُومُ بِعَمَلِيَّةٍ "تَدْبِيرٍ" عَمِيقَةٍ، فَيَتَحَقَّقُ مِنَ الصَّلَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ وَبَيْنَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ الْكُبْرَى، فَيُصَدِّرُ حُكْمَهُ النِّهَائِيَّ، وَهُوَ تِلْكَ الْحَالَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ الْعَمِيقَةُ الَّتِي تُسَمَّى "الْطَّمَأْنِينَةُ".»

تَهَلَّلَ وَجْهُ الْإِمَامِ وَقَالَ:

«أَحْسَنْتُمْ جَمِيعًا! لَقَدْ شَرَحْتُمْ الرِّحْلَةَ بِدِقَّةٍ مُتْنَاهِيَّةٍ. هَكَذَا نَرَى أَنَّ الطَّمَأْنِينَةَ لَيْسَتْ شُعُورًا عَارِضًا، بَلْ هِيَ نِتَاجُ عَمَلٍ مُتَكَامِلٍ لِمَرَكَزِ الْوَعْيِ الثَّلَاثَةِ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ:

«مَرَكَزُ التَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ هِيَ: الصَّدْرُ (مَجَالُ الْقَبُولِ وَالرَّفْضِ)، وَالْفَوَادُ (مَرْكَزُ الْمَشَاعِرِ وَالْوُجْدَانِ)، وَالْقَلْبُ (مَرْكَزُ الْإِيمَانِ وَالتَّدْبِيرِ). وَهِيَ لَيْسَتْ أَعْضَاءً مُنْفَصِلَةً، بَلْ هِيَ مَرَكَزُ وَظِيفِيَّةٌ مُتَكَامِلَةٌ، تَصْنَعُ بِتَنَاقُصِهَا وَغِيَا حَيًّا وَمِيزَانًا مُسْتَقِيمًا.»

بَعْدَ أَنْ أَنْهَى الْإِمَامُ كَلَامَهُ، سَادَ صَمْتُ مِنَ النَّوعِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ حُلِّ لُغْزٍ كَبِيرٍ. كَانَتْ الصُّورَةُ الْأَنْ شِبْهَ كَامِلَةٍ.

كَانَ خَالِدٌ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ أَخِيرًا، وَكَانَ صَوْتُهُ يَحْمِلُ نَبْرَةً مَنْ يُجْرِي
جَزْدًا لِمَا تَعَلَّمَهُ؛

«شَيْخَنَا، لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَيْنَا خَرِيطَةٌ كَامِلَةٌ لِلْآلَةِ. نَعْرِفُ مُكَوَّنَاتِهَا،
وَوَظَائِفَهَا، وَمَقَامَاتِهَا، وَمَقَاصِدَهَا، وَمَنَاهِجَهَا، وَمَرَائِزَ قِيَادَتِهَا. لَقَدْ بَنَيْنَا
الْآلَةَ بِالتَّفْصِيلِ. وَسُؤَالِي الْأَخِيرُ فِي هَذَا الْبَابِ هُوَ سُؤَالٌ بَسِيطٌ وَمُبَاشِرٌ:
مَاذَا تُنتِجُ هَذِهِ الْآلَةُ؟ عِنْدَمَا تَعْمَلُ كُلُّ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ بِالنَّسْجَامِ، مَا هِيَ
"الثَّمَرَاتُ" الَّتِي يَقْطِفُهَا الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ؟ مَاذَا يَجْنِي مِنْ كُلِّ هَذَا
الْجُهِدِ؟ مَاذَا سَيَبْدُو عَلَيْهِ وَعَلَى سُلُوكِهِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ إِبْنِ سَامَةَ عَرِيضَةً.

«لِكُلِّ شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثِمَارٌ طَيِّبٌ يَا خَالِدُ. وَقَدْ آتَى الْأَوَانُ لِنَتَحَدَّثَ عَنْ
هَذَا الْقِطَافِ الْمُبَارَكِ. وَهَذِهِ... هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ.»

الْمَحْوَرُ الثَّلَاثُ: الصَّرَاعُ وَالْمَخَاطِرُ

المُقَدِّمَةُ

بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ الْإِنْسَانُ بُتْيَانَ التَّعَقُّلِ فِي نَفْسِهِ، يَجِدُ أَنَّ الطَّرِيقَ لَيْسَ مَفْرُوشًا بِالزُّهُورِ، بَلْ مُثْقَلًا بِالْعَوَائِقِ وَالْمَخَاطِرِ. فَهَذَا يَبْدَأُ الصَّرَاعَ مَعَ قُطَاعِ الطَّرِيقِ: الشُّبُهَاتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْمَفَاهِيمِ الْمُرَيِّفَةِ الَّتِي تَسْعَى لِتَشْوِيهِه أُلُوعْيَ وَتَحْرِيفِ الْمِيزَانِ.

فِي هَذَا الْمَحْوَرِ، يَتَعَرَّفُ الْقَارِئُ إِلَى ثَمَارِ التَّعَقُّلِ الصَّحِيحِ كـ «الْقِطَافِ الْمُبَارَكِ»، وَيَتَعَايَشُ مَعَ مَرَاتِبِ أُلُوعْيِ الَّتِي تَكْشِفُ فَضْلَ الْمُجَاهَدَةِ فِي الطَّرِيقِ. وَيَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَثْبُتُ أَمَامَ قَوَائِنِ الْخَلْقِ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ، ثُمَّ يُعِدُّ عُذَّةَ السَّالِكِ وَيَصْقُلُ مِرَاةَ قَلْبِهِ لِيَصِيرَ أَصْفَى وَأَجْلَى.

وَلَا يَقِفُ التَّعَقُّلُ فِي هَذَا الْمَحْوَرِ عِنْدَ حَدِّ الْفَرْدِ، بَلْ يَتَجَاوَزُهُ إِلَى الْبُنْيَانِ الْمَرْصُوعِ، حَيْثُ يُصْبِحُ التَّعَقُّلُ فِعْلًا جَمَاعِيًّا يَرْتَبِطُ بِأَمَانَةِ الْإِخْتِيَارِ وَمَسْئُولِيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ.

هَذَا يَتَجَسَّدُ الصَّرَاعُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَبَيْنَ الْقِيمِ الثَّابِتَةِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُتَقَلِّبَةِ، فَيَكُونُ التَّعَقُّلُ هُوَ السَّلَاحُ وَالْمِيزَانُ فِي الْمُوَاجَهَةِ.

الْفَصْلُ 16: الْقِطَافُ الْمُبَارَكُ

جَاءَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ وَكَانَتْهَا تَحْمِلُ مَعَهَا نَسِيمًا مُخْتَلِفًا. كَانَ الْجَوُّ فِي الْمَجْلِسِ أَقْلَ جِدَّةٍ فِكْرِيَّةً وَأَكْثَرَ سَكِينَةً وَتَشَوُّقًا. الشُّعُورُ الْعَامُّ بَيْنَ الطُّلَابِ كَانَ يُشْبِهُ شُعُورَ الْبَنَاءِ الَّذِي أَنْهَى تَشْيِيدَ صَرْحٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ يَقِفُ الْآنَ لِيَتَأَمَّلَهُ وَيَسْأَلَ: مَا الْفَائِدَةُ الْعَمَلِيَّةُ مِنْ كُلِّ هَذَا الْبِنَاءِ؟ كَانَ سُؤَالُ خَالِدٍ الْأَخِيرُ، السُّؤَالُ الْبَسِيطُ وَالْعَمِيقُ عَنِ "الثَّمَرَاتِ"، لَا يَزَالُ يُمَثِّلُ الشَّغْلَ الشَّاعِلَ لِأَذْهَانِهِمْ.

إِبْتَدَأَ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ بِنَظَرَةٍ دَافِئَةٍ إِلَى خَالِدٍ، وَقَالَ:

«لَقَدْ أَوْصَلْنَا سُؤَالَكَ يَا خَالِدُ إِلَى غَايَةِ الْغَايَاتِ. إِلَى سُؤَالِ الْقِطَافِ. فَبَعْدَ كُلِّ هَذَا الْجُهْدِ فِي حَرْثِ الْأَرْضِ وَبَذْرِ الْبُذُورِ وَسَقْيِ الشَّجَرَةِ، يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ بِفِطْرَتِهِ: مَا هِيَ الثَّمَارُ الَّتِي سَأَجْنِيهَا؟ إِنَّ "الْتَّعَقُّلَ" فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ لَيْسَ شَجَرَةً لِلزَّيْتِ، يُسْتَمْتَعُ بِجَمَالِ تَرْكِيبِهَا الْمُنْطَقِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ أَصُولُهَا رَاسِخَةٌ لِتُؤْتِيَ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ. وَالْقُرْآنُ يُبَشِّرُنَا بِأَنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الدَّرَجَ بِصِدْقٍ، فَإِنَّهُ سَيَجْنِي حَصَادًا مُبَارَكًا مِنْ ثَلَاثِ ثَمَرَاتٍ رَئِيسِيَّةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تُعْذِي جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِ وُجُودِهِ. هَذِهِ الثَّمَارُ هِيَ: الْحِكْمَةُ وَالْبَصِيرَةُ وَالْطَّمَأْنِينَةُ.»

أَخَذَ مُعَاذٌ الْإِذْنَ بِالْكَلامِ، وَقَالَ بِنَبَرَةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ:

«شَبَّخْنَا، هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ تُمَثِّلُ بِالْفِعْلِ أَهْدَافًا عَلَيَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ حَتَّى فِي الْأُظُرِ الْعِلْمَانِيَّةِ. "الْحِكْمَةُ" يُمَكِّنُ تَعْرِيفَهَا فِي عِلْمِ النَّفْسِ بِأَنَّهَا "الذِّكَاءُ الْمُتَبَلُّورُ" (Crystallized Intelligence) الْمُفْتَرِنُ بِالْخَيْرَةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى إِصْدَارِ أَحْكَامٍ جَيِّدَةٍ. وَ"الْبَصِيرَةُ" (Insight) هِيَ تِلْكَ اللَّحْظَةُ الَّتِي يَتَحَقَّقُ فِيهَا الْفَهْمُ الْمَفَاجِئُ، وَهِيَ مَوْضُوعُ دِرَاسَةٍ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الْمَعْرِفِيِّ. وَ"الطَّمَانِينَةُ" هِيَ الْهَدَفُ النَّهَائِيُّ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعِلَاجَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِتَحْقِيقِ السَّلَامِ الدَّاخِلِيِّ. فَهَلْ يُقَدِّمُ الْمَنْظُورُ الْقُرْآنِيُّ لِهَذِهِ الثَّمَارِ تَعْرِيفًا أَوْ مَصْدَرًا مُخْتَلِفًا؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«سُؤَالُكَ يُثَبِّتُ أَنَّ هَذِهِ الثَّمَارَ هِيَ فِطْرَةُ إِنْسَانِيَّةٍ، وَلِذَلِكَ تَسْعَى إِلَيْهَا كُلُّ الْمَنْظُومَاتِ. وَلَكِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ يَمْنَحُهَا مَصْدَرًا أَعْلَى، وَمَعْنَى أَعَمِّقُ، وَتَجَلِّيَا أَوْسَعٍ. لِنَأْخُذْهَا وَاجِدَةً تَلَوَ الْأُخْرَى.»

«لِنَبْدَأْ بِأَوَّلٍ وَأَعْظَمِ هَذِهِ الثَّمَارِ الْعَمَلِيَّةِ: الْحِكْمَةُ.»

«قَدْ يَتَصَوَّرُ الْبَعْضُ أَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ كَثْرَةُ الْمَعْلُومَاتِ، وَهَذَا وَهْمٌ. فَقَدْ تَجِدُ رَجُلًا يَحْفَظُ مَكْتَبَةً بِأَكْمَلِهَا، وَلَكِنَّهُ يَتَصَرَّفُ بِحِمَاقَةٍ فِي أَبْسَطِ مَوَاقِفِ الْحَيَاةِ.

الْحِكْمَةُ، كَمَا يُبَشِّرُ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ، هِيَ ثَمَرَةُ "الْتَعَقُّلِ" فِي مَجَالِ "التَّطْبِيقِ" وَ"الْعَمَلِ". إِنَّهَا الْقُدْرَةُ الْفَدَّةُ عَلَى وَضْعِ الشَّيْءِ الْمُنَاسِبِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ، فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، بِالطَّرِيقَةِ الْمُنَاسِبَةِ.

«إِنَّهَا الْمِيزَانُ وَقَدْ تَجَسَّدَ فِعْلًا: مِيزَانُ الْأَشْيَاءِ، وَمِيزَانُ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ، وَمِيزَانُ الطَّرِيقَةِ وَالْمَنْهَجِ. فَمَنْ حَازَ هَذَا الْمِيزَانَ فَقَدْ أُوتِيَ

الْحِكْمَةَ، وَمَنْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

وَلِعَظَمِ هَذِهِ الثَّمَرَةِ وَجَلَالِهَا، وَصَفَهَا الْقُرْآنُ بِأَنَّهَا "خَيْرٌ كَثِيرٌ"، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

تَدَبَّرُوا مَعِيَ الْفِعْلَ ﴿يُؤْتِي﴾: إِنَّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ الْحِكْمَةَ لَيْسَتْ مَجَرَّدَ حَصَادٍ لِجَهْدٍ ذِهْنِيٍّ بَحَثٍ، وَلَا نَتِيجَةَ حِفْظٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ مُجَرَّدَةٍ. بَلْ هِيَ "هَبَةٌ" وَ"عَظَاءٌ" رَبَّانِيٌّ، يَتَفَضَّلُ اللَّهُ بِهِ عَلَى مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ التَّعَقُّلِ الْمُتَكَامِلِ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ، فَصَارَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَعَقْلُهُ وَعَمَلُهُ فِي مِيزَانٍ وَاحِدٍ.

رَفَعَتْ زَيْنَبُ الْفَقِيهَةَ يَدَهَا مُسْتَأْذِنَةً فِي الْكَلَامِ، ثُمَّ قَالَتْ بِتَرَدُّدٍ مَمْرُوجٍ بِجِدَّةٍ تَأَمَّلِ:

«هَذَا يُدَكِّرُنِي يَا شَيْخَتَا بِمَقُولَةِ الْفُقَهَاءِ: "لَيْسَ الْفَقِيهَ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، فَذَاكَ يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ. وَلَكِنَّ الْفَقِيهَ هُوَ مَنْ يَعْرِفُ خَيْرَ الْخَيْرَيْنِ وَشَرَّ الشَّرَّيْنِ". هَذِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْمَوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ فِي الْمَوَاقِفِ الْمُعَقَّدَةِ، أَهِيَ هِيَ الْحِكْمَةُ؟»

ابْتَسَمَ الْإِمَامُ وَهُوَ يُحَرِّكُ رَأْسَهُ بِإِقْرَارٍ، ثُمَّ أَجَابَ:

«نَعَمْ يَا زَيْنَبُ، ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَعَالِمِهَا. فَالْحِكْمَةُ لَيْسَتْ نَظَرًا فِي الْمَجَرَّدَاتِ، وَلَا تَرْتِيبًا لِلْمَعْلُومَاتِ فَقَطْ، بَلْ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْمَوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ فِي مَوَازِينِ الْحَيَاةِ حِينَ تَتَعَارَضُ الْخِيَارَاتُ وَتَتَشَابَكُ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ. وَهَذَا يَتَجَلَّى قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فَلَيْسَ الْمِيزَانُ أَنْ تَعْرِفَ الْحَسَنَ مِنَ السَّيِّئِ فَقَطْ، بَلْ أَنْ تَعْرِفَ
"أَحْسَنَ الْحَسَنَيْنِ" وَ"أَرْجَحَ الصَّوَابَيْنِ"، وَأَنْ تَتَجَنَّبَ "أَسْوَأَ السُّوْءَيْنِ"
و"أَثْقَلَ الشَّرَّيْنِ". هَذَا هُوَ مَعْنَى الْحِكْمَةِ عِنْدَمَا تَتَجَسَّدُ فِي الْعَمَلِ
وَالْتَّطْبِيقِ.»

ثُمَّ اكْمَلِ الْإِمَامُ:

«هِيَ قَلْبُ الْحِكْمَةِ يَا زَيْنَبُ. فَالْعَالِمُ قَدْ يُعْطِيكَ الْحُكْمَ الْقَانُونِيَّ
الْمُجَرَّدَ، أَمَّا الْحَكِيمُ فَيُعْطِيكَ الْحُكْمَ الَّذِي يُصْلِحُ الْوَاقِعَ. أَلْعِلْمُ بِلَا حِكْمَةٍ
قَدْ يَكُونُ قَاسِيًا وَمُذَمَّرًا، أَمَّا الْحِكْمَةُ فَهِيَ أَلْعِلْمُ الَّذِي تَلْفَهُ الرَّحْمَةُ وَتُوجِّهُهُ
الْبَصِيرَةُ.»

«وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى الثَّمَرَةِ الثَّانِيَةِ، الَّتِي هِيَ شَرْطُ لِلْحِكْمَةِ وَنَتِيجَةُ
لَهَا فِي آنٍ وَاحِدٍ: الْبَصِيرَةُ.»

«إِذَا كَانَتْ الْحِكْمَةُ هِيَ "صَوَابُ الْفِعْلِ"، فَإِنَّ الْبَصِيرَةَ هِيَ
"وُضُوحُ الرُّؤْيَا". إِنَّهَا ثَمَرَةُ التَّعْقُلِ فِي مَجَالِ الْإِدْرَاكِ. الْبَصِيرَةُ لَيْسَتْ
مُجَرَّدَ "بَصَرٍ"، فَالْبَصَرُ قَدْ يَرَى ظَوَاهِرَ الْأَشْيَاءِ، أَمَّا الْبَصِيرَةُ فَهِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ
اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، فَيُمَكِّنُ صَاحِبَهُ مِنَ النِّقَازِ إِلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ وَجَوَاهِرِهَا.
إِنَّهَا الْفَرْقَانُ الَّذِي يُمَيِّزُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالصَّوَابَ مِنَ الْخَطَا، حَتَّى وَإِنْ
أَخْتَلَطَتِ الصُّورُ وَتَشَابَهَتِ الظَّوَاهِرُ.»

«وَأَعْظَمُ تَجَلٍّ لِهَذِهِ الْبَصِيرَةِ هُوَ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ (ص) أَنْ يُعْلِنَهُ
لِلْعَالَمِ كَمَنْهَجٍ لِدَعْوَتِهِ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا
وَمَنِ اتَّبَعْنِي﴾. الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ لَيْسَتْ قَائِمَةً عَلَى حِمَاسَةٍ عَاطِفِيَّةٍ، وَلَا
عَلَى تَقْلِيدٍ أَعْمَى، وَلَا عَلَى جَدَلٍ عَقِيمٍ. إِنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى "بَصِيرَةٍ"، أَيْ عَلَى
وُضُوحٍ تَامٍ فِي الرُّؤْيَا، وَاطْمِئْنَانٍ رَاسِخٍ فِي الْقَلْبِ، وَحُجَّةٍ مُنِيرَةٍ فِي

«الْعَقْل.»

قَالَ أَرِسْطُو:

«إِذَنْ الْبَصِيرَةُ هِيَ أَقْرَبُ إِلَى "الْأَظْمِنَتَانِ الذَّائِيَّ". وَلَكِنْ، كَيْفَ نَضْمَنُ أَنَّ هَذِهِ الْبَصِيرَةَ الشَّخْصِيَّةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ وَهْمٍ أَوْ غُرُورٍ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«سُؤَالٌ مُمْتَارٌ. وَالْجَوَابُ هُوَ أَنَّ "الْبَصِيرَةَ" الْقُرْآنِيَّةَ لَيْسَتْ مُنَبِّئَةً الصَّلَاةَ عَنْ مَصْدَرِهَا. إِنَّهَا لَيْسَتْ حَدْسًا شَخْصِيًّا غَامِضًا، بَلْ هِيَ نُورٌ يَنْبَثِقُ مِنَ التَّفَاعُلِ الْعَمِيقِ مَعَ "الْبَصَائِرِ" الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ. تَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾. قَالَهُ يُرْسَلُ "الْبَصَائِرُ" - أَيِ الْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَةِ - فَمَنْ تَفَاعَلَ مَعَهَا بِكَيَانِهِ كُلِّهِ، وَلِدَتْ فِي قَلْبِهِ "بَصِيرَةٌ" خَاصَّةٌ بِهِ، فَيُبْصِرُ الطَّرِيقَ. فَالْبَصِيرَةُ لَيْسَتْ خُلُقًا مِنْ عَدَمٍ، بَلْ هِيَ أَنْعَكَاسُ النُّورِ الْإِلَهِيِّ عَلَى قَلْبٍ صَقِيلٍ.»

«فَإِذَا اجْتَمَعَ لِلْمَرَّةِ صَوَابُ الْفِعْلِ (الْحِكْمَةُ)، وَوُضُوحُ الرُّؤْيَا (الْبَصِيرَةُ)، فَإِنَّهُ يَجْنِي الثَّمَرَ الثَّلَاثَةَ، وَهِيَ الْحَالَةُ النَّفْسِيَّةُ وَالْقَلْبِيَّةُ الَّتِي تَتَوَجَّعُ كُلُّ الرَّحْلَةِ: الطَّمَأْنِينَةُ.»

«إِنَّ "الطَّمَأْنِينَةَ" هِيَ ثَمَرَةُ التَّعَقُّلِ فِي حَالِ النَّفْسِ. وَهِيَ تَخْتَلِفُ عَنِ السَّعَادَةِ الْمُؤَقَّتَةِ. فَالسَّعَادَةُ قَدْ تَتَعَلَّقُ بِظُرُوفٍ خَارِجِيَّةٍ مُوَاتِيَةٍ، أَمَّا الطَّمَأْنِينَةُ فَهِيَ حَالُهُ رُسُوحٍ وَاسْتِقْرَارٍ وَسَلَامٍ دَاخِلِيٍّ لَا تَزْعُغُهُ عَوَاصِفُ الْحَيَاةِ الْخَارِجِيَّةِ. إِنَّهَا الشُّعُورُ الْعَمِيقُ بِأَنَّكَ فِي الْمَكَانِ الصَّحِيحِ، وَعَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَمَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى.»

«وَالْقُرْآنُ يَخْصُرُ مَصْدَرَ هَذِهِ الظُّمَائِنَةِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي مَنْعِ وَاجِدٍ لَا ثَانِيَ لَهُ: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ». إِنَّهَا نَتِيجَةُ حَتْمِيَّةٍ لِلتَّعَقُّلِ الَّذِي يُوَصِّلُ صَاحِبَهُ إِلَى الْإِيمَانِ الْحَقِّ وَالصَّلَاةِ الدَّائِمَةِ بِاللَّهِ. فَعِنْدَمَا يَمْتَلِكُ الْمَرْءُ "حِكْمَةً" تُوَجَّهُ أَفْعَالُهُ، وَ"بَصِيرَةً" تُبَيِّرُ أَفْكَارَهُ، فَإِنَّ قَلْبَهُ يَصِلُ بِسُكُلٍ طَبِيعِيٍّ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالرُّسُوحِ.»

«وَلَكِنْ،» قَالَ الْإِمَامُ مُحَذَّرًا، «لَيْسَ كُلُّ تَفَكُّيرٍ يُؤَدِّي إِلَى هَذِهِ الثَّمَارِ. فَهَنَّاكَ "تَعَقُّلٌ مَحْجُوبٌ"، تَعَقُّلٌ مَقْطُوعُ الصَّلَاةِ بِالْهُدَى، لَا يُثْمِرُ إِلَّا ثَمَارًا خَبِيثَةً. بَدَلًا مِنَ الْحِكْمَةِ، يُثْمِرُ "عُرُورًا" وَ"عُجْبًا" بِالذَّاتِ. وَبَدَلًا مِنَ الْبَصِيرَةِ، يُثْمِرُ "جَدَلًا عَقِيمًا" وَ"سَفْسَظَةً". وَبَدَلًا مِنَ الظُّمَائِنَةِ، يُثْمِرُ "قَسَاوَةً" فِي الْقَلْبِ وَ"فَلَقًا" وَجُودِيًّا دَائِمًا.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ:

«ثَمَرَاتُ التَّعَقُّلِ الْقُرْآنِيِّ ثَلَاثَةٌ مُتَلَاَزِمَةٌ: الْحِكْمَةُ (فِي الْفِعْلِ)، وَالْبَصِيرَةُ (فِي الرُّؤْيَا)، وَالظُّمَائِنَةُ (فِي الْحَالِ). وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُ التَّعَقُّلَ مُثْمِرًا وَمُبَارَكًا، يُقِيمُ حَيَاةَ أَصَاحِبِهِ وَحَيَاةَ مَنْ حَوْلَهُ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالْعَدْلِ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَ الطُّلَّابُ يَتَذَوَّقُونَ خِلَاوَةَ هَذِهِ الثَّمَارِ فِي أَذْهَانِهِمْ. كَانَتْ صُورَةً نِهَائِيَّةً مُشْرِقَةً لِعَايَةِ الرُّحْلَةِ.

وَلَكِنْ، وَكَانَ لِكُلِّ نُورٍ ظِلٌّ، كَانَ خَالِدٌ، يَوَاقِعِيَّتُهُ الدَّائِمَةُ، هُوَ مَنْ طَرَحَ السُّؤَالَ الَّذِي لَا مَفَرَ مِنْهُ. قَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ هَمَّ الْوَاقِعِ:

«شَيْخَنَا، هَذِهِ الصُّورَةُ لِلْإِنْسَانِ الْحَكِيمِ الْبَصِيرِ الْمُطْمَئِنِّ هِيَ غَايَةُ

مَا يَتَمَنَّاهُ الْمَرْءُ. وَلَكِنْ، لِمَاذَا هِيَ نَادِرَةٌ جِدًّا؟ لِمَاذَا نَرَى حَوْلَنَا، بَلْ وَفِي أَنْفُسِنَا، كَثِيرًا مِنَ الْحَمَاقَةِ وَالتَّشَوُّشِ وَالْقَلَقِ؟ إِذَا كَانَتِ الْأَدَوَاتُ مَوْجُودَةً، وَالْخَرِيطَةُ وَاضِحَةً، وَالثَّمَارُ مَرْجُوءَةً، فَمَا هِيَ "الْعَقَبَاتُ" الَّتِي تَقِفُ فِي طَرِيقِنَا؟ مَا هِيَ "الْمَعَاوِقُ" الْكُبْرَى الَّتِي تَمْنَعُ "تَعَقُّلَنَا" مِنْ أَنْ يُثْمَرَ هَذِهِ الثَّمَارُ الطَّيِّبَةُ؟»

نَظَرَ الْإِمَامُ إِلَى خَالِدٍ بِعُمُقٍ.

«لَإِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْقِمَّةِ مَخْفُوفٌ بِالْمَخَاطِرِ وَقِطَاعُ الطَّرِيقِ يَا خَالِدُ. وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الْعَقَبَاتِ هِيَ نِصْفُ الْمَعْرِكَةِ. وَهَذِهِ... هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ.»

الْفَصْلُ 17: قُطَاعُ الطَّرِيقِ

كَانَتْ الْأَجَوَاءُ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ الْجَلْسَةِ تَحْمِلُ شَيْئًا مِنَ الْوَجَلِ وَالتَّأَمُّلِ الصَّامِتِ. الصُّورَةُ الْمَشْرِقَةُ لِلإِنْسَانِ الْحَكِيمِ الْبَصِيرِ الْمُظْمَنِّ، الَّتِي رُسِمَتْ فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ، كَانَتْ لَا تَزَالُ تَتَلَأَلُ فِي أَذْهَانِهِمْ، لَكِنَّهَا كَانَتْ تُثِيرُ فِي نَفُوسِهِمْ سُؤَالَ مُقْلِقًا، ذَلِكَ السُّؤَالَ الَّذِي نَطَقَ بِهِ خَالِدٌ بِبَسَاطَتِهِ الْجَارِحَةِ: "لِمَآذَا هِيَ نَادِرَةٌ جِدًّا؟". كَانَ الْجَمِيعُ يَنْتَظِرُ مِنَ الْإِمَامِ أَنْ يُشَرِّحَ لَهُمْ هَذَا الْوَاقِعَ الْمُؤَلِمَ، وَاقِعَ الْفَجْوةِ الْهَائِلَةِ بَيْنَ الْمِثَالِ الْمُنْشُودِ وَالْحَالِ الْمَشْهُودِ.

إِبْتَدَأَ الْإِمَامُ الْحَدِيثَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ نَبْرَةً مِنْ جِدِّيَّةٍ لَمْ تُعْهَدْ فِيهِ مِنْ قَبْلُ:

«لَقَدْ أَدْخَلْنَا سُؤَالَكَ يَا خَالِدُ إِلَى قَلْبِ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ. فَالْوُصُولُ إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْبَصِيرَةِ لَيْسَ رِحْلَةً نَزْهَةً فِي حَدِيقَةِ غَنَاءٍ، بَلْ هُوَ تَسَلُّقُ شَاقٍّ لِجَبَلٍ وَغَرٍّ، وَالطَّرِيقُ إِلَى قِمَّتِهِ مَحْفُوفٌ بِالْمَخَاطِرِ وَمَزْرُوعٌ بِالْفِخَاخِ. وَعَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، يَفْبَغُ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَخْطَرِ قُطَاعِ الطَّرِيقِ، لَا يَسْعَوْنَ لِسِرْقَةِ مَالِكَ، بَلْ لِسِرْقَةِ وُضُوحِ رُؤْيَيْكَ وَاسْتِقَامَةِ مِيزَانِكَ. إِنَّ مَعْرِفَةَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَفَهْمَ أَسَالِيِبِهِمْ فِي الْإِغْوَاءِ وَالتَّضْلِيلِ، هُوَ شَرْطٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِكُلِّ سَالِكٍ يَرْجُو النِّجَاةَ وَالْوُصُولَ. هَؤُلَاءِ الْمَعَاوِقُ الْكُبْرَى لِلتَّعَقُّلِ هُمْ: الْهَوَى وَالْعَفْلَةُ وَالْإِسْتِكْبَارُ.»

تَدَخَّلَ مُعَاذٌ قَائِلًا:

«شَبَّخْنَا، هَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتُ الثَّلَاثَةُ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا تَصِفُ أَصْطِرَابَاتِ نَفْسِيَّةً وَسُلُوكِيَّةً مَعْرُوفَةً. "الْهَوَى" قَدْ يُقَابِلُ ضَعْفَ الْقُدْرَةِ عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ أَوْ الْإِنْدِفَاعِيَّةِ. وَ"الْغَفْلَةُ" تُشَبِّهُ قِلَّةَ الْبِقَظَةِ الدَّهْنِيَّةِ (Mindfulness). وَ"الْأُسْتِكْبَارُ" هُوَ النَّزْجِسِيَّةُ أَوْ الْعُرُورُ. أَلَا تَكْفِي هَذِهِ الْأَطْرُ النَّفْسِيَّةُ لِفَهْمِهَا وَعِلَاجِهَا؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«مَرَّةً أُخْرَى، تَصِفُ الظَّوَاهِرَ بِدِقَّةٍ يَا مُعَادُ، وَلَكِنَّكَ تَقْفُ عِنْدَ السَّطْحِ. إِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ لَا يَرَى هَذِهِ الْأَمْرَاضَ مُجَرَّدَ أَصْطِرَابَاتٍ فِي الشَّخْصِيَّةِ، بَلْ يَرَاهَا "حُجَبًا" رُوحِيَّةً وَ"أَفْعَالًا" إِيْمَانِيَّةً، وَيُشَخِّصُ جُذُورَهَا بِطَرِيقَةٍ أَكْثَرَ رُعْبًا.»

«لِنَبْدَأُ بِأَوَّلِهِمْ وَأَكْثَرِهِمْ خِدَاعًا، لِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ دَاخِلِنَا وَيَنْزِيًّا بِلِبَاسِ الرُّغْبَةِ الطَّبِيعِيَّةِ: الْهَوَى.»

«إِنَّ الْهَوَى فِي أَصْلِهِ هُوَ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَى مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهِي. وَلَيْسَ كُلُّ هَوَى مَذْمُومًا. وَلَكِنَّ الْخَطَرَ يَقَعُ حِينَ يَتَحَوَّلُ هَذَا الْمَيْلُ مِنْ مُجَرَّدِ رَغْبَةٍ تُضَبِّطُ بِمِيزَانِ الْحَقِّ، إِلَى "قَائِدٍ" وَ"آمِرٍ" يُصْبِحُ هُوَ نَفْسُهُ الْمِيزَانُ. هُنَا تَصِفُهُ آيَةُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ بِوَصْفٍ يَخْلَعُ الْقُلُوبَ، فَهِيَ لَا تَقُولُ "مَنْ أَتَبَعَ هَوَاهُ"، بَلْ تَقُولُ: «أَفْرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ.»»

«تَحِيلُوا الْفِطَاعَةَ! أَنْ يَتَّخِذَ الْمَرْءُ هَوَاهُ إِلَهًا! وَمَاذَا يَفْعَلُ إِلَّا هُوَ؟ إِنَّهُ يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَيَجِلُّ وَيُحَرِّمُ. فَالَّذِي يَتَّخِذُ هَوَاهُ إِلَهًا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ رَغْبَتَهُ الشَّخْصِيَّةَ هِيَ الْمَشَرَّعَ الْأَعْلَى لِحَيَاتِهِ. فَإِذَا أَشْتَهَتْ نَفْسُهُ شَيْئًا، قَالَ "هَذَا حَسَنٌ"، وَإِذَا نَفَرَتْ مِنْ شَيْءٍ، قَالَ "هَذَا قَبِيحٌ"، حَتَّى لَوْ خَالَفَ

الْحَقُّ الْوَاضِحُ. وَالْأَخْطَرُ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾. أَيَّ أَنَّهُ لَيْسَ جَاهِلًا، بَلْ هُوَ يَمْتَلِكُ الْمَعْرِفَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى التَّفْكِيرِ، وَلِكِنَّهُ يَسْتَخْدِمُ هَذَا الْعِلْمَ وَهَذَا الْتَعْقُلَ لِإِجَادِ الْمُبَرَّرَاتِ الْمَنْطِقِيَّةِ الْمُعَقَّدَةِ لِاتِّبَاعِ شَهْوَتِهِ. إِنَّهُ فِعْلٌ "تَعْقُلٌ مُحْتَظَفٍ".

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«هَذَا يَذَكِّرُنِي بِقَاعِدَةِ أُصُولِيَّةٍ عَظِيمَةٍ: "الْهَوَى يُعْمِي وَيَصُمُّ". أَيَّ أَنَّهُ يُعْطِّلُ الْبَصَرَ وَالسَّمْعَ اللَّذَيْنِ تَحَدَّثْنَا عَنْهُمَا كَبَوَابَاتٍ لِلْمَعْرِفَةِ، وَكَأَنَّ سَيْطَرَةَ الْهَوَى تُغْلِقُ هَذِهِ الْبَوَابَاتِ مِنَ الدَّخْلِ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَمَامًا، إِنَّ الْهَوَى يُفْسِدُ الْمِيزَانَ مِنْ أَسَاسِهِ. فَالْمُتَعَقِّلُ الْحَقُّ يَضَعُ الْمُعْطَلَاتِ فِي الْمِيزَانِ لِيَصِلَ إِلَى نَتِيجَةٍ. أَمَّا الَّذِي يَتَّبِعُ هَوَاهُ، فَهُوَ يَضَعُ النَّتِيجَةَ الَّتِي يُرِيدُهَا مُسَبِّقًا فِي كِفَّةٍ، ثُمَّ يَقْضِي عُمُرَهُ وَهُوَ يَبْحَثُ عَنْ أَثْقَالٍ مُزَيَّفَةٍ مِنَ الْحُجَجِ لِيَضَعَهَا فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى لِيُوْهِمَ نَفْسَهُ وَالنَّاسَ بِأَنَّ مِيزَانَهُ مُعْتَدِلٌ.»

«أَمَّا الْمُعَوَّقُ الثَّانِي،» وَاصِلَ الْإِمَامُ، «فَهُوَ أَكْثَرُ هُدُوءًا وَتَسْلَلًا. إِذَا كَانَ الْهَوَى هُوَ الْفَسَادَ النَّشِيطَ لِلْتَعْقُلِ، فَإِنَّ هَذَا الْمُعَوَّقَ هُوَ الْمَوْتُ الْبَطِيءُ لَهُ. إِنَّهُ الْغَفْلَةُ.»

«الْغَفْلَةُ» هِيَ حَالَةُ النَّسْيَانِ الْعَمِيقِ لِلْحَقَائِقِ الْكُبْرَى. هِيَ عَدْوَةٌ "الذَّاكِرَةِ" الَّتِي هِيَ وَعَاءُ الْتَعْقُلِ. إِنَّهَا تُطْفِئُ نُورَ الْوَعْيِ، وَتَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَغْرُقُ فِي تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ الصَّغِيرَةِ وَيَنْسَى الْغَايَاتِ الْكُبْرَى لَوْجُودِهِ. تَأْمَلُوا بِدَايَةِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُخِيفَةِ: ﴿أَفَتَرَبَّ لِلنَّاسِ جِسَابُهُمْ وَهُمْ

فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ). إِنَّهَا تَصِفُ مَأْسَاةَ وُجُودِيَّةٍ: الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى (الْجِسَابُ) تَقْتَرِبُ، وَالْإِنْسَانُ غَارِقٌ فِي غَفْلَتِهِ، لَا يَشْعُرُ بِقُرْبِهَا.»

تَحَدَّثَتْ لَيْلَى بِصَوْتٍ يَحْمِلُ أَثَرَ التَّجَرُّبَةِ الشَّخْصِيَّةِ:

«أَعْرِفُ هَذِهِ الْحَالَةَ جَيِّدًا. إِنَّهَا أَخْطَرُ أَعْدَائِي. أَحْيَانًا أَنْعِمُسُ فِي الْعَمَلِ، وَمُتَابَعَةُ الْأَخْبَارِ، وَسَبَكَاتُ التَّوَاصُلِ، فَتَمُرُّ أَيَّامٌ وَأَنَا لَمْ أَخُلْ بِنَفْسِي لَحْظَةً، وَلَمْ أَتَفَكَّرْ فِي آيَةٍ. أَكُونُ كَالَّذِي يَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ. إِنَّهَا غَفْلَةٌ حَقًّا.»

قَالَ الْإِمَامُ:

«أَحْسَنْتِ التَّشْخِصَ يَا لَيْلَى. إِنَّهَا "الْحَرَكَةُ بِلَا وَجْهَةٍ". وَالْغَفْلَةُ تُعْطِلُ التَّعَقُّلَ لِأَنَّهَا تُعْطِلُ "الِاعْتِبَارَ". فَالشَّخْصُ الْغَافِلُ قَدْ يَمُرُّ بِنَفْسِ التَّجَرُّبَةِ الْفَاشِلَةِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْسَى الدَّرْسَ فَيُكَرِّرُ نَفْسَ الْخَطَا، لِأَنَّ ذَاكِرَتَهُ الْعَبْرِيَّةَ مُعْطَلَةٌ. إِنَّهُ يَعِيشُ بِلَا مِيزَانٍ، لِأَنَّهُ نَسِيَ الْمَبَادِئَ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي يَزِنُ بِهَا أُمُورَهُ.»

«أَمَّا الْمَعْوَقُ الثَّلَاثُ، فَهُوَ الْقُفْلُ الْأَعْظَمُ، وَالْجَبَابُ الْأَكْبَرُ. إِذَا كَانَ الْهَوَى يُفْسِدُ الْمِيزَانَ، وَالْغَفْلَةُ تُنْسِينَا الْمِيزَانَ، فَإِنَّ هَذَا الْمَعْوَقَ يَجْعَلُنَا نَرَى الْمِيزَانَ الْحَقَّ بِأَعْيُنِنَا ثُمَّ نَحْطُمُهُ بِأَيْدِينَا. إِنَّهُ الْإِسْتِكْبَارُ.»

«الْإِسْتِكْبَارُ" لَيْسَ مُجَرَّدَ "كِبَرٍ" دَاخِلِيٍّ، بَلْ هُوَ "فِعْلُ الرَّفُضِ" الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْكِبَرِ. إِنَّهُ رَفُضُ الْحَقِّ، لَا لِأَنَّهُ غَيْرُ وَاضِحٍ، بَلْ بِالْعَكْسِ، لِأَنَّهُ وَاضِحٌ جَدًّا وَلَكِنَّهُ لَا يُوَافِقُ مَكَانَةَ الْمَرْءِ أَوْ مَصْلَحَتَهُ أَوْ غُرُورَهُ. إِنَّهَا حَالَةُ الشَّخْصِ الَّذِي يَقُولُ: "أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنِّي لَنْ أَخْضَعَ لَهُ". وَعَقُوبَةُ هَذَا الْمَوْقِفِ هِيَ الْجَرْمَانُ الْكَامِلُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفَهْمِ، كَمَا

تَقُولُ آيَةُ الْأَعْرَافِ: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. فَعُلَّ "الصَّرْفُ" هُنَا مُخِيفٌ، كَأَنَّ اللَّهَ يُدِيرُ وَجْهَ الْحَقِيقَةِ عَنْهُمْ فَلَا يَعُودُونَ يَرَوْنَهَا، جَزَاءً وَفَاقًا لَأَنَّهُمْ أَشَاحُوا بِوُجُوهِهِمْ عَنْهَا أَوَّلًا.»

أَطْرَقَ مُعَاذٌ وَأَرَسَطُو بِرَأْسَيْهِمَا قَلِيلًا، وَكَأَنَّ الْكَلِمَاتِ الْأَخِيرَةَ قَدْ لَامَسَتْ وَتَرًا حَسَاسًا. فَقَدْ أَدْرَكَا أَنَّ الْأُسْتِكْبَارَ لَيْسَ فَقَطْ تَكَبُّرُ الْعَنِيِّ بِمَالِهِ أَوْ الْحَاكِمِ بِسُلْطَتِهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَيْضًا تَكَبُّرُ الْعَالِمِ بِعِلْمِهِ وَالْمُفَكِّرِ بِذَكَائِهِ.

«وَأَشْهَرُ مَثَالٍ تَطْبِيقِيٍّ فِي الْقُرْآنِ عَلَى اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْمَعَاوِقِ الثَّلَاثَةِ فِي شَخْصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ هُوَ "فِرْعَوْنُ". تَأَمَّلُوا قِصَّتَهُ. أَمَّا الْهَوَى، فَقَدْ تَجَسَّدَ فِي حُبِّهِ الْمُطْلَقِ لِلْمَلِكِ وَالسُّلْطَةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ. وَأَمَّا الْغَفْلَةُ، فَقَدْ تَجَلَّتْ فِي نِسْيَانِهِ الْمُتَكَرِّرِ لِلآيَاتِ الْبَاهِرَةِ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَنْهُ الْعَذَابَ. وَأَمَّا الْأُسْتِكْبَارُ، فَقَدْ بَلَغَ ذُرْوَتَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وَرَفَضِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، مَعَ أَنَّ قَلْبَهُ كَانَ يُوقِنُ بِهِ فِي الدَّخْلِ. لَقَدْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ ثَلَاثِيَّةُ الظَّلَامِ هَذِهِ، فَأَدَّتْ إِلَى تَغْطِيلِ كَامِلٍ لِنَتَقَعُّلِهِ، وَأَوْصَلَتْهُ إِلَى الْهَلَاكِ.»

قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ كَخَلَاصَةٍ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُظْلِمَةِ فِي دُرُوبِ الضَّلَالِ:

«مَعَاوِقُ التَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ: الْهَوَى يُفْسِدُ الْمُبِيزَانَ، وَالْغَفْلَةُ تُظْلِمُ السُّوْعَى، وَالْأُسْتِكْبَارُ يُغْلِقُ الصَّدْرَ. وَمَنْ تَجَاوَزَهَا بِالْمُجَاهَدَةِ وَالْإِيمَانِ صَارَ تَعَقُّلُهُ نُورًا، وَمَنْ رَضِيَ بِهَا وَأُسْتُسْلِمَ لَهَا انْقَطَعَ عَنِ الْهُدَى.»

سَادَ صَمْتُ طَوِيلٍ. كَانَتْ هَذِهِ الْجُلُوسَةُ مِنْ أَثْقَلِ الْجُلُوسَاتِ عَلَى نَفُوسِهِمْ، لِأَنَّهَا أَجْبَرَتْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى أَنْ يَنْظُرَ فِي مِرَاةِ نَفْسِهِ

لِيَبْحَثَ عَنْ آثَارِ قُطَاعِ الطَّرِيقِ هُوَلاءِ فِي دَاخِلِهِ.

كَانَتْ زَيْنَبُ هِيَ مَنْ كَسَرَ الصَّمْتَ بِسُؤَالٍ يَبْحَثُ عَنِ النِّظَامِ
وَالترتيبِ حَتَّى فِي وَسْطِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْقَائِمَةِ. قَالَتْ:

«شَيْخَنَا، إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ ثَمَارٌ مَرْجُوَّةٌ وَمَعَاوِقُ مَخْشِيَّةٌ، فَهَذَا
يَعْنِي أَنَّ النَّاسَ لَيُسُوا سَوَاءً. هُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي دَرَجَةِ تَخْصِيلِهِمْ لِتِلْكَ
الْثَّمَارِ وَتَجَنُّبِهِمْ لِهَذِهِ الْمَعَاوِقِ. هَذَا يَقُودُنِي لِلتَّسَاوُلِ: هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ
نَتَحَدَّثَ عَنْ "مَرَاتِبٍ" أَوْ "طَبَقَاتٍ" مُخْتَلِفَةٍ لِلنَّاسِ بِنَاءً عَلَى حَالَةِ تَعْقُلِهِمْ؟
مِنْ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْعُقْلَةِ وَالضَّلَالِ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْحِكْمَةِ وَالْبَصِيرَةِ؟
هَلْ لِلْوَعْيِ الْبَشَرِيِّ دَرَجَاتٌ وَمَرَاتِبٌ؟»

أَوْمَأَ الْإِمَامُ بِرَأْسِهِ.

«سُؤَالُكَ يُدْخِلُنَا إِلَى النَّظَرِ فِي النَّاسِ لَا كَكُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ كَمَنَازِلَ
وَمَرَاتِبَ. وَهَذِهِ "الْمَرَاتِبُ" ... هِيَ حَدِيثُنَا الْقَادِمُ.»

الْفَصْلُ 18: دَرَجَاتُ الْوَعْيِ

كَانَ الْجَوْ فِي الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَحْمِلُ شَيْئًا مِنَ الْأَمَلِ الْمَمْرُوجِ بِالْحَذَرِ. لَقَدْ تَرَكْتُ جَلْسَتَهُمُ الْأَخِيرَةَ حَوْلَ "مَعَاوِقِ التَّعَقُّلِ" أَثَرًا عَمِيقًا فِي نَفُوسِهِمْ، فَأَذْرَكَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْحِكْمَةِ لَيْسَ مَفْرُوشًا بِالْوُرُودِ. وَكَانَ سُؤَالُ زَيْنَبَ الْأَخِيرُ قَدْ فَتَحَ بَابًا جَدِيدًا، بَابًا يَنْتَقِلُ بِهِمْ مِنْ تَشْخِصِ الْمَرَضِ إِلَى وَصْفِ مَرَاتِبِ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ. كَيْفَ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِي قُوَّةِ تَعَقُّلِهِمْ وَعُمْقِهِ؟

اسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجُلَسَةَ بِالْإِجَابَةِ الْمُبَاشِرَةِ عَلَى سُؤَالِ زَيْنَبَ:

«لَقَدْ أَصِيبَ فِي تَشْخِصِكَ يَا زَيْنَبُ، فِيمَا أَنَّ هُنَاكَ ثَمَارًا تُجَنِّي وَمَعَاوِقَ تُعْطِي، فَهَذَا يَغْنِي بِالضَّرُورَةِ أَنَّ النَّاسَ لَيْسُوا عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ. إِنَّهُمْ يَقْعُونَ عَلَى طَيْفٍ وَاسِعٍ مِنَ الْوَعْيِ. وَالْبَيَانُ الْفُرَاقِيُّ، فِي نَظَرَتِهِ الْعَمِيقَةِ لِلْإِنْسَانِ، يُقَدِّمُ لَنَا ثَلَاثِيًّا لِهَذَا الطَّيْفِ، لَا كَطَبَقَاتٍ مُنْفَصِلَةٍ، بَلْ كَدَرَجَاتٍ وَ"مَرَاتِبٍ" مُتَدَاخِلَةٍ مِنَ الْوَعْيِ وَالتَّعَقُّلِ. إِنَّ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ تُسَاعِدُ الْمَرْءَ عَلَى تَحْدِيدِ مَوْعِيهِ، وَمَعْرِفَةُ الطَّرِيقِ الصَّاعِدِ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الَّتِي تَلِيهَا.»

قَالَ مُعَاذٌ، وَقَدْ لَمَعَتْ عَيْنَاهُ لِأَنَّهُ وَجَدَ مُقَابِلًا عِلْمِيًّا لِلْفِكْرَةِ:

«شَيْخَنَا، هَذَا النَّمُودَجُ التَّصَاعُدِيُّ يُشَبِّهُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ نَمَازِجَ الْمُعَالَجَةِ الْمَعْلُومَاتِيَّةِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الْمَعْرِفِيِّ. نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ تَسْلُسِلٍ وَاضِحٍ: أَوَّلًا، "الْإِدْرَاكُ الْحِسِّيُّ" (Sensory Perception) الَّذِي يَسْتَقْبِلُ الْبَيِّنَاتِ الْخَامَّةَ. ثَانِيًا، "الْمُعَالَجَةُ الْمَعْرِفِيَّةُ" (Cognitive Processing) الَّتِي تُحَلِّلُ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ وَتُنظِّمُهَا. وَثَالِثًا، "الْوُظَائِفُ التَّنْفِيزِيَّةُ" (Executive Functions) فِي الْفَصِّ الْجَنْبِيِّ الَّتِي تَقُومُ بِاتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ وَالْحُكْمِ الْأَخْلَاقِيِّ. فَهَلْ هَذِهِ الْمَرَاتِبُ الْقَرَّائِيَّةُ هِيَ تَعْيِيرٌ إِيْمَانِيٌّ عَنْ هَذِهِ الْبَيِّنَةِ الْإِدْرَاكِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَقَاطُعٌ عَجِيبٌ يَا مُعَادُ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَصْدَرَ الْخَلْقِ وَالْوُحْيِ وَاحِدٌ. نَعَمْ، الْقُرْآنُ يَصِفُ هَيْكَلًا مُشَابِهًا لِلْعَايَةِ، لَكِنَّهُ، كَعَادَتِهِ، لَا يَقِفُ عِنْدَ الْوُصْفِ الْمِيكَانِيكِيِّ، بَلْ يُضْفِي عَلَى كُلِّ مَرْتَبَةٍ "غَايَةً" وَ"قِيَمَةً" وَ"مَسْئُولِيَّةً". وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الثَّلَاثُ هِيَ: الْإِدْرَاكُ الْحِسِّيُّ، ثُمَّ الْفِكْرُ التَّحْلِيلِيُّ، ثُمَّ الْغَايَةُ الْقُصْوَى وَهِيَ الْإِدْرَاكُ الْقِيَمِيُّ.»

«لِنَبْدَأُ بِالْأَسَاسِ وَالْمَدْخَلِ وَالْيَوَابَةِ الَّتِي لَا مَدْخَلَ سِوَاهَا: مَرْتَبَةُ "الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ". هَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى الَّتِي نَبْدَأُ بِهَا جَمِيعًا رَحَلَتَنَا فِي الْحَيَاةِ، كَمَا تُؤَكِّدُ آيَةُ التَّحْلِ الَّتِي مَرَّتْ بِنَا مِرَارًا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾. إِنَّهَا مَرْتَبَةُ اسْتِقْبَالِ الْمُعْطِيَّاتِ الْخَامَّةِ مِنَ الْعَالَمِ عَبْرَ الْحَوَاسِّ. إِنَّهَا تُقَدِّمُ لَنَا الْوُقُودَ الْأَوَّلِيَّ لِكُلِّ عَمَلِيَّاتِ التَّعَقُّلِ الْإِلَاحَةِ.»

«وَالْبَيِّنَانِ الْقَرَّائِيَّ،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «يَحْتَرِمُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ اخْتِرَامًا كَبِيرًا وَلَا يُلْغِيهَا، عَلَى عَكْسِ بَعْضِ الْفَلَسَفَاتِ الَّتِي تَرَى الْعَالَمَ الْحِسِّيَّ

وَهُمَا أَوْ سَجَنًا. فَالْقُرْآنُ يُسَمِّي الظَّوَاهِرَ الْحِسِّيَّةَ "آيَاتٍ"، وَيَدْعُونَا بِاسْتِمْرَارٍ إِلَى تَفْعِيلِ حَوَاسِّنَا لِإِدْرَاكِهَا. لَكِنَّ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ هُوَ أَنَّ يَبْقَى الْإِنْسَانُ "سَجِينًا" هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا. هَذَا هُوَ خَالُ الْإِنْسَانِ الْمَادِّي الْقَفْحُ، الَّذِي لَا يُؤْمِنُ إِلَّا بِمَا يَرَاهُ وَيَلْمُسُهُ. إِنَّهُ يَعِيشُ حَيَاةً مُسَطَّحَةً، حَيَاةً مُجَرَّدَ الْأُسْتِجَابَةِ لِلْمَوْثُرَاتِ الْحِسِّيَّةِ. إِنَّهُ الَّذِي يَصِفُهُ الْقُرْآنُ بِأَنَّهُ «كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»، لِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَصِلُ إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَتَقِفُ عِنْدَهَا، أَمَّا الْإِنْسَانُ فَقَدْ أُعْطِيَ الْقُدْرَةَ عَلَى الصُّعُودِ وَلَكِنَّهُ رَضِيَ بِالْبَقَاءِ فِي الْأَسْفَلِ.»

«فَإِذَا نَجَحَ الْمَرْءُ فِي تَجَاوُزِ الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ الْمَجَرَّدِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ الْمَرْتَبَةَ الثَّانِيَّةَ، الْمَرْتَبَةَ الْأَكْثَرُ تَعْقِيدًا وَالَّتِي تُمَثِّلُ الْجِسْرَ بَيْنَ الْمَعْلُومَةِ وَالْحِكْمَةِ. هَذِهِ هِيَ مَرْتَبَةُ "الْفِكْرِ التَّحْلِيلِيِّ".»

«فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، لَا يَكْتَفِي الْإِنْسَانُ بِاسْتِقْبَالِ الْمُعْطِيَّاتِ، بَلْ يَبْدَأُ فِي مُعَالَجَتِهَا. يَقُومُ بِتَفْكِكِهَا وَمُقَارَنَتِهَا وَتَصْنِيفِهَا، وَالْبَحْثُ عَنِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَهَا، وَاسْتِنتَاجِ الْأَسْبَابِ وَالنَّاتِجِ. إِنَّهُ الْمَجَالُ الَّذِي تُولَدُ فِيهِ الْمَفَاهِيمُ الْمَجَرَّدَةُ وَالْأَفْكَارُ الْمُرَكَّبَةُ وَالنَّظَرِيَّاتُ الْعِلْمِيَّةُ. وَالْقُرْآنُ يَحْتَ عَلَى الصُّعُودِ إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ بِقُوَّةٍ، فَيَأْمُرُنَا لَا بِمَجَرَّدِ الرُّؤْيَةِ، بَلْ بِالنَّظَرِ الْفَاجِصِ". (قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ). إِنَّهَا لَيْسَتْ دَعْوَةٌ لِلرُّؤْيَةِ الْعَابِرَةِ، بَلْ دَعْوَةٌ لِلتَّحْلِيلِ الْعَقْلِيِّ الْعَمِيقِ لِمُكُونَاتِ الْوُجُودِ وَقَوَائِيهِه.»

قَالَ أَرِسْطُو بِيَتَحَفُّزِ:

«هَذِهِ هِيَ مَرْتَبَةُ الْفَلَسَفَةِ وَالْعِلْمِ! هِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي يَصْنَعُ فِيهَا الْعَقْلُ النَّظَرِيَّاتِ الْكُبْرَى الَّتِي تُفَسِّرُ الْعَالَمَ. إِنَّهَا ذُرْوَةُ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«هِيَ ذُرْوَةٌ عَظِيمَةٌ، لِكِنَّهَا لَيْسَتْ الْقِمَّةُ النَّهَائِيَّةُ فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ. إِنَّهَا مَرْتَبَةٌ قَوِيَّةٌ وَضَّرُورِيَّةٌ، وَهِيَ الْجِسْرُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْعُبُورِ نَحْوَ الْحِكْمَةِ. وَلَكِنَّهَا، مِثْلَ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، تَحْمِلُ خَطَرَهَا الْخَاصَّ. خَطَرُهَا هُوَ أَنْ يَقِفَ الْمَرْءُ عِنْدَهَا، فَيُصْبِحُ "مَحَلًّا" بَارِعًا، لَكِنَّهُ يَفْقِدُ الْبُعْدَ الْقِيَمِيَّ وَالْغَايَةَ. هَذَا هُوَ حَالُ الْعَالِمِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَرَّحَ الْخَلِيَّةُ الْحَيَّةُ إِلَى أَذَقِ مَكُونَاتِهَا، وَلَكِنَّهُ لَا يَرَى فِي ذَلِكَ إِلَّا تَفَاعُلَاتٍ كِيمِيَايَّةَةً عَمِيَاءَ. أَوْ حَالِ الْفِيلَسُوفِ الَّذِي يَبْنِي نَسَقًا فِكْرِيًّا مُحْكَمًا ثَبُتَ فِي نَهَائِيَّتِهِ عَبَثِيَّةِ الْوُجُودِ. لَقَدْ أَتَتْحَ "مَعَارِفٌ" وَ"مَفَاهِيمٌ"، لَكِنَّهُ لَمْ يُنْتِجْ "هَدًى" وَ"مَعْنًى".»

«وَلِهَذَا، لَا بُدَّ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّلَاثَةِ وَالْأَعْلَى، الْمَرْتَبَةِ الَّتِي تُتَوَجَّحُ الرَّحْلَةُ كُلُّهَا. إِنَّهَا مَرْتَبَةُ "الْإِدْرَاكِ الْقِيَمِيِّ".»

«فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا، لَا يَقْتَصِرُ التَّعَقُّلُ عَلَى اسْتِقْبَالِ الْمُعْطِيَّاتِ أَوْ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْلِيلِهَا، بَلْ يَرْتَقِي لِيَقُومَ بِوُظُيفَتِهِ الْأَسْمَى: وَضَعُ "مِيزَانٍ" لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَتَمْيِيزُ الْخَيْرِ مِنَ الشَّرِّ، وَالْجَمِيلِ مِنَ الْقَبِيحِ. إِنَّهَا الْمَرْتَبَةُ الَّتِي تَتَحَوَّلُ فِيهَا "الْمَعْرِفَةُ" (Knowledge) إِلَى "بَيِّنَةٍ" (Clarified Worldview). وَ"الْبَيِّنَةُ" لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَعْلُومَةٍ، بَلْ هِيَ مَعْرِفَةٌ مُسْتَنِيرَةٌ بِنُورِ الْوَحْيِ، أَصْبَحَتْ قَاعِدَةً لِلْحُكْمِ وَمَنْطَلَقًا لِلْقِيَمِ. وَهَذَا مَا يُعْلِنُهُ النَّبِيُّ (ص) فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾. إِنَّهُ يَقِفُ عَلَى أَرْضِ صُلْبَةٍ مِنَ الْوُضُوحِ الْقِيَمِيِّ.»

«وَلَعَلَّ أَرْوَاعَ مِثَالِ تَطْبِيقِيٍّ عَلَى هَذِهِ الرَّحْلَةِ الصَّاعِدَةِ عَبْرَ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ، هُوَ مَا يَعْرِضُهُ الْقُرْآنُ مِنْ رَحْلَةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الْفِكْرِيَّةِ الْأُولَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.»

«تَأَمَّلُوا مَعِيَ الْمَسَارَ. أَوَّلًا، مَرْتَبَةُ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمِيِّ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ

الْبَيْلُ رَعَا كَوَكْبًا... ﴿فَلَمَّا رَعَا الْقَمَرَ بَارِعًا﴾... ﴿فَلَمَّا رَعَا الشَّمْسَ بَارِعَةً﴾. الْبِدَايَةُ دَائِمًا هِيَ "الرُّؤْيَةُ"، أَسْتَقْبَالُ الْمُعْطَى الْجِسِّيِّ الْمُبَاشِرِ.»

«ثَانِيًا، مَرْتَبَةُ الْفِكْرِ التَّخْلِيلِيِّ: إِنَّهُ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ مُجَرَّدِ الرُّؤْيَةِ. بَلْ قَامَ بِتَحْلِيلِ خَصَائِصِ هَذِهِ الْمَرْتَبَاتِ. مَاذَا وَجَدَ؟ وَجَدَ أَنَّهَا تَشْتَرِكُ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ: ﴿فَلَمَّا أَفَل...﴾. "الْأَفُولُ"، أَيُ الْغِيَابِ وَالتَّغَيُّرِ وَالتَّنْفُصِ. فَقَامَ بِعَمَلِيَّةِ اسْتِثْنَائِ عَقْلِيٍّ: "الْأَفُولُ الْمَتَغَيِّرُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّبُّ الْمُطْلَقُ". فَقَالَ: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾. هَذَا فِكْرٌ تَحْلِيلِيٌّ مِنْ أَرْقَى طَرَاظٍ.»

«ثَالِثًا، مَرْتَبَةُ الْإِذْرَاكِ الْقِيَمِيِّ: بَعْدَ أَنْ أَكْمَلَ رِحْلَتَهُ الْجَسِّيَّةَ وَالتَّحْلِيلِيَّةَ، لَمْ يَقِفْ عِنْدَ نَتِيجَةِ سَلْبِيَّةٍ ("هَذِهِ لَيْسَتْ إِلَهَةً"). بَلْ قَفَزَ الْفَقْرَةُ الْإِيمَانِيَّةَ الْكُبْرَى، فَحَوَّلَ مَعْرِفَتَهُ إِلَى "بَيِّنَةٍ" وَ"تَوَجُّهِ" وَ"قِيَمَةٍ عُلْيَا". فَأَعْلَنَ إِعْلَانَهُ الْخَالِدَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِيًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. هُنَا أَكْتَمَلَتْ دَائِرَةُ التَّعَقُّلِ، فَانْتَقَلَتْ مِنَ الْمُسَاهَدَةِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، وَمِنَ الْمَعْرِفَةِ إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْهُدَى.»

هُنَا قَدَّمَ الْإِمَامُ الْخَلَاصَةَ الْقَاعِدِيَّةَ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ:

«مَرَاتِبُ التَّعَقُّلِ ثَلَاثَةٌ مُتَصَاعِدَةٌ: الْإِذْرَاكُ الْجِسِّيُّ (وَهُوَ مَدْخَلُ الْمَعْرِفَةِ)، وَالْفِكْرُ التَّخْلِيلِيُّ (وَهُوَ جِسْرُ الْإِذْرَاكِ)، وَالْإِذْرَاكُ الْقِيَمِيُّ (وَهُوَ غَايَةُ الْحِكْمَةِ). وَبِهَا يَكْتَمِلُ مِيزَانُ التَّعَقُّلِ فِي الْإِنْسَانِ، فَيَنْتَقِلُ مِنْ مُجَرَّدِ اسْتِقْبَالِ الْعَالَمِ إِلَى فَهْمِهِ، وَمِنْ فَهْمِهِ إِلَى إِعْطَائِهِ مَعْنَى وَقِيَمَةً.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَ الطُّلَابُ يَتَأَمَّلُونَ فِي هَذَا السُّلَمِ الْعَظِيمِ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ زَيْنَبُ الْفَقِيهَةُ، وَكَانَ فِي صَوْتِهَا نَبَرَةٌ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ الْقَاعِدَةَ الْكُلِّيَّةَ. قَالَتْ:

«شَيْخَنَا، هَذِهِ الْمَرَاتِبُ تَرُسُّمٌ لَنَا مَسَارًا لِلْفَرْدِ. وَقَدْ تَحَدَّثْنَا مِنْ قَبْلُ عَنْ "مَقَاصِدِ" الَّتِي تَعَقُّلٌ فِي الْمُجْتَمَعِ وَالْحَضَارَةِ. فَهَلْ هُنَاكَ رَابِطٌ؟ هَلْ هُنَاكَ "قَوَائِينُ" أَوْ "أَنْسَاقٌ" ثَابِتَةٌ، أَوْ مَا أَسَمَيْتَهُ سَابِقًا "سُنَنًا"، تَحْكُمُ عَوَاقِبَ وَنَتَائِجَ الْوُقُوفِ عِنْدَ مَرْتَبَةٍ دُونَ أُخْرَى؟ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، هَلْ هُنَاكَ "سُنَّةُ إِلَهِيَّةٍ" لِمَصِيرِ الْأُمَمِ الَّتِي تَبْقَى فِي مَرْتَبَةِ الْإِدْرَاكِ الْجَسَدِيِّ، وَ"سُنَّةٌ" أُخْرَى لِتِلْكَ الَّتِي تَصِلُ إِلَى الْفِكْرِ التَّحْلِيلِيِّ وَلَكِنَّهَا تَرْفُضُ الْإِدْرَاكَ الْقِيَمِيَّ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

«لَقَدْ فَتَحْتَ بِنَفْسِكَ بَابَ الْمَجْلِسِ الْقَادِمِ يَا زَيْنَبُ. فَبَعْدَ أَنْ عَرَفْنَا مَسَارَ الْفَرْدِ، لَا بُدَّ أَنْ نَنْظُرَ فِي مَصَارِ الْأُمَمِ. وَمَا هِيَ هَذِهِ "السُّنَنُ"، فَتِلْكَ قِصَّةُ أُخْرَى.»

الفصل 19: الْقَوَانِينُ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ شَيْئًا مِنَ الْهَيْبَةِ وَالْجَلَالِ. فَالْحَدِيثُ فِي الْجُلُوسَةِ السَّابِقَةِ عَنْ "مَرَاتِبِ الْوَعْيِ" كَانَ قَدْ أَوْصَلَهُمْ إِلَى ذُرْوَةِ فَهْمِ الذَّاتِ الْفَرْدِيَّةِ. وَالْآنَ، كَانَ سُؤَالُ زَيْنَبَ الْأَخِيرُ يَدْعُوهُمْ لِيَذْفَعُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ خَرِيْطَةِ الْفَرْدِ إِلَى خَرِيْطَةِ الْكَوْنِ الْأَخْلَاقِيِّ نَفْسِهِ. هَلْ هُنَاكَ "فِيْزِيَاءٌ" رُوحِيَّةٌ تَحْكُمُ نَتَائِجَ أَفْعَالِنَا وَأَفْكَارِنَا، كَمَا تَحْكُمُ الْجَادِيَّةُ سُفُوطَ الْأَجْسَامِ؟

اسْتَهْلَ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ قَائِلًا، وَكَأَنَّهُ يُجِيبُ عَلَى فِكْرَةٍ كَانَتْ لَا تَزَالُ مَائِلَةً فِي الْهَوَاءِ:

«لَقَدْ نَقَلْنَا سُؤَالَكَ يَا زَيْنَبُ مِنْ عَالَمِ "النَّفْسِ" إِلَى عَالَمِ "الْأَفَاقِ". سَأَلْتُ عَنْ الْقَوَانِينِ وَالْأَنْسَاقِ الثَّابِتَةِ، عَنْ "السُّنَنِ". وَهَذَا مِنْ أَعْمَقِ مَفَاهِيمِ التَّبَيَّنِ الْقُرْآنِيِّ، فَهُوَ يُعْلِنُ بِوُضُوحٍ أَنَّ فِعْلَنَا الْإِنْسَانِيَّ، وَتَعَقُّلَنَا، وَاخْتِيَارَاتِنَا، لَا تَجْرِي فِي فَرَاغٍ أَوْ فَوْضَى، بَلْ تَجْرِي دَاخِلَ نِظَامٍ كَوْنِيٍّ أَخْلَاقِيٍّ لَهُ قَوَائِينُهُ الصَّارِمَةُ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ، كَمَا أَنَّ لِلْكَوْنِ الْمَادِّيِّ قَوَائِينَهُ. هَذِهِ الْقَوَانِينُ هِيَ "سُنَنُ اللَّهِ"، وَمَنْ فَقَّهَهَا فَفَهِهَ أَسْرَارَ الصُّعُودِ وَالْهَبُوطِ لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ.»

عَقَبَ مُعَاذٌ قَائِلًا:

«شَيْخَنَا، إِنَّ فِكْرَةَ "الْقَوَانِينِ" الَّتِي تَحْكُمُ السُّلُوكَ الْبَشَرِيَّ هِيَ أَسَاسُ الْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ. نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ "تَفَاعُلَاتِ النُّظْمِ" (Systems Dynamics) وَ"حَلَقَاتِ التَّغْذِيَةِ الرَّاجِعَةِ" (Feedback Loops). فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، الْمُجْتَمَعُ الَّذِي يُسَجِّعُ التَّعْلِيمَ يَدْخُلُ فِي حَلَقَةٍ إِيْجَابِيَّةٍ مِنَ النَّمُوِّ. وَالْمُجْتَمَعُ الَّذِي يَهْمِلُهُ يَدْخُلُ فِي حَلَقَةٍ سَلْبِيَّةٍ مِنَ التَّخَلُّفِ. فَهَلْ "السُّنَنُ" هِيَ تَعْبِيرٌ إِيْمَانِيٌّ عَنْ هَذِهِ الْأَنْسَاقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الْمَرْصُودَةِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَقَاطُعُ مُهِمٍّ، لَكِنَّ الْفَرْقَ جَوْهَرِيٌّ. أَنْتُمْ تَصِفُونَ "الْأَلْيَّةَ"، وَالْقُرْآنُ يَكْشِفُ عَنْ "الْعَايَةِ" وَ"الْفَاعِلِ" وَرَاءَ الْأَلْيَّةِ. أَنْتُمْ تَرَوْنَهَا "تَفَاعُلَاتٌ"، وَالْقُرْآنُ يَرَاهَا "آيَاتٌ" تَدُلُّ عَلَى قِيُومِيَّةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ. وَمِنْ بَيْنِ الْعَدِيدِ مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ، هُنَاكَ ثَلَاثُ سُنَنِ كُبْرَى تَحْكُمُ مَسَارَ التَّعَقُّلِ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ، وَهِيَ: سُنَّةُ الْهُدَى، وَسُنَّةُ الْإِمْتِحَانِ، وَسُنَّةُ الْجَزَاءِ.»

«لِنَبْدَأَ بِالسُّنَّةِ الْأُولَى، سُنَّةِ النَّمُوِّ وَالتَّرَايُدِ: سُنَّةُ الْهُدَى.»

«أَنْتِ تَسَمِّيْهَا "حَلَقَةُ التَّغْذِيَةِ الرَّاجِعَةِ الْإِيْجَابِيَّةِ" يَا مُعَاذُ، وَالْقُرْآنُ يَسَمِّيْهَا سُنَّةَ الزِّيَادَةِ فِي الْهُدَايَةِ. وَهِيَ تَعْنِي أَنَّ الْهُدَى لَيْسَ نَقْطَةً نَصِلُ إِلَيْهَا ثُمَّ نَتَوَقَّفُ، بَلْ هُوَ طَرِيقٌ كُلَّمَا مَشَيْتَ فِيهِ خُطْوَةً، اتَّسَعَ أَمَامَكَ وَانَّارَ اللَّهُ لَكَ الْخُطْوَةَ الَّتِي تَلِيهَا. إِنَّهَا سُنَّةٌ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِسْتِجَابَةِ. تَأْمَلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. الْأَيَّةُ وَاضِحَةٌ: الَّذِينَ "اهْتَدَوْا" - أَيِ بَذَلُوا الْجُهْدَ الْأَوَّلَ وَاتَّخَذُوا قَرَارَ السَّيْرِ نَحْوَ الْحَقِّ - كَانَتْ الْمُكَافَأَةُ الْإِلَهِيَّةُ لَهُمْ مِنْ جَنَسِ عَمَلِهِمْ: "زَادَهُمْ هُدًى". فَكُلُّ عَمَلِيَّةٍ تَعَقُّلٍ صَادِقَةٍ، وَكُلُّ اخْتِيَارٍ اخْلَاقِيٍّ صَحِيحٍ، يُصْبِحُ رَأْسَ مَالٍ

لِمَزِيدٍ مِنَ الْوُضُوحِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.»

«وَلِهَذِهِ السُّنَّةِ وَجْهٌ آخَرٌ مُظْلِمٌ.» اسْتَظَرَدَ الْإِمَامُ، «وَهُوَ أَنَّ الضَّلَالَ

أَيْضًا يَخْضَعُ لِنَفْسِ قَانُونِ الزِّيَادَةِ. «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ». فَمَنْ

اخْتَارَ الْأَنْحِرَافَ وَالزَّبْغَ، عَاقَبَتْهُ السُّنَّةُ بِأَنْ يَزْدَادَ انْحِرَافًا وَتَشَوُّشًا. إِنَّهَا

دَوَامَةٌ صَاعِدَةٌ لِلْمُهْتَدِينَ، وَدَوَامَةٌ هَابِطَةٌ لِلضَّالِّينَ. وَهَذَا يَجْعَلُ مِنْ كُلِّ

قَرَارٍ نَتِجَتَهُ ذَا أَهَمِّيَّةٍ قُضُوئِيَّةٍ، لِأَنَّهُ لَا يُحَدِّدُ حَاضِرَنَا فَقَطْ، بَلْ يُشَكِّلُ

قَابِلِيَّتَنَا لِلْهُدَى أَوْ الضَّلَالِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.»

«فَإِذَا كَانَتِ السُّنَّةُ الْأُولَى هِيَ سُنَّةُ التَّوْجِيهِ، فَإِنَّ السُّنَّةَ الثَّانِيَّةَ

هِيَ سُنَّةُ الْكُشْفِ وَالتَّمْجِيسِ: سُنَّةُ الْأَمْتِحَانِ.»

«إِنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّعَقُّلَ لَيْسَا مُجَرَّدَ ادِّعَاءَاتٍ نَظَرِيَّةٍ. فَقَدْ يَدَّعِي

الْمَرْءُ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْوَعْيِ، وَلَكِنَّ الْكَلِمَاتِ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي.

لَا بُدَّ مِنْ وَضْعِ هَذِهِ الِادِّعَاءَاتِ فِي "مِيزَانِ الْوَاقِعِ"، وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفِهَا

لِلضَّغْطِ لِنَرَى هَلْ هِيَ مِنْ ذَهَبٍ خَالِصٍ أَمْ مِنْ مَعْدِنٍ زَائِفٍ. هَذَا هُوَ دَوْرُ

"سُنَّةِ الْأَمْتِحَانِ" أَوْ "الْفِتْنَةِ"، كَمَا يُعَبِّرُ الْقُرْآنُ: «أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا

أَنْ يَقُولُوا ءَامِنًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ». الْآيَةُ تَطْرَحُ سُؤَالَ اسْتِنكَارِيًّا: هَلْ يَطْنُونَ

أَنَّ الْأَمْرَ بِهِذِهِ الْبَسَاطَةِ؟ أَنْ يَقُولُوا كَلِمَةً بِالسِّنْتِهِمْ فَيَنْتَهِيَ الْأَمْرُ؟ لَا، بَلْ لَا

بُدَّ لِهَذَا الْقَوْلِ أَنْ يُمْتَحَنَ.»

قَالَتْ لَيْلَى:

«هَذَا مَا يَجْعَلُ الْأَمْرَ صَعْبًا. فَلَحَظْتُ الطُّمَأْنِينَةَ وَالْهُدُوءَ جَمِيلَةً،

وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ تَأْتِي دَائِمًا بِمَا يَخْتَبِرُ هَذِهِ الطُّمَأْنِينَةَ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«لَإِنَّ الْأُمْتِحَانَ يَا لَيْلَى لَيْسَ عُقُوبَةً، بَلْ هُوَ صَرُورَةٌ لِلنُّمُوِّ. فَالْعُضَلَةُ لَا تَقْوَى إِلَّا بِحِمْلِ الْأَثْقَالِ. وَالْتَعَقُّلُ لَا يَشْتَدُّ عُودُهُ وَلَا يَثْبُتُ اظْمِنَانُهُ إِلَّا حِينَ يَمُرُّ بِأَيُّونِ الْفِتْنَةِ. وَالْقُرْآنُ يَذْكُرُ لَنَا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الْأُمْتِحَانَاتِ: الشَّهْوَةُ وَالشَّبَهَةُ وَالْخَوْفُ وَالْجُوعُ وَالنَّقْصُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ. كُلُّ هَذِهِ مَوَاقِفُ حَيَاتِيَّةٍ تُجْبِرُ تَعَقُّلَنَا عَلَى أَنْ يُظْهَرَ حَقِيقَتُهُ: هَلْ هُوَ صَادِقٌ وَرَاسِخٌ، أَمْ أَنَّهُ مُجَرَّدُ قِشْرَةٍ هَشَّةٍ تَتَكَسَّرُ عِنْدَ أَوَّلِ ضَغْطٍ؟»

«وَلِنَقُومَ بِتَمْرِينَا التَّطْبِيقِيِّ لِنَرَى هَذِهِ السَّنَنَ وَهِيَ تَعْمَلُ فِي قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ: قِصَّةُ "أَصْحَابِ الْجَنَّةِ" فِي سُورَةِ الْقَلَمِ.»

«لِنَتَذَكَّرِ الْقِصَّةَ. أَبُ صَالِحٌ كَانَ يَتَصَدَّقُ عَلَى الْمَسَاكِينِ، فَمَاتَ. وَرَثَ أَبْنَاؤُهُ الْجَنَّةَ (الْبُسْتَانَ). هُنَا يَأْتِي "أُمْتِحَانُهُمْ": أُمْتِحَانُ الْغِنَى وَالْوَفَرَةِ. كَيْفَ سَيَتَصَرَّفُونَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ؟ لَقَدْ فَشِلَ تَعَقُّلُهُمْ فِي الْأُمْتِحَانِ الْأَوَّلِ. غَلَبَهُمُ الْبُخْلُ وَالْأَثَرَةُ، وَقَرَّرُوا أَنْ يَحْرِمُوا الْفُقَرَاءَ حَقَّهُمْ. وَلَكِنْ "سُنَّةُ الْهُدَى" تَجَلَّتْ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ؟». هَذَا هُوَ صَوْتُ الْهُدَى الَّذِي جَاءَهُمْ، لَكِنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْهُ. فَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟»

أَكْمَلَ خَالِدٌ:

«أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى جَنَّتِهِمْ عَذَابًا فَأَصْبَحَتْ مَحْرُوقَةً.»

قَالَ الْإِمَامُ:

«تَمَامًا. وَهَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ الثَّلَاثَةُ، سُنَّةُ الْعَدْلِ الْمُطْلَقِ وَالْحِسَابِ الدَّقِيقِ: سُنَّةُ الْجَزَاءِ.»

«إِنَّ هَذِهِ السُّنَّةَ تَقْضِي بِأَنَّ الْكَوْنَ لَيْسَ عَبَثًا. فَكُلُّ فِعْلٍ، وَكُلُّ اخْتِيَارٍ، وَكُلُّ عَمَلِيَّةٍ تَعَقُّلٍ، لَهَا نَتِيجَةٌ وَجَزَاءٌ مُرْتَبٌّ عَلَيْهَا، فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا مَعًا. إِنَّهَا سُنَّةُ الْمَسْئُولِيَّةِ. وَأَعْظَمُ تَجْسِيدٍ لِذِيَّتِهَا هُوَ مَا جَاءَ فِي خَتَامِ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.»

«"مِثْقَالَ ذَرَّةٍ"! إِنَّهُ أَدَقُّ مِيزَانٍ يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهُ. وَهَذَا الْجَزَاءُ لَا يَشْمَلُ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ فَقَطْ، بَلْ يَشْمَلُ أَيْضًا عَمَلِ "التَّعَقُّلِ" نَفْسَهُ. فَأَنْتَ تُجَارِي عَلَى مَا عَقَلْتَ، وَتُحَاسِبُ عَلَى مَا أَعْرَضْتَ عَنْ تَعَقُّلِهِ. وَبِالْعَوْدَةِ إِلَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، نَرَى أَنَّ "جَزَاءَهُمْ" كَانَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ تَمَامًا: أَرَادُوا أَنْ يَمْتَنِعُوا الْخَيْرَ عَنِ الْفُقَرَاءِ، فَكَانَ الْجَزَاءُ أَنْ مُنِعَ عَنْهُمْ الْخَيْرُ كُلُّهُ. وَلَكِنَّ الْقِصَّةَ لَمْ تَنْتَهَ هُنَا. فَعِنْدَمَا رَأَوْا الْجَزَاءَ، عَمِلَتْ عَقُولُهُمْ مَرَّةً أُخْرَى، فَتَذَكَّرُوا وَاعْتَبَرُوا وَتَابَوْا. فَكَانَ لِهَذَا التَّعَقُّلِ الْمُتَأَخَّرِ جَزَاءٌ أَيْضًا، وَهُوَ الْأَمَلُ فِي الْمَغْفِرَةِ وَالْعَوَظِ: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رُغَبُونَ﴾.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ:

«سُنَنُ التَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ مُتَرَابِطَةٌ: سُنَّةُ الْهَدْيِ (وَهِيَ تَزَايِدُ الْوَعْيَ بِالْاِسْتِجَابَةِ)، وَسُنَّةُ الْأُمْتِحَانِ (وَهِيَ كَشْفُ صَدْقِ الْوَعْيِ فِي الْوَاقِعِ)، وَسُنَّةُ الْجَزَاءِ (وَهِيَ تَخْذِيدُ مَصِيرِ الْإِنْسَانِ بِنَاءً عَلَى اسْتِجَابَتِهِ). وَهَذِهِ السُّنَنُ هِيَ الَّتِي نَحْوُلُ التَّعَقُّلَ مِنْ مُجَرَّدِ فِعْلٍ ذِهْنِيٍّ إِلَى مَسَارٍ اخْلَاقِيٍّ وَخَضَارِيٍّ لَهُ عَوَاقِبُهُ الْخَتْمِيَّةُ.»

سَادَ صَمْتُ عَمِيقٍ. كَانَ الْإِحْسَاسُ بِالْمَسْئُولِيَّةِ قَدْ بَلَغَ ذُرْوَتَهُ. فَإِذَا كَانَ الْكَوْنَ يَسِيرُ وَفْقَ هَذِهِ الْقَوَائِينِ الصَّارِمَةِ، فَإِنَّ كُلَّ فِكْرَةٍ وَكُلِّ قَرَارٍ

لَهُ وَزَنُّهُ وَثِقْلُهُ.

كَانَ خَالِدٌ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ، وَكَانَ صَوْتُهُ يَعْكِسُ شُعُورَ الْمَرْءِ الْعَادِيِّ
أَمَامَ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ الْهَائِلَةِ. قَالَ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ الْوَعْيَ بِهَذِهِ السُّنَنِ مُخِيفٌ وَمُطْمَئِنٌّ فِي آنٍ وَاجِدٍ.
مُخِيفٌ لِأَنَّهُ يَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ ذَا تَبِعَاتٍ، وَمُطْمَئِنٌّ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكُونَ
لَيْسَ عَبَثًا. سُؤَالِي الْعَمَلِيُّ هُوَ: بِمَا أَنَّنَا نَعِيشُ فِي مَهَبِ هَذِهِ السُّنَنِ،
وَنَحْنُ فِي أُمْتِحَانٍ دَائِمٍ، وَكُلُّ أَفْعَالِنَا لَهَا جَزَاءٌ، فَهَلْ زَوَدْنَا الْقُرْآنُ بِـ "عُدَّةِ
الْمُتَحَنِّ"؟ هَلْ أَعْطَانَا أَدَوَاتٍ مُحَدَّدَةً وَوَاضِحَةً، أَشْيَاءَ عَمَلِيَّةٍ نَسْتَخْدِمُهَا
لِنَنْجَحَ فِي هَذَا الْإِمْتِحَانِ، وَلِنَسْتَفِيدَ مِنْ سُنَّةِ الْهُدَى، وَنَرْجُو حُسْنَ
الْجَزَاءِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

«لَقَدْ وَصَلْتَ إِلَى سُؤَالِ الْعُدَّةِ وَالسَّلَاحِ يَا خَالِدُ. وَنَعَمْ، إِنَّ الَّذِي
وَضَعَ قَوَائِينَ الْمَسِيرِ، قَدْ جَهَّزَ السَّالِكَ بِمَا يُعِينُهُ عَلَى الطَّرِيقِ. وَمَا هِيَ
هَذِهِ "الْأَدَوَاتُ" ... فَتِلْكَ قِصَّةُ أُخْرَى.»

الْفَصْلُ 20: عُدَّةُ السَّالِكِ

كَانَتْ أَجْوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ طَابَعًا عَمَلِيًّا وَاقِعِيًّا. الْحَدِيثُ فِي الْجَلْسَةِ الْمَاضِيَةِ عَنْ "سُنَنِ اللَّهِ" الصَّارِمَةِ كَانَ قَدْ أَلْقَى بِظِلَالٍ مِنَ الْهَيْبَةِ وَالْخَشْيَةِ، وَأَشْعَرَ الطُّلَّابَ بِثِقَلِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُلْقَاةِ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ. وَكَانَ سُؤَالُ خَالِدٍ الْأَخِيرُ، السُّؤَالُ عَنْ "الْعُدَّةِ وَالسَّلَاحِ"، يُمَثِّلُ الْحَاجَةَ الْفِطْرِيَّةَ لِكُلِّ مُسَافِرٍ فِي دَرْبٍ طَوِيلٍ: كَيْفَ اتَّجَهْزُ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الشَّاقَّةِ؟

اسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجَلْسَةَ بِالْأُسْتِجَابَةِ الْمُبَاشِرَةِ لِهَذَا الِهَمِّ:

«لَقَدْ أَصَبْتَ بِسُؤَالِكَ يَا خَالِدُ، فَقَدْ وَصَلْتَ بِنَا إِلَى سُؤَالِ "الْعُدَّةِ" وَ"التَّجْهِيزِ". فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُلْقِ بِنَا فِي مَيْدَانِ الْأُمْتِحَانِ وَيَقُلْ لَنَا: "دَبِّرُوا أُمُورَكُمْ". بَلْ إِنَّ الَّذِي وَضَعَ قَوَانِينَ الْمَسِيرِ الصَّارِمَةِ، هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي جَهَّزَ السَّالِكَ بِأَفْضَلِ مَا يُعِينُهُ عَلَى الطَّرِيقِ. لَقَدْ رَوَدَنَا بَعْدَهُ أَسَاسِيَّةٌ، بِ"أَدَوَاتٍ تَعَقُّلٍ" ثَلَاثٍ، هِيَ الْهَبَاتُ الْأُولَى لَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَهِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ كُلُّ وَعَى وَإِدْرَاكِ لَاحِقٍ. وَقَدْ مَرَّتْ بِنَا هَذِهِ الْأَدَوَاتُ مِنْ قَبْلِ كَمَا دَاخِلَ لِلْمَعْرِفَةِ، وَلَكِنَّا سَنَنْظُرُ إِلَيْهَا اللَّيْلَةَ بِاعْتِبَارِهَا "أَدَوَاتٍ عَمَلٍ" نَشِطَةٌ. هَذِهِ الْعُدَّةُ الثَّلَاثِيَّةُ هِيَ: السَّمْعُ وَالْأَبْصَرُ وَالْأَفْئِدَةُ.»

رَفَعَ مُعَاذٌ يَدَهُ يَهْدُوهُ وَقَالَ:

«شَيْخَنَا، لَقَدْ نَاقَشْنَا هَذِهِ الْأَدَوَاتِ سَابِقًا كَبَوَّابَاتٍ لِلْمَعْلُومَاتِ. وَلَكِنْ إِذَا كُنَّا سَنَتَعَامَلُ مَعَهَا كـ"أَدَوَاتٍ"، فَلَا بُدَّ أَنْ نَعْتَرِفَ بِمُحْدُوذِيَّتِهَا وَعُيُوبِهَا. فَسَمِعْنَا لَا يَلْتَقِطُ إِلَّا نِطَاقًا مُحَدَّدًا مِنَ التَّرَدُّدَاتِ، وَأَبْصَارُنَا لَا تَرَى إِلَّا جُزْءًا ضَيِّلًا مِنَ الطَّيْفِ الْكَهْرُومِغْنَاطِيْسِيِّ، وَأَفْئِدَتُنَا - أَوْ أَدْمَغَتُنَا بِلُغَةِ الْعِلْمِ - مَلِيئَةٌ بِالتَّحْيِزَاتِ الْإِدْرَاكِِّيَّةِ الَّتِي تُسَوِّهُ الْوَاقِعَ. فَكَيْفَ يُمَكِّنُ الْأَعْتِمَادُ عَلَى أَدَوَاتٍ "مَعْيِبَةٍ" بِطَبْعِهَا فِي رِحْلَةِ تَطَلُّبِ الْأَطْمِنَتَانِ الْمُطْلَقِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«مَلَاخَظْتُكَ تَعَكُّسُ طُمُوحِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ لِلْوُصُولِ إِلَى الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، وَهَذَا طُمُوحٌ مَشْرُوعٌ. لَكِنَّ الْمَنْظُورَ الْقُرْآنِيَّ يَنْبَلِغُ مِنْ وَاقِعِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ. إِنَّهُ لَا يَطْلُبُ مِنَّا أَنْ نَمْتَلِكَ أَدَوَاتٍ كَامِلَةً، بَلْ يَطْلُبُ مِنَّا أَنْ نُحْسِنَ اسْتِخْدَامَ الْأَدَوَاتِ الَّتِي وَهَبَتْ لَنَا فِي حُدُودِ قُدْرَاتِهَا، وَأَنْ نُدْرِكَ الْغَايَةَ مِنْ وَرَائِهَا. وَالْقُرْآنُ لَا يَهْتَمُّ بِالْحُدُودِ الْفِيزِيَايَّةِ لِهَذِهِ الْأَدَوَاتِ، بَلْ يَهْتَمُّ بِ"الْحَالَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ" وَ"الْوُطَيْفِيَّةِ" لَهَا. وَأَعْظَمُ تَأْسِيسٍ لِهَذَا الْمَنْظُورِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَهِيَ آيَةُ تَضَعُ عَلَى عَاتِقِنَا مَسْئُولِيَّةَ هَائِلَةٍ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. فَالْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّةَ "قُدْرَاتٍ"، بَلْ قَضِيَّةُ "مَسْئُولِيَّةٍ".»

«لِنَتَنَاوَلَ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ الْآنَ لِنَرَى كَيْفَ تَكُونُ الْمَسْئُولِيَّةُ فِيهَا. لِنَبْدَأَ بِالسَّمْعِ.»

«قُلْنَا إِنَّ السَّمْعَ هُوَ مَجْرَى التَّعَلُّمِ وَتَلْقَى الْخَطَابَ، وَظَيْفَتُهُ الْأُولَى هِيَ الْأُسْتِقْبَالُ. وَلَكِنَّ الْمَسْئُولِيَّةَ تَقْتَضِي أَنْ لَا يَكُونَ هَذَا الْأُسْتِقْبَالُ سَلْبِيًّا. هُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ "يَصِلَ الصَّوْتُ إِلَى أذْنِكَ" وَبَيْنَ أَنْ

"تُصْغِي" لَهُ. وَهَذَا مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ بِقَسْوَةٍ فِي وَصْفِ الْمُعْرِضِينَ: «لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا». إِنَّهُمْ يَمْتَلِكُونَ الْأَدَاةَ الْوُطَائِفِيَّةَ، فَلَا آذَانَ مَوْجُودَةً وَتَعْمَلُ، وَلَكِنَّهَا "مُعْطَلَّةٌ" وَطِيفِيًّا. إِنَّهَا "آذَانٌ صَمَاءٌ" بِالْإِرَادَةِ.»

سَأَلْتُ لَيْلَى:

«وَكَيْفَ يَحْدُثُ هَذَا الصَّمَمُ الْإِرَادِيُّ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«يَحْدُثُ بِأَشْكَالٍ كَثِيرَةٍ. يَحْدُثُ حِينَ نَخْتَارُ أَنْ نَسْمَعَ فَقَطْ مَا يُوَافِقُ هَوَانَا. وَيَحْدُثُ حِينَ نَنْعَمُ فِي صَاحِبِ الدُّنْيَا وَالْمَلَذَاتِ حَتَّى لَا نَعُودَ قَادِرِينَ عَلَى سَمَاعِ الصُّوْتِ الْهَادِي لِلْحَقِّ فِي دَوَاخِلِنَا. وَيَحْدُثُ حِينَ نَسْمَعُ بِاسْتِخْفَافٍ وَسُخْرِيَّةٍ، لَا يَقْصِدُ الْفَهْمَ. فِي كُلِّ هَذِهِ الْحَالَاتِ، نَكُونُ "مَسْؤُولِينَ" عَنْ تَعْطِيلِ هَذِهِ الْأَدَاةِ الْعَظِيمَةِ. فَلَا اسْتِعْمَالَ الصَّحِيحَ لَهَا هُوَ "الْإِضْغَاءُ الْوَاعِي"، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: «وَهُمْ يَسْمَعُونَ».»

«أَمَّا الْأَدَاةُ الثَّانِيَّةُ، فَهِيَ الْبَصَرُ. وَهِيَ مَجْدَى التَّأَمُّلِ فِي الْأَيَاتِ الْكُونِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ. إِنَّهَا أَدَاةُ الشَّهَادَةِ وَالْإِعْتِبَارِ. وَكَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ السَّمْعِ، فَإِنَّ الْمَسْئُولِيَّةَ فِيهَا هِيَ الْإِتِّفَاقُ مِنْ مُجَرَّدِ "النَّظَرِ" (Looking) إِلَى "الرُّؤْيَى" (Seeing). فَالْقُرْآنُ يَصِفُ الْمُعْرِضِينَ بِقَوْلِهِ: «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا». فَلَا أَعْيُنٌ تَعْمَلُ، وَالصُّورُ تَدْخُلُ إِلَى الشَّكِّيَّةِ، وَلَكِنَّ عَمَلِيَّةَ "الْإِبْصَارِ" - أَيْ تَحْوِيلِ الصُّورَةِ إِلَى مَعْنَى وَعِبْرَةٍ - مُعْطَلَّةٌ.»

قَالَ سَلْمَانُ:

«هَذَا يُشْبِهُ الْفَرْقَ بَيْنَ السَّائِحِ الْعَادِيِّ وَالْفَتَّانِ. قَدْ يَقِفُ كِلَاهُمَا أَمَامَ نَفْسِ الْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ. السَّائِحُ يَلْتَقِطُ صُورَةً سَرِيعَةً وَيُعَادِرُ، لَقَدْ "نَظَرَ". أَمَّا الْفَتَّانُ فَيَجْلِسُ سَاعَاتٍ، "يُبْصِرُ" تَفَاصِيلَ الضَّوْءِ وَالظَّلِّ، وَيَشْعُرُ بِالرُّوحِ الْكَامِنَةِ فِي الْمَشْهَدِ، فَيَحْوِلُ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِلَى لَوْحَةٍ خَالِدَةٍ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَشْبِيهُ دَقِيقٌ يَا سَلْمَانُ. فَالْمُتَعَقِّلُ مَطْلُوبٌ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ "فَتَّانًا" فِي نَظَرِيَّتِهِ لِلْكَوْنِ. أَنْ يَرَى فِي الْإِبِلِ وَالسَّمَاءِ وَالْجِبَالِ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ أَشْيَاءَ، أَنْ يَرَى فِيهَا آثَارَ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ. فَالْإِسْتِعْمَالُ الصَّحِيحُ لِلْبَصَرِ هُوَ تَحْوِيلُ "النَّظَرِ" إِلَى "اَعْتِبَارٍ".»

«وَأَخِيرًا، نَصِلُ إِلَى الْأَدَاةِ الْجَامِعَةِ، الْمَرْكَزِ الَّذِي تَتَجَمَّعُ فِيهِ خُيُوطُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لِتُحَاكَ فِي نَسِيجٍ وَاحِدٍ. وَهِيَ الْأَفِيدَةُ. قُلْنَا إِنَّهَا مَجْرَى التَّفَكُّرِ وَالْمَشَايِرِ وَالْقِيَمِ. إِنَّهَا الْأَدَاةُ الَّتِي تُحَوِّلُ الْمَعْرِفِيَّ وَالْجِسْمِيَّ إِلَى إِيْمَانٍ وَحِكْمَةٍ. وَهِيَ أَيْضًا "مَسْئُولَةٌ".»

«وَكَيْفَ تَكُونُ الْأَفِيدَةُ مُعْظَلَّةً؟ إِنَّهَا تَتَعَطَّلُ حِينَ تَرَفُضُ أَنْ تَقُومَ بِوُظَيفَتِهَا فِي الرِّبْطِ وَالتَّرْكِيبِ. هَذَا هُوَ حَالُ الشَّخْصِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ مَعَارِفِهِ وَقِيَمِهِ. قَدْ يَكُونُ عَالِمًا كَبِيرًا فِي الْفِيزِيَاءِ (مَعْرِفَةٍ)، وَلَكِنَّهُ فِي حَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ ظَالِمٌ وَأَنَانِيٌّ (قِيَمٌ مُنْحَرِفَةٌ). إِنَّ فُؤَادَهُ مُعْظَلٌّ، لِأَنَّهُ عَجَزَ عَنْ رِبْطِ مَا يَعْرِفُهُ مِنْ دَقِيقَةٍ وَنِظَامٍ فِي الْكَوْنِ بِضَرُورَةٍ وَجُودِ الدَّقِيقَةِ وَالنِّظَامِ فِي أَخْلَاقِهِ.»

«وَلِنَعْمَ بِتَمَرِينِنَا التَّطْبِيقِيِّ لِنَرَى كَيْفَ تَتَفَاعَلُ هَذِهِ الْأَدَوَاتُ الثَّلَاثُ مَعًا لِتَحْقِيقِ الْمِيزَانِ. تَأَمَّلُوا مَعِيَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾. كَيْفَ

نُحَلِّلُ هَذِهِ الْأَيَّةَ بِاسْتِخْدَامِ عُدَّتِنَا؟»

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ» هَذِهِ "بَصَائِرٌ" تَأْتِي فِي صُورَةٍ وَحِيٍّ،
أَيَّ كَلَامٍ. فَالْأَدَاةُ الْأُولَى لِتَلْقِيهَا هِيَ السَّمْعُ.»

أَصَافُ خَالِدٌ:

«ثُمَّ تَقُولُ الْأَيَّةَ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾. فَبَعْدَ أَنْ سَمِعَ الْبَصَائِرَ، عَلَيْهِ أَنْ
"يُبْصِرَهَا"، أَيَّ أَنْ يُفْعَلَ بَصَرُهُ الدَّاخِلِيُّ لِيَرَى الْحَقَّ فِيهَا. فَهَذِهِ هِيَ الْأَدَاةُ
الثَّانِيَّةُ.»

وَحَتَمَتِ لَيْلَى:

«وَالنَّتِيجَةُ ﴿فَلْيَنْفِسْ﴾ أَوْ ﴿فَعَلَيْهَا﴾. هَذَا الْقَرَارُ النَّهَائِيُّ بِالِاتِّفَاعِ أَوْ
الْإِعْرَاضِ، وَالشَّعُورُ بِالْظَّمْأَيْنَةِ أَوْ الشَّقَاءِ، هُوَ مَا يَحْدُثُ فِي الْأَدَاةِ الثَّالِثَةِ،
فِي الْأَفْئِدَةِ.»

أَكْمَلَ الْإِمَامُ:

«أَحْسَنْتُمْ جَمِيعًا. لَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ أَنَّ الْعَمَلِيَّةَ مُتَكَامِلَةٌ: سَمْعٌ
يَتَلَقَّى، وَبَصَرٌ يَتَأَمَّلُ وَيُعْتَبِرُ، وَفُؤَادٌ يُفَكِّرُ وَيَشْعُرُ وَيُؤْمِنُ. إِنَّهَا مَلْحَمَةٌ
مُتَنَاغِمَةٌ. وَتُعْطِيلُ أَيَّ أَدَاةٍ مِنْهَا يُفْسِدُ اللَّحْنَ كُلَّهُ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الْعِشْرِينَ:

«أَدَوَاتُ التَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ، وَكُلُّهَا مَسْئُولَةٌ: السَّمْعُ (لِلتَّلَقِّيِّ

وَالْتَّعَلُّمِ)، وَالْأَبْصَارُ (لِلتَّامُّلِ وَالْإِعْتِبَارِ)، وَالْأَفِيدَةُ (لِلتَّفَكُّرِ وَالْقِيَمِ). وَبِتَكَامُلِ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ وَحُسْنِ اسْتِعْمَالِهَا يَكْتُمِلُ مِيزَانُ التَّعَقُّلِ فِي الْإِنْسَانِ.»

سَادَ الصَّمْتُ لَحَظَاتٍ، وَكَانَ الْجَمِيعُ يَتَفَحَّصُ حَالَةَ أَدَوَاتِهِ الْخَاصَّةِ.

ثُمَّ تَكَلَّمَتْ زَيْنَبُ، وَكَانَ فِي صَوْتِهَا نَبْرَةٌ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَرِيطَ كُلَّ الْخُيُوطِ بِبَعْضِهَا:

«شَيْخَنَا، لَقَدْ أَصْبَحَ لَدَيْنَا الْآنَ فَهْمٌ عَمِيقٌ لِأَدَوَاتِ التَّعَقُّلِ. وَقَدْ تَحَدَّثْنَا فِي مَجْلِسٍ سَابِقٍ بِشَكْلِ مُوجَزٍ عَنِ "النَّفْسِ" وَضُرُورَةِ تَرْكِيبِهَا. وَسُؤَالِي الْآنَ يَتَعَلَّقُ بِالْأَثَرِ الرَّجْعِيِّ، إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَدَوَاتُ - السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفِيدَةُ - هِيَ أَدَوَاتُ التَّعَقُّلِ، فَكَيْفَ يُؤَثِّرُ الِاسْتِخْدَامُ الصَّحِيحُ لِهَذَا "التَّعَقُّلِ" عَلَى حَالِ "النَّفْسِ" ذَاتِهَا؟ هَلِ التَّعَقُّلُ السَّلِيمُ يُؤَدِّي بِالضَّرُورَةِ إِلَى "تَرْكِيبَةِ النَّفْسِ"؟ مَا هِيَ الْعَلَاقَةُ الدَّقِيقَةُ بَيْنَ أَنْ تُفَكَّرَ بِشَكْلِ صَحِيحٍ وَأَنْ تَكُونَ إِنْسَانًا أَفْضَلَ؟»

أُبْتَسِمَ الْإِمَامُ.

«لَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى سُؤَالِ الثَّمَرَةِ الْبَاطِنِيَّةِ يَا زَيْنَبُ. فَالتَّعَقُّلُ لَيْسَ مُجَرَّدَ عَمَلِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ أَدَاةٍ لِتَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِهَا. وَكَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ... فَتِلْكَ قِصَّةٌ أُخْرَى.»

الْفَصْلُ 21: صَقْلُ الْمِرْأَةِ

كَانَتْ الْأَجَوَاءُ فِي الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ شَيْئًا مِنَ الْإِشْرَاقِ الْهَادِي. الْحَدِيثُ فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ عَنْ "أَدَوَاتِ التَّعَقُّلِ" كَانَ قَدْ مَنَحَ الطُّلَّابَ إِحْسَاسًا بِالْقُوَّةِ وَالتَّمَكُّنِ، فَهُمْ لَمْ يَعُودُوا مُجَرَّدَ مُتَأَمِّلِينَ فِي خَرِيطَةٍ غَامِضَةٍ، بَلْ أَصْبَحُوا كَحَرَفِيِّينَ يَمْتَلِكُونَ عُدَّةَ عَمَلٍ كَامِلَةٍ. وَكَانَ سُؤَالَ زَيْنَبَ الْأَخِيرُ قَدْ حَوَّلَ الْأُنْتِبَاهَ مِنْ "الْأَدَوَاتِ" إِلَى "الْمَادَّةِ" الَّتِي سَتَعْمَلُ فِيهَا هَذِهِ الْأَدَوَاتُ: "النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ" نَفْسُهَا.

إِسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجَلْسَةَ بِالْبِنَاءِ مُبَاشَرَةً عَلَى سُؤَالِ زَيْنَبَ:

«لَقَدْ وَصَلَتْ بِنَا يَا زَيْنَبُ إِلَى قَلْبِ الْغَايَةِ الْعَمَلِيَّةِ مِنْ رَحَلَتِنَا كُلِّهَا. سَأَلْتُ عَنْ الْعَلَاqَةِ بَيْنَ "التَّعَقُّلِ" وَ"تَرْكِيبَةِ النَّفْسِ". وَالْجَوَابُ يَكْمُنُ فِي أَنَّهَمَا لَيْسَا أَمْرَيْنِ مُنْفَصِلَيْنِ، بَلْ هُمَا وَجْهَانِ لِعَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ. إِنَّ "التَّعَقُّلَ" فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ لَيْسَ مُجَرَّدَ عَمَلِيَّةٍ لِجَمْعِ الْمَعَارِفِ وَتَكْدِيسِهَا، بَلْ هُوَ الْأَدَاةُ الْجَرَّاجِيَّةُ الرَّئِيسَةُ لِإِعْلَاجِ أَمْرَاضِ النَّفْسِ وَتَظْهِيرِهَا وَتَنْمِيطِهَا. إِنَّهُ النُّورُ الَّذِي نُسَلِّطُهُ عَلَى زَوَايَا أَنْفُسِنَا الْمُظْلَمَةِ لِنَكْشِفَ مَا فِيهَا، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي نَسْتَخْدِمُهُ لِنَغْسِلَ مَا عَلِقَ بِهَا مِنْ أَدْرَانٍ.»

قَالَ مُعَاذٌ، مُحَاوِلًا إِيجَادَ مُقَابِلٍ لِلْفِكْرَةِ فِي عَالَمِهِ الْمَأْلُوفِ:

«شَيْخَنَا، هَذِهِ الْفِكْرَةُ - فِكْرَةُ اسْتِخْدَامِ الْفِكْرِ لِتَغْيِيلِ السُّلُوكِ - هِيَ أَسَاسٌ إِحْدَى أَنْجَحَ الْمَدَارِسِ الْعِلَاجِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَهُوَ الْعِلَاجُ الْمَعْرِفِيُّ السُّلُوكِيُّ (CBT). إِنَّهُ يَقُومُ عَلَى فَرَضِيَّةٍ أَنَّ مَشَاعِرَنَا وَسُلُوكِيَّاتِنَا السَّلْبِيَّةَ تَنْتُجُ عَنْ "أَفْكَارٍ" وَ"قَنَاعَاتٍ" خَاطِئَةٍ، وَبِتَصْحِيحِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ (أَيِّ بِشَكْلِ مَنْ التَّعَقُّلِ)، يُمْكِنُنَا تَغْيِيرُ السُّلُوكِ. فَهَلِ "تَرْكِيَّةُ النَّفْسِ" هِيَ الْمُصْطَلَحُ الْإِيمَانِيُّ لِهَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَقَاطَعَكَ مُثْمِرٌ جَدًّا يَا مُعَاذُ، وَيُظْهِرُ كَيْفَ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ تَتَجَلَّى فِي صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ. نَعَمْ، هُنَاكَ تَشَابُهُ كَبِيرٌ فِي الْأَلْبَتَةِ: "غَيَّرْ فِكْرَكَ لِتَغَيِّرْ حَيَاتَكَ". وَلَكِنَّ "تَرْكِيَّةَ النَّفْسِ" الْفَرَايِيَّةَ تَنْطَلِقُ مِنْ أَفْقٍ أَوْسَعٍ وَتَسْعَى إِلَى غَايَةٍ أَبْعَدَ. إِنَّهَا لَا تَهْدِفُ فَقَطْ إِلَى إِزَالَةِ الْقَلْقِ أَوْ الْإِكْتِيَابِ، بَلْ تَهْدِفُ إِلَى تَحْقِيقِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْمُمْكِنِ وَالْفَوْزِ فِي الْحَيَاتَيْنِ. وَهِيَ رَحْلَةٌ ذَاتُ ثَلَاثِ مَرَاجِلَ مُتَدَاخِلَةٍ: التَّظْهِيرُ، ثُمَّ الصَّلَاحُ، ثُمَّ الْغَايَةُ الْكُبْرَى وَهِيَ «الْفَلَاحُ».

«لِنَبْدَأْ بِالْمَرَحَلَةِ الْأُولَى وَالْأَسْقَى، مَرَحَلَةِ "التَّخْلِيَةِ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ". هَذِهِ مَرَحَلَةُ التَّظْهِيرِ.»

«إِنَّ التَّعَقُّلَ، عِنْدَمَا يَعْمَلُ بِشَكْلِ صَاحِحٍ، يُصْبِحُ كَالْتُّورِ الْكَاشِفِ الَّذِي تُسَلِّطُهُ عَلَى غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ مُهْمَلَةٍ. مَاذَا سَتَرَى؟ سَتَرَى الْغُبَارَ وَالْأَوْسَاحَ وَخُيُوطَ الْعَنْكَبُوتِ. وَكَذَلِكَ التَّعَقُّلُ، أَوَّلُ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ أَنْ يَكْشِفَ لَنَا عَنْ "رَجْسِ" النَّفْسِ، عَنْ أَمْرَاضِهَا الْخَفِيَّةِ: الْكِبَرُ وَالْحَسَدُ وَالْبُخْلُ وَالْغَفْلَةُ وَالْهَوَى... وَمَعْرِفَةُ الْمَرَضِ هِيَ نِصْفُ الْعِلَاجِ. فَوَظِيفَةُ التَّعَقُّلِ الْأُولَى فِي التَّرَكِّيَّةِ هِيَ تَشْخِصُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْإِعْتِرَافُ بِوُجُودِهَا. وَهَذَا

هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى الْعَظِيمِ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾. فَعِلَّ "التَّدْصِيقَ" هُوَ أَنْ تَدْسَ هَذِهِ الْأَوْسَاحَ وَتُخْفِيَهَا وَتَتَجَاهَلَهَا، أَمَّا "التَّرْكِيبُ" فَتَبْدَأُ بِإِظْهَارِهَا وَالْإِعْتِرَافِ بِهَا بِهَدَفٍ إِرَازَتِهَا وَتَطْهِيرِ النَّفْسِ مِنْهَا. »

قَالَ خَالِدٌ:

«لَكِنَّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةَ مُؤَلِّمَةٌ. فَمُوجَّهَةٌ الْمَرْءِ لِعُيُوبِهِ أَمْرٌ صَعْبٌ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«صَعْبٌ وَلَكِنَّهُ ضَرُورِيٌّ. فَلَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَبْنِي قَصْرًا جَمِيلًا عَلَى أَرْضٍ مَلِيئَةٍ بِالْفُجَامَةِ وَالْأَشْوَالِ. لَا بَدْءٌ مِنْ تَنْظِيفِ الْأَرْضِ أَوَّلًا. وَهَذَا هُوَ دَوْرُ التَّعَقُّلِ التَّطْهِيرِيِّ: أَنْ يَهَيِّئَ النَّفْسَ لِقَبُولِ الْحَقِّ، بِإِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الْقَلْبِيَّةِ الَّتِي تَحْجُبُ عَنْهُ النُّورَ.»

«فَإِذَا مَا تَمَّتْ عَمَلِيَّةُ التَّنْظِيفِ وَالتَّطْهِيرِ، وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ نَقِيَّةً، تَأْتِي الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ، مَرْحَلَةُ "التَّخْلِيَةِ" وَالْبِنَاءِ وَالْعَرْسِ. وَهِيَ مَرْحَلَةُ الصَّلَاحِ.»

«"الصَّلَاحُ" هُوَ الْوَجْهُ الْإِيجَابِيُّ لِلتَّرْكِيبِ. فَالْتَّعَقُّلُ لَا يَقِفُ عِنْدَ هَذِهِ الْبَاطِلِ، بَلْ يَنْتَقِلُ لِبِنَاءِ الْحَقِّ. إِنَّهُ يَقُومُ السُّلُوكُ وَيَصْحَحُ الْمَعَامَلَاتُ وَفُقُ الْمِيزَانِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ. وَأَخْطَرُ مَا فِي النَّفْسِ الَّتِي لَمْ تَزَكَّ أَنْ تَعْقِلَهَا الْمُنْخَرِفَ قَدْ يُصَوِّرُ لَهَا فَسَادَهَا صِلَاحًا. وَهَذَا هُوَ أَصْعَبُ الْأَمْرَاضِ عِلَاجًا، كَمَا نَصَفَ آيَةُ الْبَقَرَةِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. إِنَّ تَعَقُّلَهُمْ، الَّذِي أَفْسَدَهُ الْهَوَى وَالْكِبَرُ، قَدْ أَعْمَاهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ حَقِيقَةِ

أَفْعَالِهِمْ.»

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«وَهَذَا مَا نَرَاهُ فِي الْوَاقِعِ. فَالظَّالِمُ قَدْ يُقْنِعُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ ظَلَمَهُ
ضَرُورِيٌّ لِإِقَامَةِ النِّظَامِ، وَالْمُحْتَالَ يُقْنِعُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ أُخْتِيَالُهُ مُجَرَّدُ ذَكَاةٍ
وَشَطَارَةٍ. كُلُّ مِنْهُمْ بَنَى مَنْظُومَةً فِكْرِيَّةً لِتَبْرِيرِ فَسَادِهِ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«بِالصَّبْرِ. أَمَّا الْتَعَقُّلُ الْمُرَكِّي، فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مِيزَانًا لِلصَّلَاحِ
فِي الْحَيَاةِ. يَجْعَلُهُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ، عَادِلًا فِي حُكْمِهِ، رَحِيمًا فِي مُعَامَلَتِهِ،
نَافِعًا لِمُجْتَمَعِهِ. إِنَّهُ يُحَوِّلُ الْقِيَمَ الْبَاطِنِيَّةَ إِلَى سُلُوكٍ ظَاهِرٍ مُسْتَقِيمٍ.»

«فَإِذَا مَا ظَهَرَ الْمَرْءُ بَاطِنُهُ، وَأَصْلَحَ ظَاهِرُهُ، فَإِنَّهُ يَجْنِي الثَّمَرَةَ
النِّهَائِيَّةَ وَالْغَايَةَ الْكُبْرَى مِنْ رِحْلَةِ التَّرَكِّيَّةِ كُلِّهَا. هَذِهِ الثَّمَرَةُ هِيَ الْفَلَاحُ.»

«"الْفَلَاحُ" كَلِمَةٌ قُرْآنِيَّةٌ فَرِيدَةٌ. أَصْلُهَا مِنَ الْفَلَاحِ الَّذِي "يَفْلَحُ"
الْأَرْضَ، أَيْ يَشْقِيهَا لِيَزْرَعَهَا وَيَحْصِدَهَا. فَالْفَلَاحُ هُوَ "الْحَصَادُ النَّهَائِيُّ" لِكُلِّ
ذَلِكَ الْجُهْدِ. إِنَّهُ النَّجَاحُ الْكَامِلُ وَالشَّامِلُ. لَيْسَ مُجَرَّدَ نَجَاحِ مَادِيٍّ، بَلْ هُوَ
نَجَاحٌ فِي تَحْقِيقِ الْإِنْسَانِ لِغَايَةِ وُجُودِهِ. وَلِعِظَمِ هَذَا الْمَقَامِ، يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِ
سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ الْإِعْلَانِ الْخَاسِمِ الْقَاطِعِ: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ». إِنَّهُ
حُكْمٌ نَافِذٌ بِالنَّجَاحِ لِمَنْ حَقَّقَ شُرُوطَ الْإِيمَانِ، وَعَلَى رَأْسِهَا تَرْكِيَّةُ التَّفْسِيرِ.»

سَأَلَتْ لَيْلَى:

«هَلِ الْفَلَاحُ فِي الْآخِرَةِ فَقَطْ؟»

أَجَابُ الْإِمَامُ:

«بَلْ هُوَ نَجَاحٌ يَبْدَأُ فِي الدُّنْيَا وَيَكْتُمِلُ فِي الْآخِرَةِ. فَالْمُفْلِحُ يَعِيشُ فِي الدُّنْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً، مُظْمِئِينَ الْقَلْبَ، مُنْشَرِّحَ الصَّدْرِ، نَافِعًا لِحَلْقِ اللَّهِ، مُحَقِّقًا لِدَايَتِهِ. هَذَا نَجَاحٌ دُنْيَوِيٌّ حَقِيقِيٌّ. ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْآخِرَةِ لِيَجْبِيَ الْخَصَادَ الْأَكْبَرَ. فَالْفَلَاحُ هُوَ تَنْوِيجٌ لِعُمْرٍ قَاصِيٍّ فِي التَّطْهِيرِ وَالصَّلَاحِ.»

«وَلِنَقُمْ بِتَمَرِينِنَا التَّطْبِيقِيِّ عَلَى سُورَةِ الشَّمْسِ، فَهِيَ تَقَدَّمُ هَذِهِ الْمُعَادَلَةُ بِأَفْوَى صُورَةٍ. بَعْدَ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ أَحَدَ عَشَرَ قَسَمًا مُتتَالِيًا - وَهُوَ أَمْرٌ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ - لِيَهَيَّيَ الْوُجْدَانَ لِأَهَمِّ حَقِيقَةٍ فِي الْوُجُودِ النَّفْسِيِّ، تَأْتِي الْقَضِيَّةُ الْمُخَوَّرِيَّةُ: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». ثُمَّ تَأْتِي النَّتِيجَةُ الْحَتْمِيَّةُ، الْقَانُونُ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا». فَقَدْ جَعَلَتِ السُّورَةُ تَرْكِيبَ النَّفْسِ هِيَ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ لِلْفَلَاحِ، وَتَدَسَّيْتُهَا هِيَ الطَّرِيقَ الْحَتْمِيَّ لِلْخَيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الْخَادِيَّةَ وَالْعِشْرِينَ:

«أَنْزَلُ التَّعَقُّلَ فِي تَرْكِيبِ النَّفْسِ ثَلَاثَةً مُتَدَرِّجَةً: التَّطْهِيرُ (وَهُوَ تَخْلِيَّةُ النَّفْسِ مِنَ الرَّجْسِ)، وَالصَّلَاحُ (وَهُوَ تَقْوِيمُ السُّلُوكِ وَالتَّخْلِيَّةُ بِالْفَضَائِلِ)، وَالْفَلَاحُ (وَهُوَ التَّنْوِيجُ بِالنَّجَاحِ فِي الدَّارَيْنِ). وَبِهَذِهِ الرِّحْلَةِ يُصْبِحُ التَّعَقُّلُ مَسَارًا يُضْلِحُ الْبَاطِنَ وَالظَّاهِرَ وَالْمَصِيرَ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَ الطُّلَّابُ يَتَأَمَّلُونَ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْعُمْرِيَّةِ الشَّاقَّةِ وَالْجَمِيلَةِ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ سَلْمَانُ الرَّوَائِي، وَكَانَتْهُ يَفْكُرُ بِصَوْتٍ عَالٍ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ - رَحْلَةُ التَّرْكِيَّةِ وَالْفَلَاحِ - تَبْدُو رَحْلَةً فَرْدِيَّةً بِالْأَسَاسِ. كُلُّ إِنْسَانٍ يَخُوضُهَا بِمُفَرِّدِهِ. وَلَكِنَّا لَا نَعِيشُ بِمُفَرِّدِنَا. نَحْنُ نَعِيشُ فِي أَسْرٍ، وَأَحْبَاءٍ، وَمُدُنٍ. فَسُؤَالِي هُوَ: مَاذَا يَحْدُثُ عِنْدَمَا يَنْجَحُ عَدَدٌ مِنَ الْأَفْرَادِ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ؟ مَا هُوَ أَثَرُ هَذَا التَّعَقُّلِ وَهَذِهِ التَّرْكِيَّةِ عَلَى الْمَجْمُوعِ؟ كَيْفَ يَنْتَقِلُ "صَلَاحُ" الْفَرْدِ لِيُصَيِّحَ "إِصْلَاحًا" فِي الْمَجْتَمَعِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ. «لَقَدْ فَتَحْتَ الْبَابَ لِنُخْرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الْفَرْدِ إِلَى دَائِرَةِ الْأُمَّةِ يَا سَلْمَانُ. وَهَذِهِ... هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ.»

الفصل 22: التَّبَيَّنُ الْمَرْصُوصُ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ أُتْسَاعًا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلُ. فِي الْجَلَسَاتِ الْمَاضِيَةِ، كَانَتْ رَحْلَتُهُمْ غَوَّصًا فِي الْأَعْمَاقِ، فِي الْجُغْرَافِيَا الْمُعَقَّدَةِ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ. أَمَّا اللَّيْلَةُ، فَقَدْ كَانَ سُؤَالُ سَلْمَانَ الْأَخِيرِ قَدْ حَظَمَ الْجُدْرَانَ بَيْنَ الدَّاجِلِ وَالْخَارِجِ، وَدَعَاهُمْ لِيَرَوْا كَيْفَ تَفِيضُ ثِمَارُ التَّرَكِّيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ لِيَتَرَوِيَ تَرْبَةُ الْمُجْتَمَعِ بِأَكْمَلِهِ. كَانَ الْجَمِيعُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُمْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ هُمْ "صَلَاحٍ" الْفَرْدِ إِلَى هُمْ "إِصْلَاحٍ" الْعَالَمِ.

إِسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ بِالْبِنَاءِ عَلَى سُؤَالِ سَلْمَانَ:

«لَقَدْ أَخَذْتَنَا بِسُؤَالِكَ يَا سَلْمَانُ مِنَ الْمَلْحَمَةِ الشَّخْصِيَّةِ إِلَى الْمَلْحَمَةِ الْجَمَاعِيَّةِ. سَأَلْتَ عَمَّا يَحْدُثُ حِينَ تَتَحَوَّلُ "تَرْكِيَّةُ النَّفْسِ" مِنْ فِعْلٍ فَرْدِيٍّ إِلَى ظَاهِرَةٍ جَمَاعِيَّةٍ. وَالْجَوَابُ يَكْمُنُ فِي أَنَّ الْأَغَايَةَ مِنْ صَفَلِ الْمَرْأَةِ الْفَرْدِيَّةِ لِيَبْسُتْ أَنْ يَنْعَزِلَ صَاحِبُهَا لِيَتَأَمَّلَ فِيهَا صَفَاءَ نَفْسِهِ، بَلْ أَنْ يَخْرُجَ بِهَا إِلَى الْعَالَمِ لِيَتَعَكَّسَ الثُّورَ عَلَى مَنْ حَوْلَهُ. إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَبْنِي قَدِيسِينَ مُنْعَزِلِينَ فِي عَالَمٍ فَاسِدٍ، بَلْ يَبْنِي "أَفْرَادًا صَالِحِينَ" لِيَكُونُوا هُمْ أَلْبِنَاتِ الْقُوَّةِ فِي تَشْيِيدِ "مُجْتَمَعٍ صَالِحٍ". فَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ (ص): "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا".»

قَالَ مُعَاذٌ، وَكَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ نَقْطَةَ الْبِدَايَةِ فِي هَذَا النَّقَاشِ

الْوَاسِعِ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ بِنَاءَ "الْمُجْتَمَعِ الصَّالِحِ" أَوْ "الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ" هُوَ أَلْهَمُ الْأَكْبَرُ لِلْفَلَسَفَةِ السِّيَاسِيَّةِ مُنْذُ "جُمْهُورِيَّةِ" أَفْلَاطُونٍ، مُرُورًا بِ"الْعَقْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ" عِنْدَ رُوسُو، وَوُصُولًا إِلَى النُّظَرِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ كَاللِّبَرَالِيَّةِ وَالْإِشْتِرَاكِيَّةِ. كُلُّ هَذِهِ الْأَنْسَاقِ تُحَاوِلُ أَنْ تَصْغِ مَبَادِيَّ عَقْلَانِيَّةٍ لِتَنْظِيمِ الْمُجْتَمَعِ بِهَدَفٍ تَحْقِيقِ الْعَدَالَةِ وَالْإِزْدِهَارِ. فَهَلْ يُقَدِّمُ الْقُرْآنُ نَظْرِيَّةً سِيَاسِيَّةً مُنَافِسَةً، أَمْ أَنَّ طَرَحَهُ مُخْتَلِفٌ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«طَرَحُهُ يَخْتَلِفُ فِي الْمَنْطَلَقِ وَالْأُفُقِ. فَالْقُرْآنُ لَا يُقَدِّمُ لَنَا "نِظَامًا" سِيَاسِيًّا" مُحَدَّدًا بِتَفَاصِيلِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ، فَهَذَا مَتْرُوكٌ لِاجْتِهَادِ النَّاسِ وَتَعَقُّلِهِمْ بِمَا يُنَاسِبُ زَمَانَهُمْ وَمَكَانَهُمْ. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، يُقَدِّمُ لَنَا مَا هُوَ أَهَمُّ وَآتَبْتُ: إِنَّهُ يُقَدِّمُ "الْأُسُسَ الْقِيَمِيَّةَ وَالْأَخْلَاقِيَّةَ" الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهَا أَيُّ مُجْتَمَعٍ صَالِحٍ مَهْمَا كَانَ شَكْلُهُ. وَهَذِهِ الْأُسُسُ هِيَ الْآثَارُ الْجَمَاعِيَّةُ لِلتَّعَقُّلِ. وَهِيَ، كَمَا هِيَ الْحَالُ مَعَ مَقَاصِدِ الْفَرْدِ، تَتِمَثَّلُ فِي ثَلَاثِيَّةٍ عَظِيمَةٍ: الْعَدَالَةُ وَالتَّعَاوُنُ وَالْعِمَارَةُ.»

«لِنَبْدَأُ بِالْأَسَاسِ الَّذِي لَا يَقُومُ أَيُّ بُنْيَانٍ بِدُونِهِ: الْعَدَالَةُ.»

«قَبْلَ أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنِ التَّضَامُنِ أَوْ التَّمَاءِ أَوْ الْإِزْدِهَارِ، يَجِبُ أَنْ نُؤَسِّسَ لِلْقَاعِدَةِ الصُّلْبَةِ الَّتِي تَمْنَعُ الْبُنْيَانَ مِنَ الْإِنْهِيَارِ. وَلَا قَاعِدَةَ لِمُجْتَمَعٍ سَلِيمٍ إِلَّا "الْعَدْلُ". إِنَّهُ أَصْلُ الْمُجْتَمَعِ الْمُتَعَقِّلِ. وَهُوَ يَغْنِي وَضْعَ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الصَّحِيحِ، وَإِعْطَاءَ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَرَفْعَ الظُّلْمِ بِكُلِّ أَشْكَالِهِ. وَلِأَنَّهُ الْأَصْلُ، فَقَدْ جَاءَ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ بِهِ قَاطِعًا وَشَامِلًا فِي آيَةٍ هِيَ مِنْ أَجْمَعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى

وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ».

إِلْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى زَيْنَبٍ وَقَالَ:

«أَنْتِ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْقَانُونِ يَا زَيْنَبُ. فَكَيْفَ تَرَيْنَ أَثَرَ "الْتَّعَقُّلِ" الْجَمَاعِيِّ فِي تَحْقِيقِ "الْعَدَالَةِ"؟»

قَالَتْ زَيْنَبٌ وَقَدْ وَجَدَتْ نَفْسَهَا فِي صَمِيمٍ إِخْتِصَاصِهَا:

«أَرَى أَنَّ الْعَلَاقَةَ مُبَاشِرَةً وَخَمِيَّةً. فَ"الْمُجْتَمَعُ الْمُتَعَقِّلُ" هُوَ الْمُجْتَمَعُ الَّذِي يُدْرِكُ أَنَّ الْقَوَانِينَ وَالْأَنْظِمَةَ يَجِبُ أَنْ لَا تَكُونَ مُجَرَّدَ آدَاءٍ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْأَقْوَى، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَجَسُّدًا لِمِيزَانِ الْحَقِّ. إِنَّهُ الْمُجْتَمَعُ الَّذِي يَسْتَخْدِمُ عَقْلَهُ الْجَمْعِيَّ لَوْضَعِ تَشْرِيعَاتٍ تَحْمِي الضَّعِيفَ، وَتُحَافِظُ عَلَى الْحُقُوقِ، وَتَمْنَعُ الْأَسْتِغْلَالَ، وَتُوزَعُ الثَّرْوَةُ بِشَكْلِ عَادِلٍ. وَتَارِيخُنَا الْفِقْهِيُّ مَلِئٌ بِالْأَمْثِلَةِ عَلَى هَذَا الْتَّعَقُّلِ الْعَادِلِ، كِنِظَامِ "الْحِسْبَةِ" لِمُرَاقَبَةِ الْأَسْوَاقِ، وَالنِّظْمَةِ "الْأَوْقَافِ" لِتَحْقِيقِ التَّنْمِيَةِ الْمُسْتَدَامَةِ.»

عَقَّبَ الْإِمَامُ:

«أَحْسَنْتِ. وَلَا حِطِي أَنَّ الْآيَةَ لَمْ تَقِفْ عِنْدَ "الْعَدْلِ"، بَلْ أَرَدَفْتَهُ بِ"الْإِحْسَانِ". وَهَذِهِ قَفْرَةٌ نَوْعِيَّةٌ. فَ"الْعَدْلُ" هُوَ الْحَدُّ الْأَدْنَى، هُوَ إِعْطَاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. أَمَّا "الْإِحْسَانُ"، فَهُوَ الْحَدُّ الْأَعْلَى، هُوَ أَنْ تُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ الْحَقِّ، أَنْ تَتَنَازَلَ، وَتُسَامِحَ، وَتُؤَثِّرَ غَيْرَكَ عَلَى نَفْسِكَ. الْمُجْتَمَعُ الْمُتَعَقِّلُ حَقًّا لَيْسَ مُجْتَمَعًا "عَادِلًا" فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ أَيْضًا مُجْتَمَعٌ "مُحْسِنٌ" وَمُتَرَاخِمٌ.»

«فَإِذَا وَضِعَ أَسَاسُ الْعَدْلِ الْمَتِينُ، وَزَيَّنَ بِجَمَالِ الْإِحْسَانِ، يَأْتِي

الْأَثَرُ الثَّانِي لِلتَّعَقُّلِ الْجَمَاعِيِّ، وَهُوَ مَا يَرِبُطُ اللَّبَنَاتِ بَبَعْضِهَا لِيَجْعَلَهَا بُنْيَانًا مَرْصُوصًا. إِنَّهُ التَّعَاوُنُ.»

«التَّعَاوُنُ» هُوَ الَّذِي يُحَوِّلُ الْأَفْرَادَ الصَّالِحِينَ مِنْ مُجَرَّدِ جُزُرٍ مُنْعَزَلَةٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَى قُوَّةٍ جَمَاعِيَّةٍ فَاعِلَةٍ وَمُؤَثِّرَةٍ. وَلَكِنَّ التَّعَقُّلَ الْفَرَادِيَّ يَضَعُ لِهَذَا التَّعَاوُنِ بُوصْلَةً وَاتِّجَاهًا. فَالْفَرَادُ لَا يَدْعُو إِلَى مُجَرَّدِ "التَّعَاوُنِ"، فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الشَّرِّ أَيْضًا. بَلْ يَضَعُ مِيزَانًا دَقِيقًا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ».

إِلْتَفَتَ الْإِمَامُ إِلَى لَيْلَى:

«أَنْتِ تَعِيشِينَ فِي قَلْبِ الْمُجْتَمَعِ الْحَيِّ يَا لَيْلَى. كَيْفَ تَرَيْنَ هَذَا الْمِيزَانَ يَتَجَلَّى فِي الْوَاقِعِ؟»

قَالَتْ لَيْلَى وَكَانَتْهَا تَسْتَحْضِرُ صُورًا مِنْ حَيَّهَا:

«أَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ. أَرَى "التَّعَاوُنَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى" حِينَ يَتَّفِقُ الْجَبِرَانُ عَلَى تَنْظِيفِ الشَّارِعِ، أَوْ جَمْعِ أَلْمَالِ لِمُسَاعَدَةِ أُسْرَةٍ مُحْتَاجَةٍ، أَوْ تَنْظِيمِ دُرُوسٍ لِلْأَطْفَالِ. هَذِهِ أَفْعَالٌ صَغِيرَةٌ لَكِنَّهَا تَبْنِي الثَّقَةَ وَالْمَحَبَّةَ وَتَجْعَلُ الْحَيَّ مَكَانًا أَفْضَلَ. وَأَرَى "التَّعَاوُنَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" حِينَ يَتَجَمَّعُ بَعْضُ الشَّبَابِ لِإِيْدَاءِ أَحَدٍ، أَوْ حِينَ يَشْتَرِكُ الْإِنْسَانُ فِي نَشْرِ شَائِعَةٍ كَاذِبَةٍ تُدْمِرُ سُمْعَةَ إِنْسَانٍ. هَذَا أَيْضًا تَعَاوُنٌ، لَكِنَّهُ تَعَاوُنٌ يَهْدِمُ.»

أَكْمَلَ الْإِمَامُ:

«تَمَامًا. فَالْمُجْتَمَعُ الْمُتَعَقِّلُ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ فِيهِ أَفْرَادُهُ طَاقَاتِهِمُ الْجَمَاعِيَّةَ فِي اتِّجَاهِ الْإِنْبَاءِ وَالتَّكَافُلِ وَالتَّضَامُنِ، وَيُحَارِبُ كُلَّ أَشْكَالِ

الْتَّعَاوُنُ عَلَى الْهَدْمِ وَالْفَسَادِ. هَذَا الْتَّعَاوُنُ هُوَ الْأَصْقُ الْإِجْتِمَاعِيُّ الَّذِي يَحْمِي الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْتَّفَكِّكِ وَالْإِنْهْيَارِ.»

«فَإِذَا قَامَ الْمُجْتَمَعُ عَلَى أُسَاسٍ مِنَ "الْعَدْلِ"، وَتَرَابَطَ أَفْرَادُهُ بِرِبَاطِ "الْتَّعَاوُنِ" الَّتِي، فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَى الْأَثَرِ الْجَمَاعِيِّ الثَّالِثِ وَالْأَشْمَلِ، الْغَايَةِ الْحَضَارِيَّةِ الْكُبْرَى لِلْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى الْأَرْضِ. وَهِيَ الْعِمَارَةُ.»

«وَقَدْ مَرَّ بِنَا هَذَا الْمُصْطَلَحُ حِينَ تَحَدَّثْنَا عَنْ مَقَاصِدِ الْفَرْدِ، وَلَكِنَّهُ يَعُودُ هُنَا كَغَايَةٍ لِلْمَجْمُوعِ. إِنَّهُ الْوَاجِبُ الْأَعْظَمُ الَّذِي أَنَاظُهُ اللَّهُ بِالْبَشَرِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَغْمِرُكُمْ فِيهَا﴾. إِنَّهَا مَهْمَةٌ تَحْوِيلِ الْأَرْضِ إِلَى مَكَانٍ أَفْضَلَ لِلْعِيشِ، لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فَقَطْ، بَلْ لِكُلِّ الْكَائِنَاتِ. "الْعِمَارَةُ" هِيَ النِّقِیْضُ الْكَامِلُ لـ "الْفَسَادِ". إِنَّهَا الْبِنَاءُ الْمُسْتَدَامُ، وَالْتَّنْمِيَّةُ الرَّاشِدَةُ، وَالْإِزْدِهَارُ الْقَائِمُ عَلَى الْحَقِّ.»

«وَلِنَقُمُ بِتَمْرِينِنَا الَّتَطْبِيقِيَّ عَلَى سُورَةِ الْحَدِيدِ، فَهِيَ تُقَدِّمُ نَمُودَجًا مُتَكَامِلًا لِلْمُجْتَمَعِ الَّتَتَّعَقَّلِ. إِنَّهَا تُحَدِّدُ الْأُسُسَ بوضوح. أَمَّا الْعَدَالَةُ، فَتَقُولُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. فَالْغَايَةُ الْكُبْرَى مِنَ الرِّسَالَاتِ هِيَ أَنْ يُقِيمَ النَّاسُ الْعَدْلَ بِنَفْسِهِمْ. وَأَمَّا الْتَّعَاوُنُ، فَتَتَجَلَّى الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ فِي الْحَثِ الَّتْمَتَكَّرِ عَلَى "الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وَهُوَ أَعْلَى أَشْكَالِ الَّتَضَامِنِ الْإِجْتِمَاعِيِّ. وَأَمَّا الْعِمَارَةُ، فَهِيَ الْغَايَةُ النِّهَايَّةُ الَّتَمَثِّلُهُ فِي السَّغْيِ لِنَيْلِ "نُورِ" اللَّهِ وَجَنَّتِهِ، وَهُوَ مَا يُؤَدِّي إِلَى إِقَامَةِ حَيَاةٍ مُزْدَهَرَةٍ عَلَى الْأَرْضِ كَظِلِّ لِحَنَةِ السَّمَاءِ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ:

«أَثَرُ الَّتَتَّعَقُّلِ فِي الْمُجْتَمَعِ ثَلَاثَةٌ مُتَرَاتِبَةٌ: الْعَدَالَةُ (وَهِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي يُثَبِّتُ الَّتَمِيزَانَ)، وَالْتَّعَاوُنُ (وَهُوَ الْبِنَاءُ الَّذِي يُفَعِّلُ الَّتَكَافُلَ)، وَالْعِمَارَةُ

(وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي تُحَقَّقُ التَّنْمِيَّةَ وَالصَّلَاحَ). وَبِهَذَا الثَّلَاوِثِ يَصِيرُ الْمُجْتَمَعُ مُتَعَقِّلًا، مُتَزَنًا، وَمُتَجَدِّدًا.»

سَادَ صُمْتُ عَمِيقٌ. كَانَتِ الصُّورَةُ الَّتِي رُسِمَتْ أَمَامَهُمْ عَظِيمَةً وَمُلْهِمَةً، صُورَةُ مُجْتَمَعٍ يَعْمَلُ فِيهِ الْأَفْرَادُ كَأَعْضَاءٍ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ، يَسْعَوْنَ لِغَايَاتٍ سَامِيَةٍ.

وَكَانَ مُعَادٌ، الَّذِي بَقِيَ صَامِتًا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، هُوَ مَنْ طَرَحَ السُّؤَالَ الَّذِي كَانَ يَدُورُ فِي عَقْلِهِ كَمُمَثِّلٍ لِلْفِكْرِ الْحَدَائِثِيِّ. قَالَ بِبُطْءٍ وَهُوَ يَخْتَارُ كَلِمَاتِهِ بِعِنَايَةٍ:

«شَيْخَنَا، هَذِهِالرُّؤْيَةُ لِمُجْتَمَعٍ قَائِمٍ عَلَى الْعَدْلِ وَالتَّعَاوُنِ وَغَايَةِ مُشْتَرَكَةٍ هِيَ رُؤْيَةٌ قَوِيَّةٌ. لَكِنَّهَا تَبْدُو أَيْضًا مُنَظَّمَةً لِلْغَايَةِ، وَرَبَّمَا ذَاتَ طَابَعٍ جَمَاعِيِّ قَوِيٍّ. فِي الْفِكْرِ السِّيَاسِيِّ الْحَدِيثِ، الْقِيَمَةُ الْعُلْيَا الَّتِي تُقَاسُ عَلَيْهَا كُلُّ الْأَنْظَمَةِ هِيَ "حُرِّيَّةُ الْفَرْدِ". حُرِّيَّتُهُ فِي اخْتِيَارِ مَسَارِ حَيَاتِهِ، وَمُعْتَقَدَاتِهِ، وَقِيَمِهِ الْخَاصَّةِ. فَكَيْفَ تَتَوَازَنُ "حُرِّيَّةُ" الْفَرْدِ هَذِهِ مَعَ فِكْرَةِ مُجْتَمَعٍ مُتَعَقِّلٍ يَسِيرُ بِشَكْلِ جَمَاعِيٍّ نَحْوَ أَهْدَافٍ مُحَدَّدَةٍ؟ أَلَيْسَ هُنَاكَ خَظَرٌ مِّنْ أَنْ يَقْمَعَ "الْمُجْتَمَعُ الصَّالِحُ" الْفَرْدَ الْمُخْتَلِفَ بِحُجَّةِ الْحِفَاطِ عَلَى النَّظَامِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

«لَقَدْ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى أَحَدِ أَهَمِّ أَسْئَلَةِ الْعَصْرِ يَا مُعَادُ. وَهُوَ السُّؤَالُ عَنِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ "الْتَّعَقُّلِ" وَ"الْحُرِّيَّةِ". وَهَذِهِ... هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ.»

الْفَصْلُ 23: أَمَانَةُ الْإِخْتِيَارِ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ مُسْبَعَةً بِنِّيَارٍ خَفِيٍّ مِنَ التَّوْتُرِ الْفِكْرِيِّ. لَقَدْ تَرَكْتَهُمْ جَلْسَتَهُمْ الْأَخِيرَةَ أَمَامَ صُورَةٍ عَظِيمَةٍ لِمُجْتَمَعٍ مُتَنَاعِمٍ، وَلَكِنَّ سُؤَالَ مُعَاذٍ الْأَخِيرَ كَانَ قَدْ أَلْفَى حَجَرًا فِي مِيَاهِ ذَلِكَ الْإِنْسِجَامِ الرَّاكِدَةِ. سُؤَالَ "الْحُرِّيَّةِ"، الْكَلِمَةُ الَّتِي أَشْعَلَتْ التُّورَاتِ، وَبَنَتْ الْفَلَسَفَاتِ، وَلَا تَرَالُ تُحَرِّكُ أَعْمَقَ الْأَشْوَاقِ وَالْمَخَاوِفِ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ. كَيْفَ يُمَكِّنُ الْجَمْعُ بَيْنَ حُرِّيَّةِ الْفَرْدِ الْمُطْلَقَةِ وَوُجُودِ نِظَامٍ قِيَمِيٍّ مُوجِّهٍِ؟

اسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ بِنَظَرَةٍ عَمِيقَةٍ إِلَى مُعَاذٍ، وَقَالَ:

«لَقَدْ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى قَلْبِ الْعَصْرِ يَا مُعَاذُ. سُؤَالَ الْحُرِّيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْكُلِّ الْجَمَاعِيِّ، خَوْفُكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ "الْمُجْتَمَعُ الصَّالِحُ" قَمْعِيًّا لِلْفَرْدِ هُوَ خَوْفٌ مَشْرُوعٌ، لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ. وَلَكِنَّ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ يَطْرُحُ عَلَيْنَا مُعَادِلَةَ مُخْتَلِفَةً وَتَوْرِيَّةً: إِنَّهُ لَا يَرَى الْحُرِّيَّةَ نَقِيضًا لِلتَّعَقُّلِ، وَلَا التَّعَقُّلَ قَاتِلًا لِلْحُرِّيَّةِ. بَلْ يَرَاهُمَا مُتَلَازِمَيْنِ لَا يَنْفَصِلَانِ. فَيَقُولُ لَنَا قَوْلًا عَجِيبًا: لَا يُمَكِّنُ لِتَعَقُّلٍ حَقِيقِيٍّ أَنْ يُوجَدَ دُونَ حُرِّيَّةٍ أَصِيلَةٍ، وَلَا يُمَكِّنُ لِحُرِّيَّةٍ أَصِيلَةٍ أَنْ تُوجَدَ دُونَ تَعَقُّلٍ مُسْتَنِيرٍ.»

أَجَابَ مُعَاذٌ بِسُرْعَةٍ وَحَمَاسٍ:

«لَكِنَّ يَا شَيْخَنَا، يَجِبُ أَنْ نُحَدِّدَ أَوَّلًا عَنْ أَيِّ "حُرِّيَّةٍ" نَتَحَدَّثُ. التَّعْرِيفُ الْأَكْثَرُ قُبُولًا لَهَا فِي الْفِكْرِ اللَّيْبِرَالِيِّ هُوَ "الْحُرِّيَّةُ السَّلْبِيَّةُ"، أَيِ حُرِّيَّةِ الْفَرْدِ "مِنْ" التَّدَخُّلِ الْخَارِجِيِّ، حَقِّ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَخْتَارَ قِيَمَهُ وَأَهْدَافَهُ وَأَسْلُوبَ حَيَاتِهِ دُونَ أَيِّ إِكْرَاهٍ، سِوَاءٍ مِنَ الدَّوْلَةِ أَوْ مِنَ الْمُجْتَمَعِ، بِشَرْطِ

وَاجِدٌ وَهُوَ "مَبْدَأُ الصَّرَرِ": أَنْ لَا يُؤْذِي حُرِّيَّاتِ الْآخَرِينَ. فَإِنَّ مَنْطُومَةَ تَفْرِضُ قِيَمًا مُسَبَّقَةً، حَتَّى لَوْ كَانَتْ إِيْمَانِيَّةً، فَهِيَ بِالتَّعْرِيفِ تَنْتَقِصُ مِنْ هَذِهِ الْحُرِّيَّةِ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«طَرَحْتَ يُسَخِّصُ الْمَنْظُورَ الْحَدَائِثَ بِدِقَّةٍ. وَلِنَرَى كَيْفَ يَتَقَاطَعُ الْمَنْظُورُ الْقُرْآنِيُّ مَعَهُ وَكَيْفَ يَفْتَرِقُ عَنْهُ. إِنَّ الرُّكْنَ الْأَوَّلَ فِي بِنَاءِ "الْحُرِّيَّةِ" فِي الْقُرْآنِ هُوَ مَا أَسَمَاهُ الْفُقَهَاءُ "أَهْلِيَّةَ التَّكْلِيفِ"، وَهُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ مَقَامَ الْإِخْتِيَارِ.»

«إِنَّ الْقُرْآنَ يُؤَسِّسُ لِحُرِّيَّةِ الْإِخْتِيَارِ الْبَشَرِيِّ عَلَى أَقْوَى الْأُسُسِ وَأَوْصَحِهَا، وَيَجْعَلُهَا فِي أَخْطَرِ قَضِيَّةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، قَضِيَّةِ الْإِيْمَانِ وَالْكَفْرِ. تَأَمَّلُوا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَاصِلَةَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ». هَذَا إِعْلَانُ إِلَهِيٍّ صَرِيحٌ بِتَفْوِيضِ الْقَرَارِ الْأَعْظَمِ لِلْإِرَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْحُرَّةِ. لَا إِكْرَاهَ، لَا إِجْبَارَ. الْحَقُّ قَدْ بَيَّنَّ، وَالطَّرِيقُ قَدْ وُضِّحَ، وَالْقَرَارُ لَكَ.»

قَالَ أَرِسْطُو بِنَرُو:

«لَكِنْ يَا شَيْخَنَا، هَذِهِ هِيَ الْمُعْضِلَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ الْأَزَلِيَّةُ: مُعْضِلَةُ الْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارِ. هَلْ "مَشِيئَتُنَا" هَذِهِ حَقِيقِيَّةٌ وَمُسْتَقْلَّةٌ، أَمْ أَنَّهَا مُجَرَّدٌ وَهْمٌ، وَأَنَّ خِيَارَاتِنَا مُحَدَّدَةٌ سَلَفًا بِسِلْسِلَةٍ لَا نِهَائِيَّةٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْقَبْلِيَّةِ، سَوَاءً كَانَتْ عِلْمُ اللَّهِ الْأَزَلِيَّ أَوْ قَوَانِينُ الْفِيزِيَاءِ الْحَتْمِيَّةِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«إِنَّ التَّبَيَّنَ الْقُرْآنِيَّ لَا يَخُوضُ فِي الْجَدَلِ الْمَجَرَّدِ حَوْلَ الْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارِ، لِأَنَّهُ سُؤَالٌ لَا يُمكنُ لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يَحْسِمَهُ. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُؤَسِّسُ لِمَا هُوَ أَهَمُّ: لِـ"وَأَقِيعَ التَّكْلِيفُ". إِنَّهُ يَتَعَامَلُ مَعَنَا عَلَى أَنَّ اخْتِيَارَنَا حَقِيقِيٌّ، وَفَعَلْنَا مُؤَثَّرٌ، وَإِرَادَتُنَا فَاعِلَةٌ. لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ لَوْ لَا حَقِيقَةُ هَذَا الْإِخْتِيَارِ، لَكَانَتْ مَنْظُومَةُ الْأَخْلَاقِ وَالنَّوَابِ وَالْعِقَابِ كُلِّهَا عَبَثًا. لَا يُمكنُ أَنْ تُحِبَّ أَوْ تَخْتَارَ أَوْ تُؤْمِنَ آلَةً مُبْرَمَجَةً. فـ"الْحُرِّيَّةُ" فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيَّ هِيَ ذَلِكَ "الْفَضَاءُ الْوُجُودِيُّ" الَّذِي يُعْطِي لِلتَّعَقُّلِ مَعْنًى وَقِيمَةً. إِنَّ "التَّعَقُّلَ" هُوَ الْأَدَاةُ الَّتِي أُعْطِيتْ لَنَا لِتَجْعَلَ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ "حُرِّيَّةً مُبْصِرَةً"، لَا "حُرِّيَّةً غَمْبَاءً".»

«وَهُنَا نَصِلُ إِلَى نُقْطَةِ الْإِفْتِرَاقِ الْجَوْهَرِيَّةِ مَعَ الطَّرْحِ الَّذِي قَدَّمْتَهُ يَا مُعَاذُ. فَالْحُرِّيَّةُ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ "حَقٍّ" نَتَمَتَّعُ بِهِ، بَلْ هِيَ "أَمَانَةٌ" نُسْأَلُ عَنْهَا. وَكُلُّ أَمَانَةٍ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ رُكْنٍ ثَانٍ يُوَارِثُهَا وَيَضْبِطُهَا. هَذَا الرُّكْنُ هُوَ مَقَامُ الْمَسْئُولِيَّةِ.»

«إِنَّ الْمَنْظُورَ الْحَدَائِثِيَّ قَدْ يَقُولُ: "أَنَا حُرٌّ مَا لَمْ أَضِرَّ الْآخَرِينَ". أَمَّا الْمَنْظُورُ الْقُرْآنِيُّ فَيَقُولُ: "أَنْتَ حُرٌّ، وَلَكِنَّكَ مَسْئُولٌ". مَسْئُولٌ أَمَامَ اللَّهِ، وَأَمَامَ نَفْسِكَ، وَأَمَامَ الْآخَرِينَ، وَأَمَامَ الْكُونِ. إِنَّهَا مَسْئُولِيَّةٌ شَامِلَةٌ. وَأَعْظَمُ تَأْسِيسٍ لِهَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. هَذِهِ الْآيَةُ تُحْطَمُ كُلُّ فِكْرَةٍ لِلْخَطِيئَةِ الْمَوْرُوثَةِ أَوْ الْمَسْئُولِيَّةِ الْجَمَاعِيَّةِ الْعَمِيَاءِ. إِنَّكَ تَقِفُ أَمَامَ اخْتِيَارَاتِكَ وَحَدِّكَ. "تَعَقُّلُكَ" لَكَ، وَ"إِثْمُكَ" عَلَيْكَ. إِنَّ "الْمَسْئُولِيَّةَ" هِيَ الْبِمِيزَانُ الَّذِي يُقِيمُ الْحُرِّيَّةَ عَلَى الْقِيَمِ، وَيَمْنَعُهَا مِنَ التَّحَوُّلِ إِلَى فَوْضَى وَآنَانِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ.»

قَالَتْ لَيْلَى وَفِي صَوْنِهَا أَثَرُ التَّجَرُّبَةِ:

«إِنَّ هَذَا الشُّعُورَ بِالْمَسْئُولِيَّةِ ثَقِيلٌ جِدًّا أَحْيَانًا. فَالْحُرِّيَّةُ الْمُطْلَقَةُ قَدْ تَبْدُو أَسْهَلًا.»

أَجَابُ الْإِمَامُ:

«إِنَّهُ يُقَالُ "الْأَمَانَةُ" يَا لَيْلَى. وَلَكِنَّهُ أَيْضًا هُوَ مَا يَمْنَحُ لِحَيَاتِنَا وَخِيَارَاتِنَا قِيمَتَهَا وَجِدَّتِيَّتَهَا. فَيَدُونُ الْمَسْئُولِيَّةِ، تُصْبِحُ الْحُرِّيَّةُ عَبَثًا. إِنَّ "الْتَّعَقُّلَ"، حِينَ يَرْتَفِي، لَا يَعُودُ يَرَى الْمَسْئُولِيَّةَ قَيْدًا، بَلْ يَرَاهَا شَرْفًا وَتَكْرِيمًا.»

«وَمِنْ هُنَا نَصِلُ إِلَى الرُّكْنِ الثَّالِثِ، الَّذِي هُوَ النَّتِيجَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لَوُجُودِ "اِخْتِيَارٍ" حَقِيقِيٍّ وَ"مَسْئُولِيَّةٍ" مُطْلَقَةٍ. هَذَا الرُّكْنُ هُوَ مَقَامُ الْمُحَاسَبَةِ.»

«إِنَّ "الْمُحَاسَبَةَ" هِيَ الَّتِي تُكْمِلُ دَائِرَةَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ. إِنَّهَا الْقَانُونُ الَّذِي يَقْضِي بِأَنَّ الْخِيَارَاتِ الْحُرَّةَ لَيْسَتْ أَفْعَالًا غَابِرَةً تَذْهَبُ فِي الْهَوَاءِ، بَلْ هِيَ بُدُورٌ تُزْرَعُ فِي حَقْلِ الرَّمَنِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْحَصَادِ لِرُؤْيَا ثِمَارِهَا. وَقَدْ عَبَّرَتْ سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِأَدَقِّ عِبَارَةٍ وَأَفْوَاهَا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. هَذِهِ الْمُحَاسَبَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ لِلْحُرِّيَّةِ جِدَّتِيَّتَهَا الْمُطْلَقَةَ، وَتَجْعَلُ مِنْ فِعْلِ الْتَّعَقُّلِ أَظْهَرَ فِعْلٍ يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ.»

«وَلِنَقُومَ بِتَمْرِينِنَا التَّطْبِيقِيِّ عَلَى قِصَّةِ أَبِيْنَا آدَمَ، فَهِيَ النَّمُودَجُ الْأَوَّلُ لِقِصَّةِ الْحُرِّيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ.»

«أَوَّلًا، اِخْتِيَارُ: وَضِعَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ، وَأُعْطِيَ أَمْرًا وَاضِحًا وَنَهْيًا وَاضِحًا، وَلَكِنَّهُ تَرَكَ لِحُرِّيَّتِهِ الْكَامِلَةِ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سُورٌ حَوْلَ الشَّجَرَةِ.

فَاخْتَارَ يَارَادَتِهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا.»

«ثَانِيًا، الْمَسْئُولِيَّةُ: عِنْدَمَا كُشِفَ فِعْلُهُ، لَمْ يُلْقِ الْلَوْمَ عَلَى إِبْلِيسَ أَوْ عَلَى زَوْجَتِهِ، بَلْ قَامَ هُوَ وَزَوْجُهُ بِأَوَّلِ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ النُّضِجِ الْبَشَرِيِّ: تَحَمُّلاً مَسْئُولِيَّةَ خِيَارِهِمَا وَأَعْتَرَفَا بِخَطِيئتهما قَائِلَيْنِ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.»

«ثَالِثًا، الْمُحَاسَبَةُ: كَانَ لِهَذَا الْخِيَارِ نَتِيجَةٌ، وَهِيَ الْهَبُوطُ إِلَى الْأَرْضِ. لَكِنَّ هَذِهِ الْمُحَاسَبَةَ لَمْ تَكُنْ نَهَايَةً، بَلْ كَانَتْ بَدَايَةَ جَدِيدَةٍ، فَقَدْ جَاءَتْ مَقْرُونَةً بِوَعْدِ الْهُدَى وَفَتْحِ بَابِ التَّوْبَةِ. فَأَصْبَحَتْ الْأَرْضُ هِيَ الْمَكَانَ الَّذِي تُمَارَسُ فِيهِ هَذِهِ الْأَمَانَةُ، أَمَانَةُ الْحُرِّيَّةِ الْمَسْئُولَةِ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الثَّلَاثَةَ وَالْعِشْرِينَ:

«الْتَّعَقُّلُ وَالْحُرِّيَّةُ مُتَلَازِمَانِ: فَبِ"الْإِخْتِيَارِ" يَتَفَعَّلُ الْتَّعَقُّلُ وَيَجِدُ مَجَالَهُ، وَبِ"الْمَسْئُولِيَّةِ" يَنْضِيطُ الْتَّعَقُّلُ وَيَجِدُ مِيزَانَهُ، وَبِ"الْمُحَاسَبَةِ" يَكْتَسِبُ الْتَّعَقُّلُ جَدِّيَّتَهُ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ الْعَدَالَةُ. وَهَكَذَا يَصِيرُ الْإِنْسَانُ كَائِنًا عَاقِلًا حُرًّا مُؤْتَمِنًا عَلَى مَصِيرِهِ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَ أَنْقَلَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى. لَقَدْ أَدْرَكَ الْجَمِيعُ الْحَجَمَ الْهَائِلَ لِلِهَبَةِ الَّتِي أُعْطِيتْ لَهُمْ، وَالثَّقْلَ الْأَكْبَرَ لِلْأَمَانَةِ الَّتِي حُمِّلُوهَا.

كَانَتْ لَيْلَى هِيَ مَنْ كَسَرَ الصَّمْتَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ أَثَرَ التَّجَرُّبَةِ الْحَيَّةِ:

«شَيْخِنَا، إِنَّ هَذِهِ اللَّيْلَةَ هِيَ الْأَكْثَرُ عُمُقًا وَرَهْبَةً. أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ حُرِّيَّتَنَا حَقِيقِيَّةٌ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، وَأَنَّ مَسْئُولِيَّتَنَا مُطْلَقَةٌ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ. لَقَدْ

قُلْتُ إِنَّ الْأُخْتِيَارَ الْأَعْظَمَ هُوَ بَيْنَ أَنْ نُؤْمِنَ أَوْ نَكْفُرَ. وَسُؤَالِي هُوَ عَنْ فِعْلِ
الْإِيمَانِ نَفْسِهِ. هَلْ "الْإِيمَانُ" هُوَ مُجَرَّدُ قَرَارٍ نَتَّخِذُهُ مَرَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَنْتَهِي
الْأَمْرُ؟ أَمْ هُوَ حَالُهُ مُسْتَمِرَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى رِعَايَةٍ؟ وَمَا هِيَ الْعَلَاقَةُ الدَّقِيقَةُ بَيْنَ
"تَعَقُّلِنَا" الْمُسْتَمِرِّ وَ"إِيمَانِنَا" الْمَتَّجِدِّ؟ هَلِ التَّفَكِيرُ الْكَثِيرُ يَقْوِي الْإِيمَانَ
دَائِمًا، أَمْ أَنَّهُ قَدْ يُوَدِّي أحيانًا إِلَى الشُّكِّ؟ كَيْفَ يَعْمَلَانِ مَعًا؟»

أُبَتَسِمُ الْإِمَامَ.

«لَقَدْ أَخَذْنَا يَا لَيْلَى إِلَى قَلْبِ الْقَلْبِ. إِلَى الْعَلَاقَةِ الْأَكْثَرِ حَسَاسِيَّةً
وَجَمَالًا. وَهَذِهِ... هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ.»

الْمَحَوْرُ الرَّابِعُ: النُّضْجُ وَالْإِكْتِمَالُ

المُقَدِّمَةُ

بَعْدَ أَنْ يَعْبَرَ الْإِنْسَانُ مَسَالِكَ التَّفَكُّيْكِ وَالْتَّأْسِيسِ، ثُمَّ يُشَيِّدَ بُنْيَانَ الْإِدْرَاكِ فِي نَفْسِهِ، وَيُوجِّهَ الصَّرَاعَ مَعَ الْمَخَاطِرِ وَالْعَقَبَاتِ، يَبْلُغَ هُنَا مَرَاتِبَ النُّضْجِ وَالْظَّمَانِيَّةِ. فَيَكُونُ التَّعَقُّلُ لَا مُجَرَّدَ سَيْرٍ فِي طَرِيقٍ وَاعِدٍ، بَلْ رِحْلَةً إِلَى السَّكِينَةِ وَالْإِظْمِنَانِ.

فِي هَذَا الْمَحَوْرِ، يَكْتَشِفُ الْقَارِئُ مَرَاتِبَ الْعِلْمِ، وَيَدْخُلُ مَعَ الْفُصُولِ فِي «عَاصِمَةِ الْمَمْلَكَةِ» حَيْثُ يَتَوَحَّدُ الْمَعْرِفِيُّ بِالْقِيَمِيِّ، وَيَتَزَوَّدُ فِي «زَادِ الرِّحْلَةِ» بِمَا يُقِيمُ قُوَى الْعَقْلِ وَالرُّوحِ. ثُمَّ يُمَسِّكُ بِ«شِرَاعِ السَّافِينَةِ» لِيُنْجِرَ فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ وَمَصِيرِ الْبَشَرِ.

هُنَا يَتَجَلَّى السَّلَامُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْقِيَمَةِ كَجِسْرِ يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ، وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَعْنَى. وَفِي الْخِتَامِ، يَظْهَرُ التَّعَقُّلُ عَلَى أَنَّهُ الْعَمُودُ الْفَقْرِيُّ لِمَنْطِقِ الْبَيَانِ، الَّذِي بِهِ يَسْتَوِي الْعِلْمُ وَتَنْتَظِمُ الْحَيَاةُ وَتُبْنَى الْحَضَارَةُ.

فَيَكُونُ هَذَا الْمَحَوْرُ خَاتِمَ الرِّوَايَةِ، وَقِمَّتَهَا الْبَيَانِيَّةَ، وَالْجِسْرَ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ الْمَسِيرَةِ الرِّوَايِيَّةِ وَالْمَشْرُوعِ الْمَنْطِيقِيِّ الْأَكْبَرِ.

الفصل 24: الرِّحْلَةُ إِلَى الطُّمَأْنِينَةِ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ جِدِّيَّةً وَخُشُوعًا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى. الْحَدِيثُ فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ عَنِ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ وَالْمُحَاسَبَةِ كَانَ قَدْ أَلْقَى بِثِقَلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ عَلَى أَكْتَافِهِمْ. وَكَانَ سُؤَالٌ لَيْلَى الْأَخِيرُ، السُّؤَالُ عَنِ الْعَلَاqَةِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ، يُمَثِّلُ أَلْقَى الْحَقِيقِيِّ لِلْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ الَّذِي يَعِيشُ بَيْنَ نِدَاءِ الْإِيمَانِ الْفُطْرِيِّ وَصَغْطِ الْعَقْلِ النَّقْدِيِّ.

إِبْتَدَأَ الْإِمَامُ الْجَلْسَةَ بِنَظَرَةٍ مُتَفَهِّمَةٍ إِلَى لَيْلَى:

«لَقَدْ وَصَّغْتَ يَدَكَ يَا لَيْلَى عَلَى أَحَدِ أَكْبَرِ "صُدُوعِ" الْعَقْلِ الْحَدَائِثِيِّ، الصَّدْعُ الْمَرْعُومُ بَيْنَ التَّعَقُّلِ وَالْإِيمَانِ. الْفِكْرَةُ الشَّائِعَةُ، الَّتِي تَرَسَّخَتْ فِي الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ، هِيَ أَنَّهُمَا ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ: فَالتَّعَقُّلُ يَبْدَأُ مِنَ الشَّكِّ وَيَبْحَثُ عَنِ الْبُرْهَانِ، وَالْإِيمَانُ يَبْدَأُ مِنَ التَّسْلِيمِ وَيَقْفُزُ فَوْقَ الْبُرْهَانِ. وَهَذَا التَّصَوُّرُ هُوَ الَّذِي يُولِّدُ أَلْقَى الَّذِي تَشْعُرِينَ بِهِ: "هَلْ إِذَا فَكَّرْتُ أَكْثَرَ سَافَقْتُ إِيْمَانِي؟".»

«وَلَكِنَّ التَّبَيَّنَ الْفُرْأَنِيَّ،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «يَأْتِي لِخِطْمِ هَذِهِ الثَّنَائِيَّةِ الرَّائِقَةِ. إِنَّهُ لَا يَعْضُضُهُمَا كَعَدُوَّيْنِ، بَلْ كَحَبِيبَيْنِ فِي رَحْلَةٍ مُشْتَرَكَةٍ. إِنَّهُ يَقُولُ لَنَا بِوُضُوحٍ: إِنَّ "التَّعَقُّلَ" الصَّادِقَ هُوَ الطَّرِيقُ الْمَلَكِيُّ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى

"الإيمان" الراسخ، و"الإيمان" الراسخ هو الأفق الذي يُعطي لـ "التَّعَقُّلِ" غَايَتَهُ الْكُبْرَى وَمَعْنَاهُ الْأَسْمَى.»

قَالَ مُعَاذٌ، وَقَدْ وَجَدَ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ لِطَرْحِ اعْتِرَاضِهِ الْجَوْهَرِيِّ:

«شَيْخَنَا، مَعَ كُلِّ اخْتِرَامِي، هُنَا تَفَعُّ نُقْطَةُ الْإِفْتِرَاقِ الْحَاسِمَةِ. لَقَدْ عَرَفَ الْفَيْلَسُوفُ "كَانُط" التَّنْوِيرَ بِأَنَّهُ "جَزَاءُ الْمَرْءِ عَلَى اسْتِعْمَالِ عَقْلِهِ". وَجَوْهَرُ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ هُوَ التَّنْقُذُ وَالشُّكُّ الْمَنْهَجِيُّ. أَمَّا "الإيمان"، فِي تَعْرِيفِهِ الْأَكْثَرِ شُبُوعًا، فَهُوَ الْقَبُولُ بِقَضِيَّةٍ "دُونَ دَلِيلٍ كَافٍ". فَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِلشُّكِّ أَنْ يُوَصَلَ إِلَى التَّسْلِيمِ؟ إِنَّهُمَا اتَّجَاهَانِ مُتَضَادَّانِ. أَنْ تُؤْمِنَ يَعْنِي أَنْ تَتَوَقَّفَ عَنِ السُّؤَالِ، وَأَنْ تَتَعَقَّلَ يَعْنِي أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي السُّؤَالِ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«أَنْتَ تَنْطَلِقُ مِنْ تَعْرِيفٍ لِلإِيمَانِ صَاغَتْهُ التَّجَرُّبَةُ الْأَوْرُوبِيَّةُ فِي صِرَاعِهَا مَعَ سُلْطَةِ الْكَنِيسَةِ. أَمَّا "الإيمان" فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ فَلَيْسَ قَفْزَةً فِي الظُّلَامِ، وَلَيْسَ تَسْلِيمًا أَعْمَى. بَلْ هُوَ رَحْلَةٌ ذَاتُ مَرَاتِبٍ، تَبْدَأُ بِقِمَّةِ التَّعَقُّلِ وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا بِقِمَّةِ الطَّمَأْنِينَةِ. وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ ثَلَاثٌ: التَّصَدِيقُ فَالْإِخْلَاصُ فَالطَّمَأْنِينَةُ.»

«لِنَبْدَأُ بِالْمَرْتَبَةِ الْأُولَى، الْبَوَابَةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا التَّعَقُّلُ إِلَى عَالَمِ الإِيمَانِ. هَذِهِ الْبَوَابَةُ هِيَ "التَّصَدِيقُ".»

«التَّصَدِيقُ" لَيْسَ تَسْلِيمًا بَلَا دَلِيلٍ، بَلْ هُوَ نَتِيجَةُ مَنْطِقِيَّةٍ لَتَعَقُّلٍ نَزِيهٍ. إِنَّهُ فِعْلٌ الْإِدْعَانِ وَالْقَبُولِ الْوَاعِي لِلْحَقِّ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ بَرَاهِينُهُ. تَذَكَّرُوا رَحْلَةَ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْكَوَاكِبِ: لَقَدْ اسْتُخْدِمَ تَعَقُّلُهُ الْجَسَدِيُّ وَالتَّحْلِيلِيُّ، فَوَصَلَ إِلَى نَتِيجَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ. فِعْلٌ "التَّصَدِيقِ" هُوَ الْقَرَارُ

الْحَرْ يُقْبُولُ هَذِهِ النَّتِيجَةَ وَالْإِقْرَارَ بِهَا. إِنَّهُ اللَّحْظَةُ الَّتِي يَتَوَافَقُ فِيهَا الْعَقْلُ مَعَ الْفِطْرَةِ فَيُعْلِنُ الْقَلْبُ قَبُولَهُ. وَهَذَا الْإِعْلَانُ هُوَ مَا يُلَحِّصُهُ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا...﴾. إِنَّهُ قَوْلٌ، إِعْلَانٌ ظَاهِرٌ لِقَنَاعَةِ بَاطِنَةٍ.»

قَالَ أَرِسْطُو:

«لَكِنَّ النَّاسَ قَدْ يُصَدِّقُونَ بِأَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ بِنَاءً عَلَى تَعَقُّلِهِمْ. فَمَا الضَّمَانُ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«الضَّمَانُ هُوَ صَدَقُ الْبَحْثِ. وَلَكِنْ هُنَاكَ نُقْطَةُ أَهَمٍّ: الْقُرْآنُ يُمَيِّزُ بوضوحٍ بَيْنَ تَوْعِينٍ مِنَ التَّصْديقِ: تَصْديقِ نَاصِعٍ عَنِ تَعَقُّلٍ وَبَصِيرَةٍ، وَتَصْديقِ نَاصِعٍ عَنِ "تَقْلِيدٍ" أَعْمَى لِلْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ. وَالْقُرْآنُ يَذَمُّ النَّوعَ الثَّانِيَّ بِشِدَّةٍ وَيَعُدُّهُ تَعْطِيلًا لِلتَّعَقُّلِ: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾. فَإِلَيْمَانُ الْمَبْنِيِّ عَلَى التَّقْلِيدِ هُوَ إِيْمَانٌ هَشٌّ، كَبِيتٌ بِنِيٍّ عَلَى الرَّمْلِ، قَدْ تَنَسَّفَهُ أَوَّلُ رِيحٍ شُبْهَةٍ. أَمَّا الْإِيْمَانُ الْمَبْنِيُّ عَلَى "تَصْديقِ التَّعَقُّلِ" فَهُوَ إِيْمَانٌ قَوِيٌّ، كَبِيتٌ أُسِّسَ عَلَى صَخْرَةٍ.»

«وَلَكِنْ،» وَاصَلَ الْإِمَامُ، «هَلْ يَكْفِي مُجَرَّدُ التَّصْديقِ الذَّهْنِيِّ؟ قَدْ يُصَدِّقُ الْمَرْءُ بِفِكْرَةٍ لِكِنَّهَا لَا تَوَثَّرُ فِي حَيَاتِهِ. هُنَا يَأْتِي دَوْرُ الْأَرْتِقَاءِ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، مَرْتَبَةِ تَرْكِيزَةِ الْقَصْدِ وَتَطْهِيرِ النَّيَّةِ. إِنَّهَا مَرْتَبَةُ الْإِخْلَاصِ.»

«الْإِخْلَاصُ» هُوَ الَّذِي يُجِيبُ عَنْ سُؤَالِ: "لِمَاذَا آمَنْتَ؟". إِنَّهُ يَنْقُلُ الْإِيْمَانَ مِنَ الْقَنَاعَةِ الظَّاهِرِيَّةِ إِلَى الْعَمَلِ الصَّادِقِ وَالْقَصْدِ الْخَالِصِ.

فَالْمَرْءُ قَدْ يُغْلِبُ إِيْمَانَهُ لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ: لِيَرْضَى مُجْتَمَعَهُ، أَوْ لِيَحْصَلَ عَلَى مَنَفَعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، أَوْ خَوْفًا مِنْ عُقُوبَةٍ. كُلُّ هَذِهِ شَوَائِبُ تَفْسِيدِ نَقَاءِ التَّصَدِيقِ. يَأْتِي "الْإِخْلَاصُ" لِيُصَفِّي هَذِهِ النَّيَّةَ وَيُجَرِّدَهَا إِلَّا لَوَجْهِ اللَّهِ. وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الدِّينِ كُلِّهِ. كَمَا تَقُولُ سُورَةُ الْبَيِّنَةِ: ﴿وَمَا أَمْرُو إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«هَذَا هُوَ مَبْدَأُ "النِّيَّةِ" الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْفِقْهِ. فَلَا يَصِحُّ عَمَلٌ بِغَيْرِ نِيَّةٍ، وَلَا تَقْبَلُ النَّيَّةُ إِنْ لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً لِلَّهِ. وَهَذِهِ الْمُرَاقَبَةُ لِلنِّيَّةِ هِيَ مِنْ أَشَقِّ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«أَشَقُّهَا وَأَرْفَعُهَا. وَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَيَّ "تَعَقُّلٍ" دَائِمٍ، إِلَى مُحَاسَبَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ لِلنَّفْسِ: "لِمَاذَا أَفْعَلُ هَذَا؟ هَلْ أَرِيدُ ثَنَاءَ النَّاسِ (الرِّيَاءَ) أَمْ رِضَا رَبِّ النَّاسِ؟". إِنْ التَّعَقُّلُ هُنَا هُوَ الْخَارِصُ الَّذِي يَقِفُ عَلَى بَابِ الْقَلْبِ لِيَمْنَعَ الدَّوَافِعَ الْمَشُوبَةَ مِنَ الدُّخُولِ.»

«فَإِذَا صَحَّ التَّصَدِيقُ بِالتَّعَقُّلِ، وَصَفَا الْقَصْدُ بِالْإِخْلَاصِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرْتَقِي إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيْمَانِ، الْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ الثَّمَارِ وَغَايَةُ الرِّحْلَةِ. إِنَّهَا مَرْتَبَةُ الْأَظْمِثَانِ.»

«الْأَظْمِثَانِيَّةُ» لَيْسَتْ مُجَرَّدَ غِيَابِ الشَّكِّ. إِنَّهَا حَالَةٌ مِنَ الرُّسُوخِ الْقَلْبِيِّ وَالثَّبَاتِ الْوُجْدَانِيِّ وَالْوُضُوحِ الْبَصِيرِيِّ. إِنَّهَا أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ "مَعْرِفَةٍ"، إِنَّهُ "مُعَايِنَةٌ" بَاطِنِيَّةٌ. إِنَّهَا الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ تَقْرَأَ عَنِ الْعَسَلِ وَتُصَدِّقَ بِأَنَّهُ حُلْوٌ، وَبَيْنَ أَنْ تَذُوقَهُ بِنَفْسِكَ. الْأَظْمِثَانِيَّةُ هِيَ ذَوْقُ حَلَاوَةِ

الْإِيمَانِ. وَهَذِهِ الْحَالَةُ لَيْسَتْ لَحْظَةً عَارِضَةً، بَلْ هِيَ غَايَةٌ يُسْعَى إِلَيْهَا طَوَالَ الْعُمْرِ، كَمَا يَقُولُ الْحَقُّ: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُظْمَأِئِنَةُ». إِنَّهَا رَحْلَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّعَقُّلِ تَزْدَادُ بِهَا دَرَجَةُ الطُّمَأْنِينَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا.»

«وَلِنَعُدَّ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ لِنَرَى هَذِهِ الرَّحْلَةَ مُتَجَسِّدَةً. لَقَدْ بَدَأَ بِ"التَّعَقُّلِ" فِي الْكَوَاكِبِ. ثُمَّ وَصَلَ إِلَى "التَّصْدِيقِ" حِينَ وَجَّهَ وَجْهَهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. ثُمَّ تَجَلَّى "إِخْلَاصُهُ" فِي أَعْلَى صُورِهِ حِينَ أَسْتَسَلَّمَ لِأَمْرِ دَبْحِ أَبِيهِ. ثُمَّ، حَتَّى بَعْدَ كُلِّ هَذَا، نَجِدُهُ يَسْعَى لِأَعْلَى مَرَاتِبِ "الطُّمَأْنِينَةِ" حِينَ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى، لِيُظَمِّنَ قَلْبُهُ. إِنَّهَا رَحْلَةٌ كَامِلَةٌ تُظْهِرُ كَيْفَ أَنَّ التَّعَقُّلَ يُؤَلِّدُ التَّصْدِيقَ، وَالتَّصْدِيقَ يُزَكِّيهِ الْإِخْلَاصَ، وَالْإِخْلَاصَ يَتَوَجَّهُ الْأُطْمِئْنَانُ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْخُلَاصَةَ الْقَاعِدِيَّةَ الرَّابِعَةَ وَالْعُشْرِينَ:

«التَّعَقُّلُ هُوَ الْبَوَايَةِ الْمَلَكِيَّةُ لِلْإِيمَانِ، وَلِهَذَا الْإِيمَانُ مَرَاتِبُ ثَلَاثٌ: التَّصْدِيقُ (وَهُوَ قَبُولُ الْعَقْلِ لِلْحَقِّ)، وَالْإِخْلَاصُ (وَهُوَ تَجْرِيدُ قَصْدِ الْقَلْبِ)، وَالطُّمَأْنِينَةُ (وَهِيَ رُسُوحُ الرُّوحِ فِي الْحَقِيقَةِ). وَهَكَذَا، يَتَكَامَلُ التَّعَقُّلُ وَالْإِيمَانُ، يَكْتَمِلُ الْبُنْيَانُ الْإِنْسَانِيُّ فِي الرُّؤْيَةِ الْقَرَأَنِيَّةِ.»

سَادَ صَمْتُ عَمِيقٍ. كَانَتْ لَيْلَى تَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً خَفِيفَةً، وَكَانَ صِرَاعًا قَدِيمًا فِي دَاخِلِهَا قَدْ وَجَدَ طَرِيقَهُ إِلَى السَّلَامِ.

وَكَانَ أَرْسَطُو، الَّذِي تَغْنِيهِ الْمَعْرِفَةُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ مَنْ فَتَحَ الْأَبَابَ الْأَخِيرَ. قَالَ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ إِلَى الطُّمَأْنِينَةِ هِيَ رَحْلَةٌ بَاطِنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، تَتَعَلَّقُ بِصِحَّةِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ. وَلَكِنْ، مَاذَا عَنِ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ؟ مَا هِيَ

عَلَاقَةُ هَذِهِ الطُّمَأْنِينَةِ الدَّاخِلِيَّةِ بِالسَّغْيِ الْمُسْتَمِرِّ لِطَلَبِ "الْعِلْمِ" (Knowledge) عَنِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ وَالْمُجْتَمَعِ؟ هَلْ يَتَوَقَّفُ صَاحِبُ الطُّمَأْنِينَةِ عَنِ طَلَبِ الْعِلْمِ؟ أَمْ أَنَّ طُّمَأْنِينَتَهُ تُعْطِيهِ مُنْطَلَقًا جَدِيدًا لِلْسَّغْيِ الْمَعْرِفِيِّ؟ كَيْفَ يَعْمَلُ "الْتَعَقُّلُ" فِي مَيْدَانِ "الْعِلْمِ" بِالنَّسْبَةِ لِشَخْصٍ قَلْبُهُ مُظْمَنٌ بِالْفِعْلِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

«لَقَدْ أَصَبْتَ الْوَتَرَ الْحَسَّاسَ يَا أَرِسْطُو. فَالطُّمَأْنِينَةُ لَيْسَتْ نَهَايَةَ الرِّحْلَةِ، بَلْ هِيَ بَدَايَةُ رِحْلَةٍ أُخْرَى أَكْثَرَ اتِّسَاعًا. وَهَذِهِ... هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ.»

الفصل 25: مَرَاتِبُ الْعِلْمِ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ نَسَمَاتٍ مِنَ السَّكِينَةِ الَّتِي خَلَفَهَا حَدِيثُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْطَّمَأِينَةِ. لَقَدْ كَانَتْ رَحْلَةً شَاقَّةً وَعَمِيقَةً فِي دُرُوبِ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ، وَكَانَتْ نَهَائِيَّتَهَا فِي مَرَافِقِ الْأَطْمِئْنَانِ الْهَادِئَةِ بِمَثَابَةِ أَسْبَاحَةِ لِلْمَحَارِبِ. وَلَكِنَّ سُؤَالَ أَرِسْطُو الْأَخِيرَ، السُّؤَالَ عَنِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ هَذَا الْأَطْمِئْنَانِ الدَّاخِلِيِّ وَالسَّعْيِ الْخَارِجِيِّ الْمُسْتَمِرِّ لِطَلَبِ "الْعِلْمِ"، أَشْعَلَ شُعْلَةً جَدِيدَةً مِنَ الْفُضُولِ.

إِسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجُلَسَةَ بِالْبِنَاءِ عَلَى هَذَا السُّؤَالَ الدَّكِيِّ:

«لَقَدْ أَشْرَتْ يَا أَرِسْطُو إِلَى نُقْطَةٍ جَوْهَرِيَّةٍ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْإِيمَانِ الْقُرْآنِيِّ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدْيَانِ وَالْفَلَسَفَاتِ الَّتِي تَرَى الطَّمَأِينَةَ نَهَايَةَ الطَّرِيقِ وَدَعْوَةً لِلانْقِطَاعِ عَنِ الْعَالَمِ. أَمَّا فِي رُؤْيَا التَّبَيَّنِ، فَإِنَّ "الطَّمَأِينَةَ" لَيْسَتْ نَهَايَةَ الرَّحْلَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ، بَلْ هِيَ تَصْحِيحٌ لِبُوصَلَتِهَا وَأَنْطِلَاقٌ حَقِيقِيٌّ لَهَا. إِنَّهَا تُعْطِيكَ الْأَرْضَ الصُّلْبَةَ الَّتِي تَقِفُ عَلَيْهَا بِثِقَةٍ لِتَنْظُرَ إِلَى الْكَوْنِ بِأَسْرِهِ دُونَ خَوْفٍ مِنَ الضِّيَاعِ. فَالْقُرْآنُ لَا يُقِيمُ حَرْبًا بَيْنَ "الْإِيمَانِ" وَ"الْعِلْمِ"، بَلْ يَجْعَلُ "الْتَعَقُّلَ" هُوَ الْحِجَرُ الَّذِي يَصِلُ بَيْنَهُمَا، فَيُحَوِّلُ الْإِيمَانَ إِلَى عِلْمٍ، وَالْعِلْمَ إِلَى إِيمَانٍ.»

قَالَ مُعَادٌ، مُعَبِّرًا عَنِ الْإِشْكَالِ الْحَدَائِيِّ بِأَمَانَةٍ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ الْإِشْكَالَ لَدَيَّ لَيْسَ فِي أَهَمِّيَّةِ الْعِلْمِ، بَلْ فِي "مَنْهَجِيَّتِهِ". إِنَّ الْقُوَّةَ الْجَبَّارَةَ لِلْعِلْمِ الْحَدِيثِ تَنْتُجُ مِنْ صَرَامَةِ مَنْهَجِهِ، وَهَذَا الْمَنْهَجُ يَقُومُ عَلَى "السَّكِّ" لَا عَلَى "الْطَّمَأْنِينَةِ". الْعَالِمُ يَشْكُ، فَيَضَعُ فَرَضِيَّةً، ثُمَّ يُحَاوِلُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ أَنْ يُخْطِئَ فَرَضِيَّتَهُ مِنْ خِلَالِ التَّجَارِبِ. إِنَّهُ مَنْهَجُ يَقُومُ عَلَى الْأُسْتِغْنَاءِ الْمُتَعَمِّدِ لِلْقَنَاعَاتِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْيَقِينِيَّاتِ الْمُسَبِّقَةِ لِضَمَانِ الْمَوْضُوعِيَّةِ. فَكَيْفَ يُمَكِّنُ لـ "الْطَّمَأْنِينَةِ الْإِيمَانِيَّةِ" أَنْ يَكُونَ "مُنْظَلَفًا" لِلْعِلْمِ، بَيْنَمَا الْعِلْمُ يَرَى فِي الطَّمَأْنِينَةِ الْمُسَبِّقَةِ اكْبَرَ عَائِقٍ أَمَامَ الْبَحْثِ الْحَرِّ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«أَنْتَ تَصِفُ "السَّكِّ الْأَدَاتِيَّ" (Methodological Skepticism)، وَهُوَ آدَاءٌ مُمْتَارَةٌ لِلتَّحْقُقِ مِنْ صِحَّةِ النَتَائِجِ الْجُرْيِيَّةِ. وَالْإِسْلَامُ لَا يَرُفُضُهُ، بَلْ إِنَّ عُلَمَاءَنَا كَانُوا مِنْ أَوَائِلِ مَنْ طَبَّقُوهُ فِي عُلُومِ كَالْجِرْحِ وَالتَّعْدِيلِ. لَكِنَّا نَتَحَدَّثُ هُنَا عَنْ شَيْءٍ أَشْمَلَ. إِنَّ "الْطَّمَأْنِينَةَ الْإِيمَانِيَّةَ" لَا يَتَعَلَّقُ بِتَفَاصِيلِ الْفَرَضِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ، بَلْ يَتَعَلَّقُ بِ"الْإِطَارِ الْعَامِّ لِلْوُجُودِ". إِنَّهَا طَّمَأْنِينَةٌ بِأَنَّ الْكَوْنَ لَيْسَ عَبَثًا، وَأَنَّ لَهُ خَالِقًا حَكِيمًا، وَأَنَّهُ قَابِلٌ لِلْفَهْمِ. هَذِهِ الطَّمَأْنِينَةُ لَا تَعْطِلُ الْبَحْثَ، بَلْ تَعْطِيهِ الدَّفَاعَ وَالْمَعْنَى. إِنَّهَا تَحَرَّرُ الْعَالِمَ مِنْ قَلْقِ الْعَدَمِيَّةِ، وَتَجْعَلُ مِنْ سَعْيِهِ لِاِكْتِشَافِ قَوَانِينِ الْكَوْنِ عِبَادَةً وَشُكْرًا.»

«وَالْقُرْآنُ،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «يَرْسُمُ لَنَا مَسَارًا مُتَدَرِّجًا لِهَذَا الْعِلْمِ الْمُبْنِيِّ عَلَى التَّعَقُّلِ، مَسَارًا مِنْ ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ: النَّظَرُ فَالتَّفَكُّرُ فَالتَّدَبُّرُ.»

«الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى، وَهِيَ بَابُ الْعِلْمِ كُلِّهِ، هِيَ مَرْتَبَةُ "النَّظَرِ". وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ "رُؤْيَةٍ" سَلْبِيَّةٍ. إِنَّهَا "مُشَاهَدَةٌ" فَاعِلَةٌ وَقُصْدِيَّةٌ. لِذَلِكَ يَأْتِي

الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ بِهَا صَرِيحًا فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. إِنَّهَا دَعْوَةٌ لِفَتْحِ الْحَوَاسِّ وَتَوَجُّيْهَا نَحْوَ الْكُونِ بِفُضُولٍ وَأَهْتِمَامٍ. إِنَّهَا الْمَرْحَلَةُ التَّجْرِبِيَّةُ لِجَمْعِ الْمُعْطَيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ. »

«وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، يَكُونُ الْإِنْسَانُ "مُسْتَقْبِلًا". وَلَكِنَّ التَّعَقُّلَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَقِفُ عِنْدَ الْأُسْتِقْبَالِ. فَبَعْدَ أَنْ يَمْتَلِئَ الْوَعَاءُ بِالْمُشَاهَدَاتِ، تَأْتِي الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي تَحُولُ فِي هَذِهِ الْمُشَاهَدَةِ إِلَى مَعْرِفَةٍ مُنَظَّمَةٍ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ "التَّفَكُّرِ". »

«وَقَدْ مَرَّ بِنَا هَذَا الْمَنْهَجُ، وَلَكِنَّا نَنْظُرُ إِلَيْهِ الْآنَ كَمَرْتَبَةٍ فِي سُلَّمِ الْعِلْمِ. إِنَّ "التَّفَكُّرَ" هُوَ عَمَلِيَّةُ التَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ. هُوَ أَنْ تَأْخُذَ الْمُعْطَيَاتِ الَّتِي جَمَعَهَا "النَّظَرُ" وَتَبْدَأَ بِطَرْحِ الْأَسْئَلَةِ: لِمَاذَا السَّمَاءُ زَرْقَاءُ؟ وَكَيْفَ تَطِيرُ الطُّيُورُ؟ وَمَا الَّذِي يَنْظُمُ حَرَكَةَ النُّجُومِ؟ إِنَّهُ الْمَرْحَلَةُ الَّتِي يُحَاوِلُ فِيهَا الْعَقْلُ اكْتِشَافَ "الْأَسْبَابِ" وَالْقَوَانِينِ" الَّتِي تَحْكُمُ الطَّوَاهِرَ. وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي يُشِيرُ إِلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ أُولَى الْأَلْبَابِ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. »

قَالَ أَرِسْطُو:

«إِذَنْ "النَّظَرُ" يُعْطِينَا الْجَزْئِيَّاتِ، وَ"التَّفَكُّرُ" يَسْتَخْلِصُ مِنْهَا الْكَلِّيَّاتِ وَالْقَوَانِينِ. هَذَا هُوَ الْأُسْتِقْرَاءُ بِعَيْنِهِ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَوْصِيفٌ دَقِيقٌ. وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ بِمَفْهُومِهِ الْحَدِيثِ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ عَظِيمَةٍ وَمُبَارَكَةٍ أَنْتَجَتْ كُلَّ التَّقَدُّمِ التَّقَانِيِّ الَّذِي نَرَاهُ. وَلَكِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَطْرَحُهُ الْقُرْآنُ دَائِمًا هُوَ: هَلْ هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ؟

هَلْ يَكْفِي أَنْ نَعْرِفَ "كَيْفَ" تَعْمَلُ الْأَشْيَاءُ؟ أَمْ أَنَّ هُنَاكَ مَرْتَبَةً أَعْلَى تَسْأَلُ عَنْ "لِمَاذَا"؟»

«وَهَذِهِ الْفَقْرَةُ مِنْ "الْكَيْفِ" إِلَى "الْمَاذَا" هِيَ الَّتِي تَنْقُلُنَا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ وَالْأَعْلَى فِي سَلَمِ الْعِلْمِ. إِنَّهَا مَرْتَبَةُ "التَّدَبُّرِ".»

«"التَّدَبُّرُ" هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي يُعَمِّقُ الْمَعْرِفَةَ وَيَكْشِفُ عَنْ غَايَاتِهَا وَعَوَاقِبِهَا وَمَصَائِرِهَا. إِنَّهُ يَرْبِطُ الْعِلْمَ بِالْقِيَمَةِ، وَالْمَعْرِفَةَ بِالْهِدَايَةِ. إِذَا كَانَ "التَّفَكُّرُ" يَكْتَشِفُ قَانُونَ الْجَازِيَّةِ، فَإِنَّ "التَّدَبُّرَ" يَتَأَمَّلُ فِي الْجَكَمَةِ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْقَانُونِ، وَكَيْفَ أَنَّهُ ضَرُورِيٌّ لِحِفْظِ الْحَيَاةِ وَأُسْتِقْرَارِ الْكَوْنِ. إِذَا كَانَ "التَّفَكُّرُ" يَكْتَشِفُ طَاقَةَ النَّوَاةِ، فَإِنَّ "التَّدَبُّرَ" يَحْدَرُ مِنْ أُسْتِخْدَامِهَا فِي الْفَسَادِ وَالذَّمَارِ. إِنَّهُ يَرْبِطُ الْعِلْمَ بِالْمَسْئُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. وَلِذَلِكَ، يَرْبِطُ الْقُرْآنُ التَّدَبُّرَ بِالْقَلْبِ، لِأَنَّهُ الْمَرْكَزُ الْقِيَمِيُّ فِي الْإِنْسَانِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.»

«وَلِنَقُومَ بِتَمْرِينَا التَّطْبِيقِيِّ عَلَى سُورَةِ الْغَاشِيَةِ، لِنَرَى كَيْفَ تَدْعُونَا لِلسَّيْرِ فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ.»

«تَبْدَأُ السُّورَةُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى النَّظَرِ الْمُبَاشِرِ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾. إِنَّهَا دَعْوَةٌ لِفَتْحِ الْحَوَاسِّ وَجَمْعِ الْمَشَاهِدَاتِ.»

«ثُمَّ نَنْتَقِلُ بِنَا بِشَكْلِ ضَمْنِيٍّ إِلَى مَرْتَبَةِ التَّفَكُّرِ. فَالسُّؤَالُ "كَيْفَ؟" هُوَ مِفْتَاحُ التَّحْلِيلِ. كَيْفَ خُلِقَتْ؟ كَيْفَ رُفِعَتْ؟ إِنَّهَا تَدْعُونَا لِلْبَحْثِ عَنِ الْأَلْيَاتِ وَالْقَوَانِينِ الَّتِي وَرَاءَ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ.»

«وَأَخِيرًا،» وَاصِلَ الْإِمَامِ، «تَقْفِزُ السُّورَةَ الْقَفْزَةَ الْكُبْرَى إِلَى مَرْتَبَةِ التَّدَبُّرِ. فَيَعْدَ هَذَا النَّظَرَ وَالتَّفَكُّرَ فِي الْكَوْنِ، تَأْتِي الْآيَاتُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنِ الْغَايَةِ النَّهَايَةِ وَالْمَصِيرِ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ...﴾ ثُمَّ الْحَدِيثُ عَنِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ. إِنَّهَا تَرْبِطُ عَلَمَنَا بِالْكَوْنِ بِحَقِيقَةِ مَصِيرِنَا. وَهَذَا هُوَ التَّدَبُّرُ بَعَيْنِهِ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ:

«الْتَّعَقُّلُ هُوَ مَسَارُ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ، وَمَرَاتِبُهُ ثَلَاثَةٌ: النَّظَرُ (وَهُوَ اسْتِقْبَالُ الْمَعْرِفَةِ مِنَ الْوَاقِعِ)، وَالتَّفَكُّرُ (وَهُوَ تَحْلِيلُهَا وَرَنْطُهَا لِصِنَاعَةِ الْمَفَاهِيمِ)، وَالتَّدَبُّرُ (وَهُوَ الْإِمْعَانُ فِي غَايَاتِهَا وَعَوَاقِبِهَا لِتَحْوِيلِهَا إِلَى حِكْمَةٍ). وَهَكَذَا يَكْتُمِلُ بُنْيَانُ الْعِلْمِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي يُوحِّدُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ.»

سَادَ الصَّمْتُ، وَكَانَتْ الصُّورَةُ قَدْ اكْتَمَلَتْ بِشَكْلِ شِبْهِ نِهَائِيٍّ. لَقَدْ بَدَأَتْ الْخُيُوطُ كُلُّهَا تَلْتَقِي.

وَكَانَتْ زَيْنَبُ، بِبَصِيرَتِهَا الْفَقْهِيَّةِ الَّتِي تَبْحَثُ دَوْمًا عَنِ الْأُصُولِ الْجَامِعَةِ، هِيَ مَنْ وَضَعَ الْقَوْسَ الْأَخِيرَ عَلَى هَذَا الْبَابِ مِنَ الْعِلْمِ. قَالَتْ:

«شَيْخَنَا، إِنَّهَا رِحْلَةٌ عَجِيبَةٌ. لَقَدْ بَدَأْنَا بِفِعْلِ "الْتَّعَقُّلِ"، ثُمَّ مَرَرْنَا بِكُلِّ أَدَوَاتِهِ وَمَقَامَاتِهِ وَمَقَاصِدِهِ وَمَنَاجِحِهِ، وَخَتَمْنَا الْآنَ بِعِلَاقَتِهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ. وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ، كُنَّا نَجِدُ أَنَّ الطَّرِيقَ يَعُودُ لِيَصُبَّ فِي مَرْكَزٍ وَاحِدٍ. قُلْتُ إِنَّ "التَّدَبُّرَ" مَحَلُّهُ "الْقَلْبُ"، وَإِنَّ "الْإِيمَانَ" وَ"الْأُطْمِئْنَانِ" يَسْكُنَانِ فِي "الْقَلْبِ"، وَإِنَّ "البَصِيرَةَ" نُورٌ فِي "الْقَلْبِ". يَكَادُ يَحْتَلُّ لِي أَنَّ الْقِصَّةَ كُلَّهَا، مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، هِيَ قِصَّةُ "الْقَلْبِ". فَهَلْ يُمَكِّنُنَا، كَخَتَامٍ لِهَذَا الْجُزْءِ مِنْ رِحْلَتِنَا، أَنْ نَعْقِدَ جُلُوسَةً آخِرَةً نَعِيدُ فِيهَا النَّظَرَ إِلَى "الْقَلْبِ" لَا

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَّعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتُ فِي مَنْطِقِ التَّبَيَّنِ

كَمْجَرَّدِ مَرْكَزٍ مِنْ بَيْنِ مَرَائِزٍ أُخْرَى، بَلْ بِاعْتِبَارِهِ الْمَوْحَدَ الْأَعْظَمَ، وَالْمَرْكَزَ
الَّذِي تَلْتَقِي فِيهِ حَقِيقَةُ "الْتَّعَقُّلِ" وَحَقِيقَةُ "الْعِلْمِ" وَحَقِيقَةُ "الْإِيمَانِ"
لِتُصْبِحَ شَيْئًا وَاحِدًا؟»

أُبْتَسِمَ الْإِمَامُ إِبْنِ سَامَةَ عَمِيقَةً.

«لَقَدْ أَحْسَنْتِ الْخِتَامَ يَا زَيْنَبُ. فَلِكُلِّ مَمْلَكَةٍ عَاصِمَةٌ، وَعَاصِمَةٌ
مَمْلَكَةِ الْإِنْسَانِ هِيَ قَلْبُهُ. وَهَذِهِ... هِيَ قِصَّتُنَا الْقَادِمَةُ وَالْأَخِيرَةُ فِي هَذَا
الْبَابِ.»

الْفَصْلُ 26: عَاصِمَةُ الْمَمْلَكَةِ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ شُعُورًا بِأَنَّ دَائِرَةَ عَظِيمَةٍ عَلَى وَشَلٍ أَنْ تُغْلَقَ. فِي الْجَلَسَاتِ الْمَاضِيَةِ، كَانُوا كَمَنْ يُبْجَرُ فِي أَرْخَبِيلٍ شَاسِعٍ، يَكْتَشِفُونَ جَزِيرَةَ بَعْدَ أُخْرَى: جَزِيرَةُ الرُّوحِ، فَجَزِيرَةُ النَّفْسِ، فَجَزِيرَةُ الْحَوَاسِّ، وَهَلَمْ جَرًّا. وَكَانَ سُؤَالُ زَيْنَبَ الْأَخِيرُ، الْمُنْبَعِثُ مِنْ شَوْقِهَا الْغَمِيقِ لِلْوَحْدَةِ وَالتَّرْكِيبِ، هُوَ الدَّعْوَةُ لِلنَّظَرِ إِلَى الْأَرْخَبِيلِ كُلِّهِ مِنْ عَلٍ، لِإِدْرَاكِ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْجُزُرِ تَرْتَبِطُ بِنِعْضِهَا تَحْتَ سَطْحِ الْمَاءِ، وَتُشَكِّلُ قَارَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً مَرْكَزَهَا وَعَاصِمَتُهَا "الْقَلْبُ".

اسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجَلْسَةَ بِنَظَرَةٍ تَحْمِلُ تَقْدِيرًا عَمِيقًا لِزَيْنَبَ. قَالَ:

«لَقَدْ قَادَتْنَا بِصِيرَتِكَ الْأُصُولِيَّةُ يَا زَيْنَبُ إِلَى نُقْطَةِ الْخِتَامِ الْمِثَالِيَّةِ لِهَذَا الْأَبَابِ مِنْ رَحَلَتِنَا. لَقَدْ لَاحَظْتُ بِحَقِّ أَنَّ كُلَّ الْخُيُوطِ الَّتِي نَسَجْنَاهَا، مِنْ "الْتَعَقُّلِ" إِلَى "الْعِلْمِ" إِلَى "الْإِيمَانِ"، كَانَتْ تَعُودُ دَائِمًا لِتَلْتَقِي فِي مَرْكَزٍ وَاحِدٍ: الْقَلْبُ. اللَّيْلَةُ، لَنْ نَكْتَشِفَ أَرْضًا جَدِيدَةً، بَلْ سَتَقِفُ فِي قَاعَةِ الْعَرْشِ فِي عَاصِمَةِ الْمَمْلَكَةِ، لِنَرَى كَيْفَ تُدَارُ الشُّؤُونُ مِنْهَا، وَكَيْفَ أَنَّ "الْقَلْبَ" لَيْسَ مُجَرَّدَ غُضُو مِنْ أَعْضَاءِ الْوَعْيِ، بَلْ هُوَ الْمَوْحَدُ الْأَعْظَمُ الَّذِي تَنْصَهَرُ فِيهِ كُلُّ الْوُطَائِفِ الْعُلْيَا لِلْإِنْسَانِ.»

قَالَ مُعَادًا، وَكَأَنَّهُ يُلْقِي بِآخِرِ أُغْيَرَاصَاتِهِ الْكُبْرَى:

«شَيْخَنَا، أَتَفْهَمُ الْأَهَمِّيَّةَ الْمَجَارِيَّةَ لِلْقَلْبِ. وَلَكِنْ حِينَ نَجْعَلُهُ "الْمَوْحَدَ الْأَعْظَمَ" الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ الْمَعْرِفَةُ وَالْإِيمَانُ وَالتَّعَقُّلُ، أَخْشَى أَنَّ نَقُومَ بِخُطْوَةٍ تَتَجَاوَزُ الشَّعْرَ إِلَى مَا يُخَالِفُ الْوَاقِعَ الطَّبِيعِيَّ. إِنَّ الدِّمَاغَ، وَتَحْدِيدًا الْفُصُوصَ الْأَمَامِيَّةَ، هُوَ مَرَكَزُ التَّرْكِيبِ وَالتَّخْطِيطِ وَاتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ. فَيَجْعَلُ "الْقَلْبَ" هُوَ الْعَاصِمَةَ، أَلَا نُعَادِرُ أَرْضَ التَّعَقُّلِ الَّذِي قَضَيْنَا كُلَّ هَذَا الْوَقْتِ فِي تَأْسِيسِهِ؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ بِهَدْوٍ وَعُمُقٍ:

«بَلْ نَحْنُ نَدْخُلُ إِلَى أَعْمَقِ مَرَاتِبِ التَّعَقُّلِ يَا مُعَاذُ. لَمْ يَقُلِ الْقُرْآنُ قَطُّ إِنَّ الدِّمَاغَ لَا يَفْكَرُ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي تَشْرِيحِ وَطَائِفِيَّ. وَلَكِنَّهُ يَقْدِمُ لَنَا فَهْمًا لِلْوَعْيِ يَرَى فِيهِ أَنَّ "الْقَلْبَ" هُوَ مَرَكَزُ الثَّقَلِ الْوُجُودِيِّ لِلْإِنْسَانِ. هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يُصْبِحُ فِيهِ "الْفِكْرُ" "قِنَاعَةً"، وَ"الْمَعْلُومَةُ" "إِيمَانًا"، وَ"الْمَعْرِفَةُ" "بَصِيرَةً". إِنَّهُ لَيْسَ مَرَكَزًا لِلْعَاطِفَةِ فِي مُقَابِلِ "الْعَقْلِ"، بَلْ هُوَ الْمَرَكَزُ الَّذِي يَتَعَقَّلُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بِكُلِّ كَيْانِهِ. وَلِهَذَا التَّعَقُّلُ الْقَلْبِيُّ ثَلَاثَةُ مَظَاهِرَ أَوْ وَطَائِفَ كُبْرَى تَجْمَعُ كُلُّ مَا تَعَلَّمْنَاهُ: التَّفَقُّهُ وَالتَّذَكُّرُ وَالْإِعْتِبَارُ.»

«لِنَبْدَأَ بِالْوُضُوفَةِ الْأُولَى وَالْأَعْلَى: مَظْهَرُ التَّفَقُّهِ.»

«لَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يَسْتَخْدِمُ مُصْطَلَحًا أَعْمَقَ لِيَصِفَ الْفَهْمَ الرَّاسِخَ، وَهُوَ "الْفَقْهُ". وَالْفَقْهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَعْرِفَةٍ الظَّوَاهِرِ، بَلْ هُوَ إدْرَاكُ الْغَايَاتِ وَالْمَقَاصِدِ الْبَاطِنَةِ. وَلِهَذَا تَأْتِي الدَّعْوَةُ الْعَظِيمَةُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿قُلُوا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾. "التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ" لَيْسَ حِفْظُ نُصُوصِهِ، بَلْ هُوَ الْغَوْصُ فِي أَعْمَاقِهِ لِفَهْمِ حِكْمَتِهِ وَأَسْرَارِهِ وَمَقَاصِدِهِ. وَهَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ الْعَمِيقَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا فِي الْقَلْبِ. فَالْقَلْبُ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ صَاحِبَهُ بَصِيرَةً فِي

الَّذِينَ وَالْحَيَاةَ، وَيُحَوِّلُ الْعِلْمَ إِلَى عِلْمٍ مَقْرُونٍ بِالْهُدَى.»
قَالَتْ زَيْنَبُ:

«هَذَا يَحُلُّ لِي إِشْكَالًا كَبِيرًا، لَطَالَمَا تَسَاءَلْتُ: لِمَاذَا قَدْ يَفْرَأُ رَجُلَانِ نَفْسَ الْكِتَابِ، وَيَحْفَظَانِ نَفْسَ النُّصُوصِ، فَيَخْرُجُ أَحَدُهُمَا بِفَقْهِ سَمَحٍ وَمُسْتَنِيرٍ، وَيَخْرُجُ الْآخَرُ بِفَقْهِ مُتَشَدِّدٍ وَمُنْعَلِقٍ؟ الْآنَ أَرَى الْجَوَابَ. الْمُدْخَلَاتُ وَاجِدَةٌ، لَكِنَّ "مَرْكَزَ الْمُعَالَجَةِ" مُخْتَلِفٌ. أَحَدُهُمَا "تَفَقُّهُ" بِقَلْبٍ حَيٍّ، وَالْآخَرُ حَلَّلَ بِذِهْنٍ مُجَرَّدٍ.»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«تَمَامًا. فَالْقَلْبُ الْحَيُّ هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى "رُوحَ النَّصِّ"، لَا "حَرْفَهُ" فَقَطْ. وَهُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَارِنَ بَيْنَ النُّصُوصِ الْمُخْتَلِفَةِ لِيَصِلَ إِلَى الْمَقْصِدِ الْكُلِّيِّ.»

«وَلَكِنْ،» وَاصَلَ الْإِمَامُ، «هَذَا "التَّفَقُّهُ" الْعَمِيقُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ فِي فَرَاغٍ. إِنَّ الْقَلْبَ يَحْتَاجُ إِلَى مَادَّةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا. وَهُنَا تَأْتِي الْوُظَيْفَةُ الثَّانِيَّةُ لِلتَّعَقُّلِ الْقَلْبِيِّ، وَهِيَ مَظْهَرُ التَّذَكُّرِ.»

«قَدْ تَحَدَّثْنَا عَنِ "التَّذَكُّرِ" كَمَقَامٍ وَكَمَنْهَجٍ، وَلَكِنَّا نَرَاهُ هُنَا كَوُظَيْفَةٍ أَصِيلَةٍ لِلْقَلْبِ. فَالْقَلْبُ الْحَيُّ هُوَ "قَلْبٌ ذَاكِرٌ". إِنَّهُ فِي حَالَةٍ اتِّصَالٍ دَائِمٍ بِ"ذَاكِرَتِهِ" الْكُبْرَى، يَسْتَخْضِرُ مِنْهَا الْآيَاتِ وَالْعِبَرَ وَالنَّعَمَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ. إِنَّهُ الْوُظَيْفَةُ الَّتِي تَرْبِطُ حَاضِرَ الْإِنْسَانِ بِمَاضِيهِ وَبِالْحَقَائِقِ الْكُبْرَى. وَلِذَلِكَ تَقُولُ آيَةُ سُورَةِ قِ الَّْتِي مَرَّتْ بِنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾. لَمْ تَقُلْ "لِمَنْ كَانَ لَهُ ذِهْنٌ"، لِأَنَّ الذِّكْرَ الْتَّافِعَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ اسْتِرْجَاعِ مَعْلُومَةٍ، بَلْ هِيَ "حُضُورُ" الْمَعْلُومَةِ بِكُلِّ ثَقَلِهَا الْوُجْدَانِيِّ

وَالْإِيمَانِيَّ فِي قَلْبِ الْمُتَذَكِّرِ. هَذَا التَّذَكُّرُ هُوَ الَّذِي يُجَدِّدُ الْإِيمَانَ وَيُثَبِّتُ الْوَعْيَ.»

«فَإِذَا "تَفَقَّهَ" الْقَلْبُ وَ"تَذَكَّرَ"، فَإِنَّهُ يَصِيرُ مُؤَهَّلًا لِلْقِيَامِ بِوُظُفِيَّتِهِ الثَّالِثَةِ وَالْأَرْفَعِ، وَهِيَ مَظْهَرُ الْإِعْتِبَارِ.»

«"الْإِعْتِبَارُ" هُوَ الْقُدْرَةُ الْخَلَاقَةُ لِلْقَلْبِ عَلَى اخْتِزَانِ الْأَحْدَاثِ الْجُزْئِيَّةِ، سَوَاءً كَانَتْ تَارِيخِيَّةً أَوْ شَخْصِيَّةً، وَأُسْتِنَاجِ الْقِيَمِ وَالْأَدْرُوسِ الْكَلْبِيَّةِ مِنْهَا. إِنَّهَا الْوُظُفِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَرَى الْغَايَاتِ مِنْ خِلَالِ الْوَقَائِعِ. إِنَّهَا تَنْفِذُ لِأَمْرِ الْإِلَهِيِّ: «فَاعْتَبِرُوا يَتَاوَلِي الْأَبْصَارِ»، وَ"أَوَّلُ الْأَبْصَارِ" هُمْ أَوَّلُ الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ الَّتِي تَمْلِكُ بِصِيرَةٍ.»

«وَلِنَقَمِ بِتَمَرِينِنَا التَّطْبِيقِيِّ عَلَى سُورَةِ الْحَشْرِ، لِنَرَى هَذِهِ الْوُظَايِفَ الْقَلْبِيَّةَ فِي تَجَلِّ مُتَكَامِلٍ. تَبْدَأُ السُّورَةُ بِذِكْرِ قِصَّةِ إِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ، وَهُمْ قَبِيلَةٌ يَهُودِيَّةٌ نَقَضَتْ عَهْدَهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ. هَذَا حَدَثٌ تَارِيخِيٌّ.»

«يَأْتِي الْقَلْبُ الْمُتَعَقِّلُ فَيَقُومُ أَوَّلًا بِوُظُفِيَّةِ التَّذَكُّرِ: يَتَذَكَّرُ الْأَحْدَاثَ، يَتَذَكَّرُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي أَنَّ الْخِيَانَةَ لَهَا عَوَاقِبُ. ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْإِعْتِبَارِ: يَعْبرُ مِنَ الْحَدَثِ الْخَاصِّ إِلَى الْعِبْرَةِ الْعَامَّةِ، وَهِيَ أَنَّ الْخُصُوفَ الْمَادِّيَّةَ لَا تَحْمِي أَصْحَابَهَا إِذَا تَخَلَّى عَنْهُمْ الْحِفْظُ الْإِلَهِيُّ. ثُمَّ يَرْتَقِي إِلَى التَّفَقُّهِ: يَفْهَمُ الْقَضِيَّةَ فِي إِطَارِهَا الْأَوْسَعِ، إِطَارِ الصَّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَاهْمِيَّةَ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ فِي عَقِيدَةِ الْمُؤْمِنِ. هَكَذَا، يُحَوِّلُ الْقَلْبُ قِصَّةَ تَارِيخِيَّةٍ إِلَى مَصْدَرٍ لِلْفِقهِ وَالْأُطْمِئْنَانِ وَالْحِكْمَةِ.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ السَّادِسَةَ وَالْعِشْرِينَ، وَهِيَ خِتَامُ هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ:

«الْقَلْبُ هُوَ عَاصِمَةُ مَمْلَكَةِ التَّعَقُّلِ فِي الْقُرْآنِ، وَتَجَلَّى فِيهِ ثَلَاثُ وَظَائِفَ عُلْيَا: التَّفَقُّهُ (لِلْفَهْمِ الْعَمِيقِ)، وَالتَّذَكُّرُ (لِلأَسْتِخْصَارِ الْآيَاتِ)، وَالْأَعْتِبَارُ (لِلأَسْتِنْتِاجِ الْقِيَمِ). وَبِتَكَامُلِ هَذِهِ الْوُظَائِفِ، يَصِيرُ الْقَلْبُ هُوَ الْمِيزَانُ الْحَيُّ الَّذِي تَتَّحِدُ فِيهِ حَقَائِقُ الْعِلْمِ وَأَنْوَارُ الْإِيمَانِ.»

سَادَ صَمْتُ طَوِيلٍ وَعَمِيقٍ. كَانَتْ دَائِرَةُ كُبْرَى قَدْ اكْتَمَلَتْ. لَقَدْ أَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ الْآنَ خَرِيطَةٌ شَامِلَةٌ لِلْكَيَانِ الْبَشَرِيِّ مِنْ مَنْظُورِ التَّبَيَّنِ، بِكُلِّ مَلَكَاتِهِ وَمَسَارَاتِهِ وَغَايَاتِهِ وَمَرَائِجِهِ وَمَرَائِزِهِ.

وَكَانَتْ لَيْلَى، الَّتِي تُمَثِّلُ دَائِمًا الشَّوْقَ إِلَى الْحَيَاةِ الْوَاقِعِيَّةِ، هِيَ مَنْ فَتَحَ بَابَ الْمَرْحَلَةِ الْقَادِمَةِ. قَالَتْ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ شُكْرًا وَحَيْرَةً:

«شَيْخَنَا، لَقَدْ بَنَيْتَ لَنَا صَرْحًا عَظِيمًا. نَشْعُرُ الْآنَ أَنَّنَا نَفْهَمُ أَنْفُسَنَا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى. لَقَدْ عَرَفْنَا كَيْفَ تَعْمَلُ الْأَلَةُ فِي حَالَتِهَا الْمَثَالِيَّةِ. وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ لَيْسَتْ مَثَالِيَّةً. إِنَّهَا مَلِيَّةٌ بِالْأَلَمِ وَالْفَقْدَانِ وَالتَّحَدِّيَّاتِ الَّتِي تَهْزُ أَرْكَانَ هَذَا الْبُنْيَانِ الدَّاخِلِيِّ. فَالسُّؤَالُ الْعَمَلِيُّ هُوَ: مَا هِيَ الْفَضِيلَةُ الْأُمُّ، أَوِ الطَّاقَةُ الْأَسَاسِيَّةُ الَّتِي نَحْتَاجُهَا لِنَحَافِظَ عَلَى عَمَلِ هَذَا الْقَلْبِ وَهَذَا التَّعَقُّلِ فِي وَسْطِ عَوَاصِفِ الْحَيَاةِ؟ مَا هُوَ الْوُقُودُ الَّذِي يَجْعَلُ هَذِهِ الرِّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ مُمَكِّنَةً؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ إِبْنِ سَامَةَ عَمِيقَةً.

«لِكُلِّ رِحْلَةٍ زَادٌ يَا لَيْلَى. وَزَادُ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْأَعْظَمُ هُوَ "الصَّبْرُ". وَمَا حِكَايَتُهُ... فَتِلْكَ قِصَّةُ أُخْرَى.»

الْفَصْل 27: زَادُ الرِّحْلَةِ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ شَيْئًا مِنْ وَقَارِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ. لَقَدْ تَرَكَهُمْ حَدِيثُهُمُ الْأَخِيرُ عَنْ غَاصِمَةِ الْمَمْلَكَةِ، "الْقَلْب"، فِي حَالَةٍ مِنَ التَّأَمُّلِ الْعَمِيقِ فِي كَمَالِ الْبُنْيَانِ الْإِنْسَانِيِّ فِي صُورَتِهِ الْمَثَالِيَّةِ. وَلَكِنَّ سُؤَالَ لَيْلَى الْأَخِيرِ، السُّؤَالَ النَّابِعَ مِنْ قَلْبِ الْمَعَانَاةِ الْيَوْمِيَّةِ، كَانَ قَدْ أَعَادَهُمْ جَمِيعًا إِلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ، أَرْضِ الْمَجَاهَدَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ. كَيْفَ لِهَذَا الْبُنْيَانِ الْمَثَالِيِّ أَنْ يَصْمَدَ أَمَامَ عَوَاصِفِ الْحَيَاةِ؟

اسْتَهْلَّ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ بِنَظَرَةٍ مُتَفَهِّمَةٍ إِلَى لَيْلَى، وَقَالَ:

«لَقَدْ أَخَذْنَا بِسُؤَالِكَ يَا لَيْلَى مِنْ وَصْفِ "السَّفِينَةِ" إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ "الْمُحِيطِ" الَّذِي سَتُبْحَرُ فِيهِ. وَصَفْنَا الْخَرَائِطَ، وَحَدَّدْنَا الْوُجُوهَ، وَجَهَّزْنَا الْعُدَّةَ. وَلَكِنَّ الْبَحْرَ هَائِجٌ، وَالرَّحْلَةَ طَوِيلَةٌ، وَلَا بُدَّ لِلْسَّفِينَةِ مِنْ وَقُودٍ، وَلَا بُدَّ لِلْمُسَافِرِ مِنْ زَادٍ. وَزَادُ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْأَعْظَمِ، وَالْفَضِيلَةُ الْأُمُّ الَّتِي لَا تَقُومُ إِلَّا بِهَا، وَالْوَقُودُ الَّذِي لَا تَنْقَطِعُ بِهِ الرِّحْلَةُ، هُوَ مَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مِئَةِ مَوْضِعٍ لِإِعْظَمِ شَأْنِهِ. إِنَّهُ مَقَامُ "الصَّبْرِ".»

بَادَرَ مُعَادًا بِالتَّعْقِيبِ:

«شَيْخَنَا، "الصَّبْرُ" بِمَفْهُومِهِ الْحَدِيثِ يُعَرَّفُ بِـ "الْمُرُونَةِ النَّفْسِيَّةِ" (Resilience) أَوْ "الْمُتَابَرَةِ" (Grit). وَهُوَ مَوْضُوعُ دِرَاسَةٍ مُكْتَفَةٍ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الْإِيجَابِيِّ. وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ كَقُدْرَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ عَلَى تَحْمِلِ الضُّغُوطِ وَالْمُضِيِّ قُدْمًا نَحْوَ الْهَدَفِ. وَكَذَلِكَ الْفَلَسَفَةُ الرُّوَاغِيَّةُ (Stoicism) قَدْ جَعَلَتْ مِنْ تَحْمِلِ الْمَصَائِبِ بِدُونِ شَكْوَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْحِكْمَةِ. فَهَلْ

"الصَّبْرُ" الْقُرْآنِيُّ هُوَ هَذِهِ الْقُوَّةُ النَّفْسِيَّةُ، أَمْ أَنَّ لَهُ طَبِيعَةً مُخْتَلِفَةً؟
أَجَابَ الْإِمَامُ:

«أَنْتَ تُشِيرُ إِلَى ظِلَالِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ يَا مُعَاذُ. فَالصَّبْرُ الْقُرْآنِيُّ يَشْتَرِكُ مَعَ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ فِي "أَثَرِهِ" الظَّاهِرِيِّ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّحَمُّلِ. وَلَكِنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنْهَا إختِلَافًا جَوْهَرِيًّا فِي "مَصْدَرِهِ" وَ"غَايَتِهِ" وَ"كَيْفِيَّتِهِ". فَالصَّبْرُ الرُّوَاقِيُّ قَدْ يَكُونُ تَحَمُّلاً بَارِداً نَابِغاً مِنْ قَنَاعَةٍ بِخُتْمِيَّةِ الْقَدَرِ. وَالصَّبْرُ النَّفْسِيُّ قَدْ يَكُونُ مُجَرَّدَ آيَةٍ لِلتَّكْيُفِ مِنْ أَجْلِ الْبَقَاءِ. أَمَّا الصَّبْرُ فِي الْقُرْآنِ، فَهُوَ فِعْلٌ تَعَقُّلِيٌّ إِيْمَانِيٌّ مُتَوَهِّجٌ، إِنَّهُ لَيْسَ تَحَمُّلاً سَلْبِيًّا، بَلْ هُوَ مُقَاوَمَةٌ إِيْجَابِيَّةٌ، وَصُومُودٌ مُسْتَبِيرٌ. وَهُوَ لَيْسَ مَقَامًا وَاحِدًا، بَلْ هُوَ ثَلَاثَةُ مَقَامَاتٍ مُتَصَاعِدَةٍ، كُلُّ مَقَامٍ مِنْهَا يُؤَسِّسُهُ التَّعَقُّلُ وَيُعْذِيهِ. هَذِهِ الْمَقَامَاتُ هِيَ: الْإِخْتِسَابُ فَالْتَّبَاتُ فَالرِّضَا.»

«لِنَبْدَأَ بِالْمَقَامِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي لِلصَّبْرِ مَعْنَاهُ وَقِيَمَتَهُ: مَقَامُ "الْإِخْتِسَابِ".»

«"الْإِخْتِسَابُ" هُوَ فِعْلٌ تَعَقُّلِيٌّ بَحَثٌ، إِنَّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى النَّظَرِ أَبْعَدَ مِنَ اللَّحْظَةِ الْخَاصَّةِ الْمُؤَلِمَةِ، وَرُؤْيَا الْجَزْأِ وَالْأَجْرِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ. إِنَّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى أَنْ تُدْخَلَ مُعَانَاتُكَ فِي "حِسَابٍ" رُبِحِيٍّ مَعَ اللَّهِ. حِينَ يُصِيبُكَ الْأَلَمُ، فَإِنَّ الْأُسْتِجَابَةَ الْأُولَى لِلنَّفْسِ هِيَ الْجَزَعُ وَالشَّكْوَى. وَلَكِنْ "التَّعَقُّلُ" يَتَدَخَّلُ لِيَهْدِيَ النَّفْسَ وَيُذَكِّرَهَا: "هَذَا الْأَلَمُ لَيْسَ ضَائِعًا، هَذِهِ الدَّمْعَةُ لَيْسَتْ عَبَثًا، إِنَّهَا تُحْتَسَبُ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرًا عَظِيمًا". وَهَذَا الْوَعْدُ الْإِلَهِيُّ هُوَ مَا يُعْطِي الصَّابِرَ الْقُوَّةَ الْهَائِلَةَ لِلتَّحَمُّلِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى الَّذِي يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْأَمَلِ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. "بِغَيْرِ حِسَابٍ"! إِنَّهَا الصَّفْقَةُ الْأَعْظَمُ فِي الوجودِ: تَقَدَّمَ صَبْرًا مَحْدُودًا فِي

زَمَنٍ مَحْدُودٍ، فَتَنَالُ أَجْرًا لَا حُدُودَ لَهُ فِي زَمَنٍ لَا نِهَايَةَ لَهُ. إِنَّ الْقِيَامَ بِهِذِهِ
الْحِسْبَةِ هُوَ فِعْلٌ "الْأُخْتِسَابِ".»

«وَإِذَا نَجَحَ التَّعَقُّلُ فِي إِقَامَةِ هَذَا الْمَقَامِ فِي النَّفْسِ، فَإِنَّهُ يَنْتَقِلُ
بِصَاحِبِهِ إِلَى الْمَقَامِ الثَّانِي، مَقَامُ الْفِعْلِ وَالْمُوَاجَهَةِ: مَقَامُ "الثَّبَاتِ".»

«"الثَّبَاتُ" هُوَ التَّجَلِّيُ الْعَمَلِيُّ لِلصَّبْرِ. إِذَا كَانَ الْأُخْتِسَابُ هُوَ الْقُوَّةُ
الدَّخَلِيَّةُ، فَإِنَّ الثَّبَاتَ هُوَ الصُّمُودُ الْخَارِجِيُّ. إِنَّهُ يَحُولُ الصَّبْرُ مِنْ مُجَرَّدِ
تَحْمُلِ سَلْبٍ إِلَى قُوَّةٍ إِبْجَابِيَّةٍ فِي مُوَاجَهَةِ التَّحْدِيَّاتِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ
رَغْمَ الْمَشَاقِ. وَهَذَا مَا تَأْمُرُ بِهِ آيَةُ آلِ عِمْرَانَ الْجَامِعَةُ، وَهِيَ تَرْسُمُ خَرِيطَةَ
الصُّمُودِ الْكَامِلِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.»

«لَا حِطُّوا هَذَا التَّدَرُّجَ الْعَجِيبَ. ﴿أَصْبِرُوا﴾: هَذِهِ هِيَ الْمَعَانَاةُ
الْفَرْدِيَّةُ، صَبْرُكَ أَنْتَ عَلَى مَرَضِكَ أَوْ فَقْرِكَ، ثُمَّ يَرْتَقِي الْأَمْرُ: ﴿وَصَابِرُوا﴾:
وَهِيَ مِنَ الْمُصَابَرَةِ، أَيُّ مُغَالَبَةِ الْأَخْرَيْنَ فِي الصَّبْرِ. إِنَّهُ الصَّبْرُ الْجَمَاعِيُّ فِي
مُوَاجَهَةِ عَدُوٍّ أَوْ ظُلْمٍ عَامٍّ، ثُمَّ يَرْتَقِي إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْأُسْتَعْدَادِ:
﴿وَرَابِطُوا﴾: وَهُوَ مِنَ الْمُرَابَطَةِ عَلَى الثُّغُورِ، أَيُّ حِرَاسَةِ الْحَقِّ وَالِدِّفَاعِ عَنْهُ
وَالْيَقَظَةِ الدَّائِمَةِ. فَالصَّبْرُ الْحَقِيقِيُّ، كَمَا تَرَوْنَ، لَيْسَ جُلُوسًا فِي الرَّاوِيَةِ
وَانْتِظَارًا لِلْفَرَجِ، بَلْ هُوَ صُمُودٌ وَمُجَاهَدَةٌ وَمُرَابَطَةٌ.»

قَالَتْ زَيْنَبُ:

«هَذَا يُعْطِي لِلصَّبْرِ بُعْدًا عَامًّا وَحَضَارِيًّا. فَهُوَ لَيْسَ فَقَطْ فَضِيلَةً
شَخْصِيَّةً، بَلْ هُوَ أَيْضًا شَرْطٌ لِصَلَاحِ الْمُجْتَمَعِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الصُّمُودِ أَمَامَ
التَّحْدِيَّاتِ.»

أَجَابُ الْإِمَامُ:

«تَمَامًا. فَالْمُجْتَمَعُ الَّذِي يَفْقَدُ فَضِيلَةَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ هُوَ مُجْتَمَعٌ هَشٌّ يَتَدَاعَى عِنْدَ أَوَّلِ أَزْمَةٍ.»

«فَإِذَا أَطْمَأَنَّ النَّفْسُ بِ"الْإِحْتِسَابِ"، وَصَمَدَتِ الْجَوَارِحُ بِ"الثَّبَاتِ"، فَإِنَّ الْكَيَانَ الْبَشَرِيَّ كُلَّهُ يَرْتَقِي إِلَى الْمَقَامِ الْأَعْلَى وَالْأَجْمَلِ مِنْ مَقَامَاتِ الصَّبْرِ، وَهُوَ مَقَامُ الطَّمَأْنِينَةِ الْكَامِلَةِ: مَقَامُ "الرِّضَا".»

«"الرِّضَا" هُوَ أَرْفَعُ دَرَجَاتِ الصَّبْرِ، لِأَنَّهُ يَنْتَقِلُ بِصَاحِبِهِ مِنْ مَرَحَلَةٍ "تَحْمُلٍ" أَلْقَدَرٍ إِلَى مَرَحَلَةٍ "قَبُولٍ" أَلْقَدَرٍ وَالْأَنْسِجَامَ مَعَهُ. إِنَّهَا الْحَالَةُ الَّتِي يَصِلُ فِيهَا الْقَلْبُ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الثِّقَةِ الْمُطْلَقَةِ بِحِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، حَتَّى فِي أَحْلَاكِ اللَّحْظَاتِ. وَأَعْظَمُ تَجَسُّدٍ لِهَذَا الْمَقَامِ هُوَ مَا عَلَّمَنَا اللَّهُ أَنْ نَقُولَهُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رُجْعُونَ﴾.»

«تَأَمَّلُوا فِي عُمُقِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ. إِنَّهَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ عِبَارَةٍ تَعَزِيَّةٍ، بَلْ هِيَ إِعْلَانٌ عَقْدِيٌّ وَفَلَسَفَةٌ حَيَاتِيَّةٌ كَامِلَةٌ. ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: هَذَا إِقْرَارٌ بِالْمِلْكِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ لِلَّهِ. أَنَا، وَأَبْنَائِي، وَمَالِي، وَصِحَّتِي، كُلُّ مَا أَمْلِكُهُ لَيْسَ مِلْكِي حَقِيقَةً، بَلْ هُوَ مِلْكٌ لِلَّهِ أَعَارَنِي إِيَّاهُ لِفَتْرَةٍ. فَإِذَا أَسْتَرَدَّ الْمَالِكُ مِلْكَهُ، فَلَا مَجَالَ لِلْإِعْتِرَاضِ. ثُمَّ ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رُجْعُونَ﴾: هَذَا إِقْرَارٌ بِالْمَصِيرِ الْوَاحِدِ، وَأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا مُجَرَّدُ مَحْظَةٍ عُبُورٍ. هَذَا "التَّعَقُّلُ" الْعَمِيقُ لِحَقِيقَةِ الْمِلْكِيَّةِ وَالْمَصِيرِ هُوَ الَّذِي يُؤَلِّدُ فِي الْقَلْبِ حَالَةَ "الرِّضَا" وَالسَّلَامِ الدَّاخِلِيِّ الْعَجِيبَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْفَقْدِ.»

«وَلَوْ نَظَرْنَا إِلَى أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، لَرَأَيْنَا هَذِهِ الْمَقَامَاتِ مُتَجَسِّدَةً. نَرَى "الْإِحْتِسَابَ" فِي نُوحٍ وَهُوَ يَدْعُو قَوْمَهُ 950 سَنَةً، لَا يَرَى

ثَمَرَةً وَلِكِنَّهُ يَحْتَسِبُ أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ. وَنَرَى "الثَّبَاتَ" فِي مُوسَى وَهُوَ يَقِفُ
أَمَامَ أَعْتَى طَائِفَةٍ فِي الْأَرْضِ، ثَابِتًا لَا يَتَزَعَّزَعُ. وَنَرَى "الرِّضَا" فِي أَعْلَى
صُورِهِ فِي نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ (ص) وَهُوَ يَذْفِنُ أَبْنَهُ إِبْرَاهِيمَ وَيَقُولُ: "إِنَّ الْعَيْنَ
لَتَدْمَعُ، وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضِي رَبَّنَا".»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ السَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ:

«الْتَّعَقُّلُ يُؤَسِّسُ مَقَامَ الصَّبْرِ فِي ثَلَاثَةِ مَرَاتِبٍ: الْأَخْتِسَابُ (وَهُوَ
فِعْلٌ يُوجِّهُ النَّظَرَ إِلَى الْجَزَاءِ فِيَهْدِي النَّفْسَ)، وَالثَّبَاتُ (وَهُوَ فِعْلٌ يُحَوِّلُ
الْتَّحَمُّلَ إِلَى صُمُودٍ وَمُجَاهَدَةٍ)، وَالرِّضَا (وَهُوَ حَالَةٌ تَصِلُ بِالْقَلْبِ إِلَى
الْظَّمَائِنَةِ وَقَبُولِ الْقَدَرِ). وَيَهْدِي الثَّلَاثِيَّ، يُصْبِحُ الصَّبْرُ مَقَامًا عَقْلِيًّا رُوحِيًّا
يُقِيمُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْهُدَى فِي أَخْلَاكِ الظُّرُوفِ.»

سَادَ صَمْتُ عَمِيقٍ. كَانَتْ كَلِمَاتُ الْإِمَامِ قَدْ حَوَّلَتْ مَفْهُومَ الصَّبْرِ
مِنْ كَوْنِهِ شُعُورًا بِالْعَجْزِ وَالْمَرَارَةِ إِلَى كَوْنِهِ مَقَامًا لِلْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْفَهْمِ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ سَلْمَانُ الرَّوَّائِي، وَكَانَهُ يُفَكِّرُ فِي بِنَاءِ قِصَّةٍ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ "الصَّبْرَ"، كَمَا وَصَفْتَهُ، هُوَ الْفَضِيلَةُ الَّتِي تَجْعَلُ بَظِلَ
الْقِصَّةِ يَقِفُ صَامِدًا فِي أَخْلَاكِ فُضُولِ الرُّوَايَةِ. إِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالتَّعَامُلِ مَعَ
"الْحَاضِرِ الصَّعْبِ". وَلَكِنْ، مَا هِيَ الْفَضِيلَةُ الَّتِي تَجْعَلُهُ يَقِلْبُ الصَّفْحَةِ
أَصْلًا، مُتَوَقِّعًا أَنَّ الْفَضْلَ الْقَادِمَ سَيَكُونُ أَفْضَلَ؟ إِنَّ الصَّبْرَ وَحْدَهُ قَدْ يَبْدُو
رِفَاعِيًّا أَوْ حَتَّى قَاتِمًا. فَمَا هِيَ الْقُوَّةُ الْمُحَرِّكَةُ الَّتِي تَدْفَعُهُ نَحْوَ الْمُسْتَقْبَلِ؟
مَا هِيَ عِلَاقَةُ الْتَّعَقُّلِ بِ"الْأَمَلِ"؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتٌ فِي مَنْطِقِ الْبَيَانِ

«لَا يُمَكِّنُ لِسَفِينَةِ الصَّبْرِ أَنْ تُبْجَرَ طَوِيلًا دُونَ شِرَاعٍ يَدْفَعُهَا نَحْوَ
الْأُفُقِ. وَهَذَا الشِّرَاعُ الْعَظِيمُ هُوَ "الْرَّجَاءُ". وَمَا حِكَايَتُهُ... فَيَلْكَ قِصَّةُ
أُخْرَى.»

الْفَصْلُ 28: شِرَاعُ السَّفِينَةِ

كَانَتْ أَجَوَاءُ الْمَجْلِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ تَحْمِلُ شَيْئًا مِنَ الْإِشْرَاقِ الْهَادِي بَعْدَ الْحَدِيثِ الْعَمِيقِ عَنْ جَبَلِ الصَّبْرِ الشَّاهِقِ. لَقَدْ تَعَلَّمَ الطُّلَابُ كَيْفَ يَكُونُ التَّحْمُلُ فِعْلًا إِبْجَائِيًّا وَقُوَّةً عَاقِلَةً. وَلَكِنَّ سُؤَالَ سَلْمَانَ الْأَخِيرَ كَانَ قَدْ فَتَحَ نَافِذَةً عَلَى جَانِبٍ آخَرَ مِنَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، الْجَانِبِ الَّذِي يَتَطَلَّعُ دَائِمًا إِلَى الْعَدُوِّ، وَيَبْتَخِثُ عَنِ النُّورِ فِي نِهَايَةِ النَّقِيِّ.

اسْتَهْلَّ الْإِمَامُ الْجُلُوسَةَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى سَلْمَانَ:

«لَقَدْ أَصَبْتَ بِسُؤَالِكَ يَا سَلْمَانُ. فَ"الصَّبْرُ" هُوَ هَيْكَلُ السَّفِينَةِ الْمُتَمِينِ الَّذِي يُمَكِّنُهَا مِنْ مُوَاجَهَةِ الْأُمُوجِ الْعَاقِبِيَّةِ دُونَ أَنْ تَتَحَطَّم. وَلَكِنَّ الْهَيْكَلَ وَحْدَهُ لَا يَحْرِّكُ السَّفِينَةَ. لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قُوَّةٍ دَافِعَةٍ، مِنْ شِرَاعٍ عَظِيمٍ يَلْتَقِظُ أَنْفَاسَ الرَّحْمَةِ الْآتِيَةِ مِنَ الْأُفُقِ وَيَدْفَعُ السَّفِينَةَ إِلَى الْأَمَامِ. هَذَا الشِّرَاعُ هُوَ "الرَّجَاءُ".»

قَالَ مُعَاذٌ بِنَبَرَةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ:

«شَيْخَنَا، إِنَّ "الْأَمَلَ" أَوْ "الرَّجَاءَ" هُوَ مَوْضُوعٌ دَسِمٌ فِي عِلْمِ النَّفْسِ. يَنْظُرُ إِلَيْهِ غَالِبًا عَلَى أَنَّهُ "تَحْيِزٌ تَفَاوُلِيٌّ" (Optimism Bias)، وَهُوَ مَيْلٌ فِطْرِيٌّ لَدَى الْبَشَرِ لِتَوْقَعِ نَتَائِجَ إِبْجَائِيَّةٍ حَتَّى لَوْ كَانَتِ التَّبَيِّنَاتُ لَا

تَدْعُمْ ذَلِكَ. يَرَى بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّنْظِيرِ أَنَّهُ آيَّةٌ تَكْثِفُ نَفْسِيَّةَ صَرُورِيَّةِ
لِتَحْفِيزِنَا عَلَى الْمَضِيِّ قُدِّمًا فِي وَجْهِ الصَّعَابِ. فَهَلِ "الرَّجَاءُ" الَّذِي
تَتَحَدَّثُ عَنْهُ هُوَ هَذِهِ الْآيَّةُ النَّفْسِيَّةُ، أَمْ هُوَ شَيْءٌ آخَرُ؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ لـ
"الْتَّعَقُّلِ"، الَّذِي يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ وَاقِعِيًّا، أَنْ يُؤَسِّسَ لِحَالَةٍ قَدْ تَكُونُ
مُخَالِفَةً لِلْوَاقِعِ أَحْيَانًا؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«أَنْتَ تَصِفُ بِدَقِّقَةٍ مَا يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ "الْتَّمَنِّي" أَوْ "الْأَمَانِي"، وَهُوَ
الرَّجَاءُ الْمُنْفَصِلُ عَنِ الْعَمَلِ وَالْتَّعَقُّلِ، وَهُوَ مَا يَذُمُّهُ الْقُرْآنُ. أَمَّا "الرَّجَاءُ"
الْقُرْآنِيُّ، فَهُوَ لَيْسَ تَحْيِيزًا تَفَاوُلِيًّا أَعْمَى، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ آيَةٍ تَكْثِفُ. إِنَّهُ حَالَةٌ
تَعَقُّلِيَّةٌ إِيْمَانِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ وَمُتَوَازِنَةٌ. إِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ "أَمَلٍ"، بَلْ هُوَ مِيزَانٌ
دَقِيقٌ يَقُومُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَقِيمَ إِلَّا بِهَا: الْخَوْفُ وَالتَّوَكُّلُ
وَالْأَمَلُ.»

«وَقَدْ يَبْدُو غَرِيبًا أَنْ نَبْدَأَ الْحَدِيثَ عَنِ الرَّجَاءِ بِذِكْرِ نَقِيضِهِ. وَلَكِنَّ
الرُّكْنَ الْأَوَّلَ الَّذِي يَحْمِي الرَّجَاءَ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى غُرُورٍ وَتَوَهُّمٍ هُوَ
الْخَوْفُ.»

«لَيْسَ أَيُّ خَوْفٍ.» اسْتَدْرَكَ الْإِمَامُ بِسُرْعَةٍ، «فَهَنَّاكَ أَنْوَاعٌ مِنَ
الْخَوْفِ مُدْمِرَةٌ وَمُعْظَلَةٌ لِلْتَّعَقُّلِ: الْخَوْفُ مِنَ النَّاسِ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفَقْرِ،
وَالْخَوْفُ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ. هَذِهِ كُلُّهَا مَخَاوِفٌ يَدْعُونَا الْقُرْآنُ لِلتَّحَرُّرِ مِنْهَا. أَمَّا
الْخَوْفُ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ، إِنَّهُ "الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ".
وَهُوَ لَيْسَ خَوْفُ الرُّعْبِ الْمُسِئِلِ، بَلْ هُوَ خَوْفُ "الْهَيْبَةِ وَالْإِجْلَالِ وَالْمَحَبَّةِ".
إِنَّهُ الْوَعْيُ الْعَمِيقُ بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ وَعَدْلِهِ، وَالْوَعْيُ الصَّادِقُ بِتَفْصِيرِ النَّفْسِ
وَزَلَاتِهَا. وَهَذَا الْخَوْفُ هُوَ نِتَاجُ "تَعَقُّلٍ" عَمِيقٍ. فَكَلَّمَا أَزْدَادَ الْمَرْءُ عِلْمًا

بِاللَّهِ، أُرْدَادَ لَهُ خَشْيَةً وَهَيْبَةً. وَلِذَلِكَ يَأْتِي الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ حَاسِمًا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وَوَضِيقُهُ هَذَا الْخَوْفُ هِيَ أَنْ يَكُونَ كَالسَّبَاحِ الْوَاقِي لِشَجَرَةِ الرَّجَاءِ، فَيَحْمِيهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي "الْعُرُورِ" وَ"الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ".

«فَإِذَا مَا تَأَسَّسَ هَذَا الْخَوْفُ الْمَوْجَّهُ، وَالَّذِي يُبْقِي الْمَرْءَ فِي خَالَةٍ مِنَ الْيَقَظَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ، يَأْتِي الرُّكْنُ الثَّانِي، الَّذِي هُوَ الْحِسْرُ بَيْنَ الْحَالِ الْبَاطِنِيِّ وَالْفِعْلِ الظَّاهِرِيِّ. إِنَّهُ التَّوَكُّلُ.»

«التَّوَكُّلُ» هُوَ التَّجَلِّي الْعَمَلِيُّ لِلرَّجَاءِ. وَهُوَ مِنْ أَدَقِّ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي يُسَاءُ فَهْمُهَا. فَالْكَثِيرُونَ يَخْطِئُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ "التَّوَكُّلِ"، وَهُوَ الْكَسَلُ وَالْفُغُودُ. أَمَّا "التَّوَكُّلُ" الْفَرَائِغُ فَهُوَ مَقَامٌ تَعَقُّلِي عَظِيمٌ يَقُومُ عَلَى جَزَائِنٍ لَا يَنْفَصِلَانِ: الْجُزْءُ الْأَوَّلُ هُوَ "الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ"، أَيُّ أَنْ تَبْذُلَ كُلَّ مَا فِي وَسْعِكَ الْبَشَرِيِّ مِنْ تَخْطِيطٍ وَعَمَلٍ وَجُهْدٍ. وَالْجُزْءُ الثَّانِي، بَعْدَ اسْتِنْفَادِ الْأَسْبَابِ، هُوَ "تَفْوِضُ النِّتَائِجِ" لِلَّهِ بِثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ. إِنَّهُ فِعْلٌ "إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ". وَهَذَا التَّوَكُّلُ هُوَ الَّذِي يُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنْ قَلْقِ النِّتَائِجِ الَّذِي يَشُلُّ الْحَرَكَةَ، وَيَجْعَلُهُ يُقَدِّمُ عَلَى الْفِعْلِ بِشَجَاعَةٍ وَطَمَائِينَةٍ، لِعِلْمِهِ أَنَّهُ فَعَلَ مَا عَلَيْهِ، وَأَنَّ الْبَاقِيَ عَلَى مَنْ هُوَ أَحْكَمُ وَأَقْدَرُ. وَلِذَلِكَ تَأْتِي الْبُشْرَى الْعَظِيمَةُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. أَيُّ هُوَ كَافِيهِ، وَنِعْمَ الْكَافِي.»

«فَإِذَا مَا صَبَطَ "الْخَوْفُ" النَّفْسَ، وَحَرَكَ "التَّوَكُّلُ" الْجَوَارِحَ، فَإِنَّ الْقَلْبَ يَصِيرُ مُهَيَّأً لاسْتِقْبَالِ النُّورِ الْكَامِلِ، الْأَفْقِ الْمَفْتُوحِ عَلَى الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ. هَذَا هُوَ الرُّكْنُ الثَّلَاثُ: الْأَمَلُ.»

«الْأَمَلُ» هُوَ الثِّقَةُ الْجَازِمَةُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، مَهْمَا بَلَغَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ أَوْ عَظُمَتْ مَصَائِبُهُ. إِنَّهُ التَّقْيِصُ الْكَامِلُ لـ"الْقَنُوطِ"

وَالْيَأْسُ"، الَّذِينَ يَعُدُّهُمَا الْقُرْآنُ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ الْقَلْبِيَّةِ. فَلَا يَبَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ. وَلِتَرْسِخْ هَذَا الْأَمَلُ، تَأْتِي الْآيَةُ الْأَوْسَعُ وَالْأَرْحَمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، يَدَاءُ لِكُلِّ الْبَشَرِيَّةِ الْمُثْقَلَةِ بِالْهُمُومِ وَالْخَطَايَا: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. إِنَّهَا تَدْعُو الْمُسْرِفَ عَلَى نَفْسِهِ، فَكَيْفَ يَغْيِرُهُ؟ هَذَا الْأَمَلُ هُوَ الَّذِي يُمِدُّ الْمُؤْمِنَ بِقُوَّةٍ لِلتَّجَدُّدِ الدَّائِمِ، وَيَجْعَلُ بَابَ التَّوْبَةِ وَالْعُودَةِ مَفْتُوحًا أَبَدًا.»

«وَلَعَلَّ أَعْظَمَ تَجْسِيدٍ لِهَذِهِ الْمَلْحَمَةِ الْمُعَقَّدَةِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْأَمَلِ، هُوَ مَا نَرَاهُ فِي قِصَّةِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ. لَقَدْ كَانَتْ حَيَاتُهُ سِلْسِلَةً مِنَ الْفَقْدِ وَالْأَلَمِ. نَرَى الْخَوْفَ الْمُتَعَقِّلَ حِينَ قَالَ لِأَبْنَائِهِ: «وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ»، فَقَدْ أَخَذَ بِالْأَسْيَابِ الظَّاهِرَةِ. وَنَرَى التَّوَكُّلَ الْعَظِيمَ حِينَ دَفَعَ بِهِمْ وَبِأَبْنَيْهِ الثَّانِي قَائِلًا: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾. وَأَخِيرًا، بَعْدَ عُقُودٍ مِنَ الْفِرَاقِ وَالْحُزَنِ، نَرَى الْأَمَلَ الَّذِي لَا يَمُوتُ يَتَجَلَّى فِي قَوْلِهِ الْخَالِدَةِ: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾.»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ الثَّامِنَةَ وَالْعِشْرِينَ:

«التَّعَقُّلُ هُوَ الْوَيْزَانُ الَّذِي يُقِيمُ مَقَامَ "الرَّجَاءِ" عَلَى أَرْكَانِهِ الثَّلَاثَةِ: فَيَجْعَلُ "الْخَوْفَ" حَارِسًا لَهُ مِنَ الْغُرُورِ، وَيَجْعَلُ "التَّوَكُّلَ" مِنْهَجًا لَهُ فِي الْعَمَلِ، وَيَجْعَلُ "الْأَمَلَ" أَفَقًا لَهُ نَحْوَ الرَّحْمَةِ. وَبِهَذَا الْوَيْزَانِ، يَصِيرُ الرَّجَاءُ نُورًا يَدْفَعُ الْقَلْبَ نَحْوَ الثَّبَاتِ وَالْإِيمَانِ، لَا وَهْمًا يُغْرِقُ النَّفْسَ فِي الْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ.»

سَادَ صُمْتُ عَمِيقٌ. كَانَ الطُّلَابُ يَتَأَمَّلُونَ فِي هَذَيْنِ الْجَنَاحَيْنِ

الْعَظِيمَيْنِ - الصَّبْرُ وَالرَّجَاءُ - الَّذِينَ بِهِمَا يَطِيرُ الْمُؤْمِنُ فِي سَمَاءِ الْحَيَاةِ.
كَانَ أَرِسْطُو الصَّغِيرُ، الَّذِي كَانَ يُحِبُّ الْبِنَاءَاتِ الْفِكْرِيَّةَ الْمُكْتَمِلَةَ،
هُوَ مَنْ تَكَلَّمَ أَحْيَرًا. قَالَ:

«شَيْخَنَا، أَشْعُرُ أَنَّنَا قَدْ أَكْمَلْنَا دَوْرَةَ كَامِلَةٍ. لَقَدْ بَنَيْنَا هَيْكَلَ التَّعَقُّلِ
بِمَكُونَاتِهِ، ثُمَّ رَأَيْنَا كَيْفَ يَنْمُو عَبْرَ الْمَقَامَاتِ وَالْمَرَاتِبِ، ثُمَّ حَدَدْنَا مَقَاصِدَهُ
الْكُبْرَى، ثُمَّ اسْتَعْرَضْنَا مَنَاهِجَهُ وَأَدَوَاتِهِ وَمَرَكَزَهُ، ثُمَّ رَأَيْنَا آثَارَهُ فِي النَّفْسِ
وَالْمُجْتَمَعِ، وَأَخِيرًا تَزَوَّدْنَا بِزَادِ الصَّبْرِ وَالرَّجَاءِ. يَبْدُو لِي أَنَّ نِتَاجَ كُلِّ هَذِهِ
الرَّحْلَةِ هُوَ بِنَاءُ مَنْظُومَةٍ مُتَرَاتِبَةٍ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْقِيَمِ فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ.
فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تُعْطِينَا نَظْرَةً خِتَامِيَّةً عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ؟ كَيْفَ يَعْمَلُ التَّعَقُّلُ
كَسُلْمٍ نَزَقِي بِهِ فِي عَالَمِ الْمَعَارِفِ وَالْقِيَمِ؟»

أَبْتَسَمَ الْإِمَامُ.

«لَقَدْ أَحْسَنْتَ الْجَمْعَ وَالْخِتَامَ يَا أَرِسْطُو. فَبَعْدَ أَنْ تَكْتَمِلَ الْأَدَوَاتُ
وَتَتَّضِحَ الْغَايَةُ، لَا بُدَّ مِنْ نَظْرَةٍ أَخِيرَةٍ عَلَى شَكْلِ الْبِنَاءِ نَفْسِهِ. وَهَذِهِ... هِيَ
قِصَّتُنَا الْفَادِمَةُ.»

الفصل 29: السُّلَمُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْقِيَمَةِ

جَاءَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ وَكَانَتْهَا تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا سُعُورًا يَفْزُبُ خِتَامَ مَرَحَلَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الرِّحَلَةِ. الْوُجُوهُ الَّتِي جَلَسَتْ فِي الْحَلْفَةِ لَمْ تَعُدْ كَمَا كَانَتْ فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى. لَقَدْ حَفَرَتْ عَلَى مَلَامِحِهَا آثَارُ الْغُوصِ الْفِكْرِيِّ الْعَمِيقِ، وَاتَّسَعَتْ أَعْيُنُهَا لِتَرَى خَرَائِطَ لَمْ تَكُنْ تَحْلُمُ بِوُجُودِهَا. كَانَ سُؤَالُ أَرِسْطُو الْأَخِيرِ، السُّؤَالُ عَنْ "الْبِنَاءِ الْهَرَمِيِّ" لِلْمَعَارِفِ وَالْقِيَمِ، يُمَثِّلُ الرَّغْبَةَ الْأَخِيرَةَ فِي رُؤْيَا الصُّورَةِ النَّهَايِيَّةِ لِكُلِّ مَا تَعَلَّمُوهُ.

اسْتَهَلَّ الْأَمَامُ الْجُلُوسَةَ بِنَظَرَةٍ هَادِئَةٍ إِلَى أَرِسْطُو، وَقَالَ:

«لَقَدْ طَلَبْتَ يَا أَرِسْطُو أَنْ نَنْظُرَ إِلَى "الْمُخَطَّطِ الْهِنْدَسِيِّ" النَّهَايِيِّ. طَلَبْتَ أَنْ نَرَى كَيْفَ يَعْمَلُ "الْتَعَقُّلُ" كَسُلْمٍ يَرْتَقِي بِنَا فِي بِنَاءٍ مُتَدَرِّجٍ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْقِيَمِ. وَهَذِهِ بِالْفِعْلِ هِيَ الْقِطْعَةُ الْأَخِيرَةُ فِي أَحْجِيَّتِنَا: أَنْ نَرَى "الْتَعَقُّلَ" لَا كَأَدَاةٍ مُنْفَصِلَةٍ، بَلْ كـ "مِفْصَلٍ" حَيَوِيٍّ، كَالْجِسْرِ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ عَالَمٍ "مَا هُوَ كَائِنٌ" (عَالَمِ الْمَعْرِفَةِ) وَعَالَمٍ "مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ" (عَالَمِ الْقِيَمِ).»

قَالَ مُعَادًا، وَقَدْ أَدْرَكَ عَلَى الْفَوْرِ الْعُمَقَ الْفَلَسَفِيِّ لِهَذِهِ النُّقْطَةِ:

«شَيْخَنَا، هَذِهِ هِيَ "مُشْكِلَةُ الْكَائِنِ وَالْوَاجِبِ" (Is-Ought Problem) الَّتِي تُعَدُّ مِنْ أَكْبَرِ التَّحَدِّيَّاتِ فِي الْفَلَسَفَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ مُنْذُ الْفِيلَسُوفِ دِيْفِيدِ هِيُوم. إِنَّهُ يَرَى أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُكَ مَنْطِقِيًّا أَنْ تَسْتَنْتِجَ عِبَارَةً "وَاجِبَةً" (قِيَمَةً) مِنْ عِبَارَةٍ "كَائِنَةٍ" (حَقِيقَةٍ وَصْفِيَّةٍ). فَالْعِلْمُ يَصِفُ لَنَا الْوَاقِعَ كَمَا "هُوَ"، أَمَّا الْأَخْلَاقُ فَتُخْبِرُنَا بِمَا "يَجِبُ" أَنْ نَفْعَلَهُ. وَهُمَا مَجَالَانِ مُنْفَصِلَانِ. فَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِلتَّعْقُلِ أَنْ يَكُونَ "جِسْرًا" بَيْنَهُمَا إِذَا كَانَتِ الْهُوَّةُ الْمَنْطِقِيَّةُ بَيْنَهُمَا لَا يُمَكِّنُ رَدْمُهَا؟»

أَجَابَ الْإِمَامُ:

«إِنَّ هَذِهِ الْهُوَّةَ الَّتِي تَصِفُهَا يَا مُعَاذُ هِيَ نَتِيجَةُ حَتْمِيَّةٍ لِمَنْظُورٍ يَرَى الْكَوْنَ مَادَّةً صَمَاءً، مَخْصُصٌ "حَقَائِقُ" مُحَايِدَةٍ لَا تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا أَيَّ قِيَمَةٍ أَوْ غَايَةٍ. أَمَّا التَّبَيَّنُ الْقُرْآنِيُّ فَيَنْبَظِلُ مِنْ تَصَوُّرٍ مُخْتَلِفٍ تَمَامًا. إِنَّهُ يَرَى أَنَّ "الْحَقَائِقُ" نَفْسُهَا، "مَا هُوَ كَائِنٌ"، مُشْبَعَةٌ بِـ"الْقِيمِ" وَ"الغَايَاتِ" مُنْذُ لَحْظَةٍ وَجُودِهَا. فَالْكَوْنَ لَيْسَ مُجَرَّدَ "شَيْءٍ"، بَلْ هُوَ "آيَةٌ" تَدُلُّ عَلَى خَالِقِهَا. وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ مُجَرَّدَ "كَائِنٍ"، بَلْ هُوَ "خَلِيفَةٌ" لَهُ مَسْئُولِيَّةٌ. لِذَلِكَ، فَإِنَّ التَّعْقُلَ الْقُرْآنِيَّ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَبْنِيَ جِسْرًا فَوْقَ هَوَّةٍ، بَلْ هُوَ يَكْشِفُ عَنِ الْجِسْرِ الْمَوْجُودِ أَصْلًا بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْقِيَمَةِ.»

«وَلَنَرِ كَيْفَ يَبْنِي هَذَا السَّلْمَ الَّذِي يَرْبِطُ الْأَرْضَ بِالسَّمَاءِ. إِنَّهُ سَلَّمَ دُو ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ رَّئِيسَةٍ: دَرَجَةُ الْمَعْرِفَةِ الْحَسِّيَّةِ، فَدَرَجَةُ الْمَعْرِفَةِ الرُّوحِيَّةِ، وَفِي الْقِيَمَةِ دَرَجَةُ الْقِيَمِ.»

«أَمَّا الدَّرَجَةُ الْأُولَى، الْمَعْرِفَةُ الْحَسِّيَّةُ، فَهِيَ أَسَاسُ السَّلْمِ الَّذِي يَزَكُّزُ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ. إِنَّهَا تَبْدَأُ بِالْإِدْرَاكِ وَالْمُشَاهَدَةِ عَبْرَ الْحَوَاسِّ. وَلَكِنْ، كَمَا يَقُولُ مُعَاذُ، قَدْ تَكُونُ هَذِهِ مُجَرَّدَ "حَقَائِقٍ" خَامَّةٍ. هُنَا يَأْتِي دَوْرُ التَّعْقُلِ

لِيَزْفَعَهَا دَرَجَةً. كَيْفَ؟ عَنْ طَرِيقِ رَبِّطِهَا بِالْمَسْئُولِيَّةِ وَالْعَايَةِ، كَمَا رَأَيْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾. فَالْقُرْآنُ يَأْخُذُ الْفِعْلَ الْحَسِّيَّ ("الْإِبْصَارَ") وَيُحَوِّلُهُ مُبَاشَرَةً إِلَى قَضِيَّةٍ قِيَمِيَّةٍ (مَسْئُولِيَّةِ الْمَرْءِ عَنْ خِيَارَاتِهِ). فَالتَّعَقُّلُ هُنَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ "الْإِدْرَاكَ الْحَسِّيَّ" إِلَى "بَصِيرَةٍ" ذَاتِ تَبَعَاتٍ.»

«ثُمَّ نَصْعَدُ إِلَى الدَّرَجَةِ الْوُسْطَى، وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ الرُّوحِيَّةُ. وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ الْمُسْتَمَدَّةُ مِنَ الْوَحْيِ وَالْإِيمَانِ. هُنَا قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَذَا هُوَ عَالَمُ التَّسْلِيمِ، فَمَا دَوْرُ التَّعَقُّلِ فِيهِ؟ وَالْجَوَابُ هُوَ أَنَّ دَوْرَهُ مَحْوَريٌّ. إِنَّهُ يَعْمَلُ كـ "إِطَارٍ" يُنْظِمُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ الرُّوحِيَّةَ وَيَحْمِيهَا مِنَ التَّحَوُّلِ إِلَى خُرَافَةٍ أَوْ سَطْحٍ. يَأْتِي التَّعَقُّلُ لِيَرْبِطَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ بِجَهْدِ الْإِنْسَانِ وَسَعْيِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. فَالْهَدَايَةُ (وَهِيَ مَعْرِفَةُ رُوحِيَّةٌ) لَيْسَتْ شَيْئًا سَلْبِيًّا نَنْتَظِرُهُ، بَلْ هِيَ نَتِيجَةُ لـ "جِهَادٍ" وَاعٍ وَمَقْصُودٍ. فَالتَّعَقُّلُ هُوَ الَّذِي يُوَجِّهُ هَذَا الْجِهَادَ، وَيَجِدُّ الْإِيمَانَ، وَيُثَبِّتُهُ عَلَى أَسَاسٍ رَاسِخَةٍ.»

«وَأَخِيرًا، نَصِلُ إِلَى قِمَّةِ السَّلَامِ، الدَّرَجَةِ الَّتِي تَتَجَمَّعُ فِيهَا خُيُوطُ الْمَعْرِفَةِ الْحَسِّيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ لِنُتِجَ الثَّمَرَةُ النَّهَائِيَّةُ. هَذِهِ هِيَ دَرَجَةُ الْقِيَمِ.»

«"الْقِيَمِ" الْعُلْيَا - كَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالصِّدْقِ وَالْإِحْسَانِ - هِيَ غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ. فَالْعِلْمُ الَّذِي لَا يُنْتِجُ خُلُقًا هُوَ عِلْمٌ أَبْتَرُ. وَالْإِيمَانُ الَّذِي لَا يَتَجَسَّدُ فِي قِيَمَةٍ هُوَ إِيمَانٌ نَاقِصٌ. وَمَا هُوَ دَوْرُ التَّعَقُّلِ هُنَا؟ دَوْرُهُ هُوَ أَنْ يَكُونَ الْأَدَاةُ الَّتِي "تُنَبِّتُ" هَذِهِ الْقِيَمَ فِي سُلُوكِ الْفَرْدِ وَبِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ. إِنَّهُ الَّذِي يَنْظُرُ فِي قِيَمَةِ "الْإِحْسَانِ" الْعُلْيَا، ثُمَّ يَسْتَنْبِطُ كَيْفِيَّةَ تَطْبِيقِهَا فِي أَدَقِّ تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ. وَهُوَ الَّذِي يَرْبِطُ هَذِهِ الْقِيَمَ بِمَصِيرِ الْإِنْسَانِ النَّهَائِيِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ جَزَاءِ الْمُتَّقِينَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *

عَاذِينَ مَا عَاتَنَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ». فَالْجَزَاءُ الْآخَرِيُّ مُبْنِيٌّ عَلَى تَجَسُّدِ قِيَمَةِ "الْإِحْسَانِ" فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

«وَلَعَلَّ أَفْضَلَ مِثَالٍ تَطْبِيقِيٍّ لِهَذَا السُّلَمِ الْمُتَكَامِلِ هُوَ سُورَةُ الرَّحْمَنِ» نَفْسُهَا. تَأَمَّلُوا كَيْفَ تَبَيَّنَتِ السُّورَةُ وَعَيْنًا صُعُودًا.

«إِنَّهَا تَبْدَأُ بِ الْمَعْرِفَةِ الرُّوحِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ: «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». هَذِهِ هِيَ الْحَقَائِقُ الْمُخَوِّرَةُ.»

«ثُمَّ تَنْتَقِلُ لِتَأْسِيسِ الْقِيَمَةِ الْعُلْيَا الْحَاكِمَةِ: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ». فَقِيَمَةُ "الْعَدْلِ" وَ"الْمِيزَانِ" هِيَ الْقَانُونُ الْأَسَاسِيُّ.»

«ثُمَّ تَأْخُذُنَا فِي رَحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْحِسِّيَّةِ، فَتَعْرِضُ عَلَيْنَا عَشْرَاتِ الْآيَاتِ وَالنِّعَمِ الْمُشَاهِدَةِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، النَّجْمُ وَالشَّجَرُ، الْأَرْضُ ذَاتُ الْأَفَاكِهِ وَالنَّخْلُ، الْبَحْرَانِ اللَّذَانِ يَلْتَقِيَانِ، اللَّوْلُ وَالْمَرْجَانُ...»

«وَمَاذَا تَفَعَّلَ السُّورَةُ؟ إِنَّهَا تَسْتَخْدِمُ "تَعَقُّلَنَا" كَسُلَمٍ لِيَرْبِطَ هَذِهِ الْمُشَاهَدَاتِ الْحِسِّيَّةِ بِالْحَقِيقَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْقِيَمَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ السُّؤَالِ الْمُتَكَرِّرِ الَّذِي يَهْزُ الْوُجْدَانَ: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». إِنَّهَا تَقُولُ لَنَا: "خُذُوا هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ الْحِسِّيَّةَ، وَأُضْعِدُوا بِهَا عَلَى سُلَمِ التَّعَقُّلِ، لِتَصِلُوا إِلَى تَصْدِيقِ الْمَعْرِفَةِ الرُّوحِيَّةِ وَتَطْبِيقِ الْقِيَمَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ".»

ثُمَّ قَدَّمَ الْإِمَامُ الْقَاعِدَةَ التَّاسِعَةَ وَالْعِشْرِينَ:

«التَّعَقُّلُ هُوَ السُّلَمُ الَّذِي يَرْبِطُ الْمَعَارِفَ بِالْقِيَمِ، فَيُحوِّلُ الْجِسَّ إِلَى بَصِيرَةٍ، وَإِلْيَمَانٍ إِلَى هُدًى، وَالْقِيَمَ إِلَى حَيَاةٍ وَحَضَارَةٍ. وَهَكَذَا يَصِيرُ التَّعَقُّلُ هُوَ الْمِفْصَلُ الْبُنْيَانِيُّ الَّذِي يُقِيمُ صَرَحَ "مَنْطِقِ الْبَيَانِ" مُتَكَامِلًا.»

سَادَ صَمْتُ طَوِيلٍ وَعَمِيقٍ، صَمْتُ يُشَبِّهُ ذَلِكَ الَّذِي يَغْقُبُ النَّظَرُ
إِلَى لَوْحَةٍ فَسَيُفَسِّسُ عَظِيمَةً لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، حِينَ تَتَجَمَّعُ أَلْفُ الْقُطْعِ
الصَّغِيرَةِ الْمُتَنَائِرَةِ لِتُشَكِّلَ صُورَةً وَاحِدَةً بَاهِرَةً.

ثُمَّ رَفَعَ الْإِمَامُ نَظْرَهُ وَجَالَ بِهِ فِي وُجُوهِ طُلَّابِهِ، وَقَدْ رَأَى فِيهَا أَثَرَ
الرَّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي خَاضَهَا مَعًا. قَالَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ نَبْرَةَ الْخِتَامِ:

«لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى قِمَّةِ السُّلَمِ. لَقَدْ تَجَوَّلْنَا فِي كُلِّ أَرْجَاءِ هَذِهِ
الْمَمْلَكَةِ الْبَاطِنِيَّةِ. بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا مِنْذُ لَيَالٍ يُعْنَوَانِ كَبِيرٍ: "جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ
وَالْتَّعَقُّلِ: رَوَايَةُ فِي الْبَحْثِ عَنِ مَنْطِقِ الْبَيَانِ". وَالْآنَ، بَعْدَ كُلِّ مَا نَاقَشْنَاهُ،
مِنْ أَدَوَاتٍ وَمَرَاتِبٍ وَمَقَاصِدَ وَسُنَنِ وَمَنَاهِجٍ وَمَعَاوِقٍ، أَسْأَلُكُمْ سُؤَالَ آخِرٍ
لِمَجْلِسِنَا الْخِتَامِيِّ: مَاذَا وَجَدْنَا؟ مَا هِيَ الْخُلَاصَةُ النَّهَائِيَّةُ؟ مَا هُوَ الدَّوْرُ
الْأَخِيرُ وَالْحَاسِمُ لـ "الْتَّعَقُّلِ" فِي هَذَا الْبِنَاءِ كُلِّهِ؟ لِمَاذَا هُوَ حَقًّا الْعَمُودُ
الْفَقْرِيُّ لـ "مَنْطِقِ الْبَيَانِ"؟»

الْفَصْلُ 30 (الْخِتَامِيُّ): الْتَعَقُّلُ الْعَمُودُ الْفَقْرِيُّ لِمَنْطِقِ الْبَيَانِ

كَانَتْ لَيْلَةً صَافِيَةً، وَكَانَ الْقَمَرُ بَدْرًا يَغْمُرُ الْمَدِينَةَ بِنُورٍ فَضِيٍّ هَادِيٍّ. دَاخِلَ الْمَجْلِسِ، لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حِدَّةٌ فِكْرِيَّةٌ أَوْ تَرَقُّبٌ قَلْبِيٍّ، بَلْ سَادَتْ سَكِينَةٌ عَمِيقَةٌ، سَكِينَةٌ مِّنْ أَنْهَى سَفَرًا طَوِيلًا وَجَلَسَ لِيَتَأَمَّلَ فِي ثِمَارِهِ. الْوُجُوهُ الَّتِي جَلَسَتْ فِي الْحَلَقَةِ كَانَتْ هِيَ نَفْسُهَا الَّتِي بَدَأَتْ الرِّحْلَةَ مُنْذُ أَسَابِيعَ، وَلَكِنَّ شَيْئًا عَمِيقًا كَانَ قَدْ تَغَيَّرَ فِي بَرِيقِ أَعْيُنِهَا وَفِي طُمَأِينَةِ مَلَامِحِهَا. لَقَدْ حَاضُوا مَعًا رِحْلَةَ الْغَوْصِ فِي الْأَذَاتِ، وَرَسَمُوا خَرَائِطَ الْوُعْيِ، وَتَعَلَّمُوا لُغَةَ الْبَيَانِ الْفَرَانِيَّ.

اسْتَهَلَّ الْإِمَامُ الْجَلْسَةَ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ دِفْنًا خَاصًّا، صَوْتُ الْمُعَلِّمِ الَّذِي يَفْخَرُ بِتَلَامِيذِهِ:

«لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى مَحْطَّتِنَا الْأَخِيرَةِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ رِحْلَتِنَا. وَفِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ، تَرَكْتُكُمْ مَعَ سُؤَالٍ أَحِيرٍ، السُّؤَالِ الَّذِي يُلْخِصُ كُلَّ شَيْءٍ: بَعْدَ كُلِّ مَا اسْتَعْرَضْنَاهُ، مَا هِيَ الْمَكَانَةُ النِّهَائِيَّةُ لِـ"الْتَعَقُّلِ"؟ لِمَذَا هُوَ حَقًّا الْعَمُودُ الْفَقْرِيُّ لِـ"مَنْطِقِ الْبَيَانِ"؟»

صَمَتَ الْإِمَامُ لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ بِأَبْتِسَامَةٍ:

«الْلَّبْلَبَةُ، لَنْ أَقْدَمَ إِجَابَاتٍ. بَلْ أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكُمْ. أُرِيدُ أَنْ أَرَى ثَمَرَةَ هَذِهِ الْجُلُوسَاتِ فِي فَهْمِكُمْ وَتَعَقُّلِكُمْ أَنْتُمْ. فَالْغَايَةُ مِنَ الدَّرْسِ لَيْسَتْ أَنْ يَمْتَلِئَ الْإِنَاءُ، بَلْ أَنْ يَنْبُعَ الْمَاءُ. فَمَنْذُ يَبْدَأُ؟ مَاذَا وَجَدْتُمْ؟»

سَادَ صَمْتُ قَصِيرٍ، لَمْ يَكُنْ صُمْتَ حَيْرَةً، بَلْ صُمْتَ تَرْتِيبٍ لِلْأَفْكَارِ الْعَمِيقَةِ. ثُمَّ جَاءَ صَوْتُ خَالِدٍ الْهَادِي، وَقَدْ خَلَعَ عَنْهُ تَرْدُدُهُ الْقَدِيمُ:

«شَيْخَنَا، إِذَا سَمَحْتَ لِي أَنْ أَبْدَأَ بِالْبَدَاهَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ بِدِيَهِيَّةٍ بِالنِّسْبَةِ لِي. لَقَدْ وَجَدْتُ أَنَّ "الْتَّعَقُّلَ" هُوَ مَا يَجْعَلُنَا بَشَرًا أَصْلًا. إِنَّهُ الْفَارِقُ بَيْنَ الْوُجُودِ الْهَادِفِ وَالْوُجُودِ الْعَابِثِ. لَقَدْ هَزَّنِي تِلْكَ الْآيَةُ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فِي بَدَايَةِ رَحَلَتِنَا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. أَذْرَكْتُ أَنَّ تَعْطِيلَ الْتَّعَقُّلِ لَيْسَ مُجَرَّدَ قُصُورٍ فِكْرِيٍّ، بَلْ هُوَ هُبُوطٌ عَنْ مَرْتَبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. فَهُوَ الْعَمُودُ الْفَقِيرِيُّ لِأَنَّهُ الْهَيْكُلُ الَّذِي يُقِيمُ إِنْسَانِيَتَنَا مُنْتَصِبَةً.»

أَوْمَاتٌ لَيْلَى بِرَأْسِهَا وَأَصَافَتْ بِصَوْتٍ يَحْمِلُ الطَّمَأِينَةَ:

«وَقَدْ وَجَدْتُ أَنَّهُ الْعَمُودُ الْفَقِيرِيُّ لِكَيْتَانِي الدَّاخِلِيَّ. قَبْلَ هَذِهِ الْجُلُوسَاتِ، كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ دَاخِلِي مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقُوَى الْمُتَصَارِعَةِ: قَلْبِي يُرِيدُ شَيْئًا، وَعَقْلِي يَقُولُ شَيْئًا آخَرَ، وَنَفْسِي تَشْتَهِي شَيْئًا ثَالِثًا. أَمَّا الْآنَ، فَقَدْ فَهِمْتُ أَنَّ "الْتَّعَقُّلَ" هُوَ "صَاحِبُ الْإِيقَاعِ" الَّذِي يُفْتَرِضُ بِهِ أَنْ يُوَحِّدَ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ. إِنَّهُ الْخَيْطُ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ الْجَسِّ وَالرُّوحِ، وَالْفِكْرِ وَالشُّعُورِ. فَهُوَ الْعَمُودُ الْفَقِيرِيُّ لِأَنَّهُ يَحْمِي الْإِنْسَانَ مِنَ التَّشْتُّبِ وَالتَّمَرُّقِ الدَّاخِلِيِّ.»

جَاءَ دَوْرٌ مُعَاذٍ، وَتَكَلَّمَ بِبُطْءٍ وَعُمُقٍ، وَكَأَنَّهُ يَعْزِضُ خُلَاصَةً صِرَاعٍ فِكْرِيٍّ طَوِيلٍ:

«كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْقِيَمَ عَالَمَانِ مُنْفَصِلَانِ، وَأَنَّ الْعَقْلَ يَجِبُ أَنْ يَبْقَى مُحَايِدًا وَبَارِدًا لِيَكُونَ عِلْمِيًّا. وَلَكِنِّي وَجَدْتُ أَنَّ "التَّعَقُّلَ" هُوَ الْعُمُودُ الْفَقْرِيُّ لِأَنَّهُ بِالضَّبْطِ يَرْفُضُ هَذَا الْفَصَامَ. إِنَّهُ يُصِرُّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِلَا قِيَمَةٍ هُوَ عِلْمٌ أَعْمَى، وَالْقِيَمَةُ بِلَا عِلْمٍ هِيَ قِيَمَةٌ هَشَّةٌ. إِنَّهُ الْحِسْرُ الَّذِي يُحَوِّلُ "المَعْرِفَةَ" إِلَى "هَدًى"، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ الْعِلْمَ نَافِعًا. فَهُوَ الْعُمُودُ الْفَقْرِيُّ لِأَنَّهُ يَضْمَنُ أَنَّ جَسَدَ الْمَعْرِفَةِ الضَّخْمَ يَتَحَرَّكُ بِاتِّجَاهِ الْخَيْرِ وَالْعُمَرَانِ، لَا بِاتِّجَاهِ الْفَسَادِ وَالْخَرَابِ.»

تَنَفَّسَ أَرِسْطُو بِعُمُقٍ وَقَالَ:

«وَأَنَا وَجَدْتُ أَنَّهُ الْعُمُودُ الْفَقْرِيُّ لِأَنَّهُ يُؤَسِّسُ لِنَوْعِ أَسْمَى مِنَ الْمَنْطِقِ. لَقَدْ دَخَلْتُ هَذَا الْمَجْلِسَ وَأَنَا أَوْمِنُ بِأَنَّ "الْقِيَاسَ" الصُّورِيَّ هُوَ قِمَّةُ التَّفَكِيرِ. لَقَدْ كُنْتُ مُعْجَبًا بِقَاضِي "الْقَالِبِ". وَلَكِنِّي أَذْرَكْتُ أَنَّ "التَّعَقُّلَ" يُقَدِّمُ لَنَا مَا هُوَ أَعْظَمُ: إِنَّهُ يُؤَسِّسُ لـ "الْمِيزَانِ". وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا هَائِلٌ. فَالْقِيَاسُ يَنْحُتُ عَنْ "صِحَّةِ الْحُجَّةِ"، أَمَّا الْمِيزَانُ فَيَنْحُتُ عَنْ "صِحَّةِ الْحَيَاةِ". الْقِيَاسُ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ فِي جَدَلٍ، وَالْمِيزَانُ يُرِيدُ أَنْ يُقِيمَ الْعَدْلَ وَالْحُرِّيَّةَ. فَهُوَ الْعُمُودُ الْفَقْرِيُّ لِأَنَّهُ يَنْقُلُ الْمَنْطِقَ مِنْ كَوْنِهِ لَعْبَةً ذَهْنِيَّةً إِلَى كَوْنِهِ أَدَاةً لِبِنَاءِ الْحَضَارَةِ.»

وَاصَلَ سَلْمَانُ الصُّورَةَ الْكَلِّيَّةَ:

«وَأَنَا أَرَاهُ الْعُمُودَ الْفَقْرِيَّ لِقِصَّتِنَا الْبَشَرِيَّةِ. فَكُلُّ الْمَقَامَاتِ الَّتِي تَحَدَّثُنَا عَنْهَا - "الْإِيمَانُ"، "الصَّبْرُ"، "الرَّجَاءُ" - تَكْتَسِبُ عُقْمَهَا وَصِدْقَهَا مِنْهُ. "الْإِيمَانُ" بِلَا تَعَقُّلٍ هُوَ تَقْلِيدٌ أَعْمَى. وَ"الصَّبْرُ" بِلَا تَعَقُّلٍ هُوَ تَحْمُلُ يَائِسٍ. وَ"الرَّجَاءُ" بِلَا تَعَقُّلٍ هُوَ أُمْنِيَّةٌ سَادَجَةٌ. إِنَّ "التَّعَقُّلَ" هُوَ الَّذِي يَغْزِلُ كُلَّ هَذِهِ الْحَالَاتِ الْقَلْبِيَّةِ فِي نَسِيجٍ وَاحِدٍ قَوِيٍّ، فَيَجْعَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْلًا

حَقِيقِيًّا فِي مِلْحَمَةِ وُجُودِهِ.»

وَجَاءَ صَوْتُ زَيْنَبَ لِيَجْمَعَ كُلَّ الْخُيُوطِ فِي خُلَاصَةٍ جَامِعَةٍ. قَالَتْ
بِهْدُوءٍ وَرَصَانَةٍ:

«لَقَدْ وَجَدْتُ أَنَّهُ الْعَمُودُ الْفَقْرِيُّ لِأَنَّهُ "الشَّرْطُ الْقَلْبِيُّ" لِكُلِّ شَيْءٍ
آخَرَ. فَهُوَ الَّذِي يُحَوِّلُ "الْآيَاتِ" مِنْ مُجَرَّدِ ظَوَاهِرٍ إِلَى "حُجَّةٍ" وَ"بَيَانٍ". وَهُوَ
الَّذِي يُؤَسِّسُ لـ "الْعَدْلِ" فِي الْمُجْتَمَعِ. وَهُوَ الَّذِي يُنَبِّئُ "الْقِيَمَ" فِي
السُّلُوكِ. وَهُوَ الَّذِي يُرْسِي "الْإِيمَانَ" عَلَى الظُّمَائِيَّةِ. كُلُّ أَلْبِنَاءِ الَّذِي
دَرَسْنَاهُ، بِكُلِّ ظَوَائِقِهِ وَغَرَافِهِ، يَتَرَكِّزُ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ. فَإِذَا أُقِيمَ هَذَا
الْعَمُودُ، اُسْتَقَامَ الْبُنْيَانُ كُلُّهُ. وَإِذَا اُعْجُجَ أَوْ كُسِرَ، تَدَاعَى كُلُّ شَيْءٍ فَوْقَهُ.»

كَانَ الْإِمَامُ يَسْتَمِعُ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ وَالشَّرُورُ يَغْلُو وَجْهَهُ. وَعِنْدَمَا
انْهَتْ زَيْنَبُ كَلَامَهَا، قَالَ:

«بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ جَمِيعًا. لَقَدْ أَجَبْتُمْ عَلَى السُّؤَالِ بِأَفْضَلِ مِمَّا
كُنْتُ سَاجِبٌ. لَقَدْ أَصْبَحَ "مَنْطِقُ التَّبَيَّنِ" حَبًّا فِيكُمْ. وَلَقَدْ اثْبَتْتُمْ أَنَّ
"التَّعَقُّلَ" لَيْسَ فَرَعًا، بَلْ هُوَ الْأَصْلُ، وَلَيْسَ جَانِبًا، بَلْ هُوَ الْقَلْبُ.»

«وَتَصَدِيقًا لِكَلَامِكُمْ،» وَاصَلَ الْإِمَامُ، «يَجْعَلُ الْقُرْآنُ التَّعَقُّلَ هُوَ
الْمُعْيَارَ الْفَاصِلَ. فَهُوَ يَقُولُ لَنَا بِوُضُوحٍ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ»، أَيَّ أَنَّ الْآيَاتِ لَا تَكْشِفُ عَنْ كُنُوزِهَا إِلَّا لِأَهْلِ التَّعَقُّلِ. وَيُصْدِرُ
حُكْمَهُ الْقَاسِيَّ عَلَى الَّذِينَ يُعْطِلُونَهُ. وَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّهُ يَرْبِطُ التَّعَقُّلَ لَا
بِالدِّمَاغِ، بَلْ بِالْأَدَوَاتِ الَّتِي تُغْذِيهِ وَالْمَرْكَزَ الَّذِي يَحْتَضِنُهُ: «أَقْلَمُ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا». فَالْقَلْبُ
وَالسَّمْعُ هُمَا مِنْ أَعْظَمِ مَرَائِزِ التَّعَقُّلِ.»

«وَكَحْتَاجٍ لِرَحْلَتِنَا، لِنَقُمَ بِتَمَرِينٍ أَجِيرٍ. لِنَنْظُرَ فِي سُورَةِ "يس"، قَلْبَ الْقُرْآنِ. إِنَّهَا بِأَكْمَلِهَا مَنْظُومَةٍ مُتَكَامِلَةٍ لـ"مَنْطِقِ الْبَيَانِ". إِنَّهَا تَسْتَدْعِي "تَعَقُّلَنَا" مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ: تَعْرِضُ عَلَيْنَا آيَاتِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (تَفَكَّرْ). وَتَحْكِي لَنَا قِصَّةَ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ (أَعْتَبَارْ). وَتَذَكِّرُنَا بِأَصْلِ خَلْقِنَا (تَذَكَّرْ). وَتَدْعُونَا لِفَهْمِ مَعَانِيهَا (تَدَبَّرْ). وَكُلُّ ذَلِكَ لِنُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَى الْقُلُوبِ الْغَافِلَةِ وَتُوصِلَ الْقُلُوبَ الْحَيَّةَ إِلَى الْأَظْمِنَانِ.»

ثُمَّ وَقَفَ الْإِمَامُ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً أَجِيرَةً، وَقَدَّمَ الْخُلَاصَةَ الْقَاعِدِيَّةَ الْأَخِيرَةَ لِهَذِهِ الرَّحْلَةِ الْعِلْمِيَّةِ:

«الْتَّعَقُّلُ هُوَ الْعَمُودُ الْفَقْرِيُّ لِمَنْطِقِ الْبَيَانِ: بِهِ يَتَوَحَّدُ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ فَلَا يَتَنَاقِضَانِ، وَبِهِ تَنْبُتُ الْقِيَمُ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَكُونُ مُجَرَّدَ شِعَارَاتٍ، وَبِهِ يُقَامُ الْمُجْتَمَعُ عَلَى الْعَدْلِ وَالْتَّعَاوُنِ، وَبِهِ تُؤَسَّسُ الْحَضَارَةُ عَلَى الْهُدَى وَالرَّشَادِ. فَمَنْ فَقَدَهُ تَشَتَّتَ أَمْرُهُ وَضَلَّ سَعْيُهُ، وَمَنْ أَقَامَهُ فَقَدْ أَقَامَ مِيزَانَ الْبَيَانِ فِي نَفْسِهِ وَفِي الْعَالَمِ.»

سَادَ صَمْتُ طَوِيلٍ جَمِيلٍ. صَمْتُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَرَقُّبٌ لِسُؤَالٍ قَادِمٍ، بَلْ كَانَ صَمْتُ الْإِمْتِلَاءِ وَالشُّكْرِ وَالْوُضُولِ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ الْإِمَامُ مَرَّةً أُخِيرَةً، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمُعَلِّمٍ، بَلْ كَرَفِيقٍ دَرَبٍ:

«لَقَدْ أَكْمَلْنَا هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ مِنْ رَحْلَتِنَا. لَقَدْ حَاوَلْنَا مَعًا أَنْ نَرْسُمَ خَرِيطَةً لِأَعْظَمِ هَبَّةٍ وَهَبَهَا اللَّهُ لَنَا. وَلَكِنْ تَذَكَّرُوا دَائِمًا: الْخَرِيطَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْأَرْضُ. وَالْمَعْرِفَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْحَيَاةُ. الْعَمَلُ الْحَقِيقِيُّ يَبْدَأُ غَدًا، حِينَ تَخْرُجُونَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَتَحَاوِلُونَ أَنْ تَجْعَلُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِيزَانًا حَيًّا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ حَيَاتِكُمْ. أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُبَيِّرَ بَصَائِرَنَا وَيُشْرَحَ صُدُورَنَا

جَدِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُّلِ - مُقَدِّمَاتُ فِي مَنْطِقِ التَّيَّانِ

وَيُتَبَّتَ قُلُوبَنَا عَلَى الْحَقِّ.»

وَقَفَ الطُّلَّابُ وَاجِدًا تِلْوَ الْآخِرِ، وَودَّعُوا شَيْخَهُمْ بِأَمْتِنَانٍ عَمِيقٍ.

خَرَجُوا مِنْ بَابِ الْمَجْلِسِ إِلَى هَوَاءِ اللَّيْلِ النَّفِيِّ. لَمْ يَخْرُجُوا
كَتَلَامِيذٍ يُعَادِرُونَ دَرْسًا، بَلْ كَمُسَافِرِينَ اسْتَلَمُوا خَرَائِطَهُمْ لِلتَّوَّ، وَالشَّمْسُ
عَلَى وَشْكِ الشَّرُوقِ.

الْخَاتِمَةُ: الْعِبْرَةُ

إِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ رَحْلَةً فِي الْبَحْثِ عَنِ مَعْنَى الْعَقْلِ وَحَقِيقَةِ الْتَّعَقُّلِ. رَحْلَةً لِيَتَجَلَّى لِلْقَارِئِ أَنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ نَصْلًا يَقْطَعُ فَيُجَرِّدُ الْحَيَاةَ مِنْ دِفْنِهَا، وَلَا هُوَ أَدَاةٌ بَارِدَةٌ تُحَاسِبُ وَتَقْيِسُ فَقَط. بَلْ هُوَ طَاقَةٌ تُفْعَلُ بِالْتَّعَقُّلِ، وَفِعْلٌ يَلْتَنِمُ فِيهِ الْقَلْبُ وَالرُّوحُ وَالنَّفْسُ وَالْحَوَاشِ وَالْمَشَاعِرُ، وَتَنْعَقِدُ فِيهِ الْمَعْرِفَةُ مَعَ الْقِيَمِ، وَتَتَّحِدُ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَقِّ فِي مِيزَانٍ وَاحِدٍ. هُنَالِكَ يَكُونُ الْتَّعَقُّلُ هُوَ الطَّرِيقُ، وَتَكُونُ الْحِكْمَةُ هِيَ الثَّمَرَةُ.

وَالْعِبْرَةُ الْكُبْرَى أَنَّ الْتَّعَقُّلَ هُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْإِنْسَانِ، لِيَكُونَ بِهِ شَرِيكًا فِي سُنَنِ الْخَلْقِ، وَأَمِينًا عَلَى الْأَخْتِيَارِ وَالْحُرِّيَّةِ، وَبَاحِثًا عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ. فَالْعَقْلُ فِي الْبُصُورِ الْبَيَانِيَّ لَيْسَ نِظَامًا مُنْفَصِلًا، بَلْ هُوَ عِمَادُ الْإِنْسَانِ وَسَبِيلُهُ إِلَى الطَّمَأْنِينَةِ وَالرُّشْدِ.

وَهَكَذَا، تَكُونُ «جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَّعَقُّلِ» مِفْتَاحًا لِمَنْطِقِ الْبَيَانِ، وَمُقَدِّمَةً لِبِنَاءِ مَدْرَسَةِ جَدِيدَةٍ فِي الْفِكْرِ وَالْحَضَارَةِ، تَسْتَمِدُّ أُسُسَهَا مِنَ الْوَحْيِ، وَتَنْفَتِّحُ عَلَى التَّجَرِبَةِ، وَتَقْيِمُ الْعِلْمَ عَلَى مِيزَانِ الْقِيَمِ.

فَمَنْ نَدَبَرَ مَا سَبَقَ عِلِمَ أَنَّ الْعَقْلَ إِذَا افْتَصَرَ عَلَى الْفَيَاسِ صَاعٍ، وَإِذَا انْفَصَلَ عَنِ الْقِيَمِ انْحَرَفَ، وَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ وَيَتَكَامَلُ بِالْتَّعَقُّلِ الَّذِي يُخَيِّ الْقَلْبَ وَيُقِيمُ الْمِيزَانَ.

«جَدَلِيَّةُ الْعَقْلِ وَالْتَعَقُلِ»

رَوَايَةُ فِكْرِيَّةٌ تُقَدِّمُ حِوَارًا حَيًّا
بَيْنَ الْإِمَامِ وَطُلَّابِهِ فِي رِحْلَةٍ
الْبَحْثِ عَنْ مَعْنَى الْعَقْلِ
وَحَقِيقَةِ التَّعَقُّلِ.

تَكْشِفُ الرِّوَايَةُ أَنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ آلَةً
بَارِدَةً لِلْقِيَاسِ وَالْمُحَاسَبَةِ، بَلْ هُوَ
فِعْلٌ حَيٌّ يَلْتَمِمْ فِيهِ الْقَلْبُ وَالرُّوحُ
وَالنَّفْسُ وَالْحَوَاسُّ وَالْمَشَاعِرُ. وَتُقَدِّمُ
بَدِيلًا أَصِيلًا عَنِ الْفَلَسَفَةِ يُسَمَّى
عِلْمُ الْكَلَامِ الْبَيَانِيِّ، حَيْثُ تَتَّحِدُ
الْمَعْرِفَةُ مَعَ الْقِيَمِ وَالْحَيَاةِ فِي مِيزَانٍ
وَاحِدٍ، وَتَكُونُ الْحِكْمَةُ ثَمَرَتَهُ الْعُظْمَى.